٢٦ سبتمبر
المسيرة والميلاد

محطات من نضال الأحرار

د. ثابت الأحمدي

تقديم معالي الشيخ/ محمد عيضة شبيبة
وزير الأوقاف والإرشاد

الناشر/ وزارة الأوقاف والإرشاد
الجمهورية اليمنية

26 سبتمبر

المسيرة والميلاد

محطات من نضال الأحرار

د. ثابت الأحمدي

الناشـــــر

وزارة الأوقاف والإرشاد - الجمهورية اليمنية

٢٠٢١م

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب: ٢٦ سبتمبر المسيرة والميلاد محطات من نضال الأحرار
المؤلف: د. ثابت الأحمدي
الناشر: وزارة الأوقاف والإرشاد - الجمهورية اليمنية
المقاس: ١٧عرض ٢٤ ارتفاع
الإيداع: تم الإيداع في الهيئة العامة للكتاب - فرع مأرب
رقم الإيداع: لدى فرع الهيئة العامة للكتاب- م/ مأرب (١٨/ ٢٠٢١)
الطبعة: الأولى سبتمبر ٢٠٢١م
الحقوق: جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

إهـــداء

إلى أرواح العظماء من مناضلينا الكبار الذين رحلوا عنا جسدا، وبقوا في ذاكرة الأجيال فنارات ضوء ومشاعل نور:

علي عبدالمغني

الزبيري

نعمان

السلال

الإرياني

وإلى كل جمهوري في محراب ٢٦ سبتمبر ٦٢، و١٤ أكتوبر ٦٣م.

تحية شكر وتقدير لمعالي وزير الأوقاف والإرشاد

الشيخ محمد عيضة شبيبة

لمبادرته الكريمة في رعاية هذه المادة، واعترافا لأهل الفضل بالفضل، نقول:

لولاه ما كانت لترى النور..

تقـــــــديم

بقلم معالي الشيخ محمد عيضة شبيبة

وزير الأوقاف والإرشاد

المتتبعُ للمشهد الثقافي خلال الست السنوات الأخيرة يجد أنّ مقدارَ ما أنتجه الكتاب والباحثون والأدباء فيما يتعلق بثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م، وأيضا ما يتعلق بتاريخ الإمامة وتفنيد خرافاتها وأساطيرها التي سوّقها كرادلتُها على أنها دين منزل من السماء يفوق ما تم إنتاجه خلال الخمسين عاما التالية للثورة، وهي حالة نستطيع توصيفها بـ «الصحوة الوطنية» المتأخرة، ولنا أن نقول أيضا: الصّحوة الثقافية التي جاءت رد فعل على جنون الإمامة في نسختها الحوثية الجديدة التي ترى في الشعب إقطاعية خاصة بها، نالته بموجب مرسومٍ إلهي مقدس، حد اعتقادهم.!

إنها حالة من ردة الفعل الأقوى التي تبناها شبابٌ مثقفون، وأغلبُها بجهودٍ فردية وخاصة، من منطلق حبهم لوطنهم، وعشقهم لجمهوريتهم التي هي في الأساس ذاتُهم الجمعيّة وروحُهم الحضارية. وبدون الجمهورية ثقافة راسخة، والجمهورية نظامًا سياسيًا فإن ذلك يعني العودة إلى حكم الكهنوت الإمامي الأرعن الذي يشبه حكم الكنيسة الثيوقراطي، في العصور المظلمة لأوروبا. وأي حياة هي حياة الكنيسة؟!

وحد علمي فإن هذا الكتاب هو الخامس للباحث السياسي الدكتور ثابت الأحمدي فيما يتعلق بتاريخ الحركة الوطنية وتاريخ الإمامة. إضافة إلى مؤلفاته

الأخرى في الأدب والسياسة والفكر، سواء ما طبع منها أو ما يزال ينتظر الطبع.

هذا الكتابُ استقراءٌ تاريخيٌ لمحطاتِ النضالِ اليمني تجاه الإمامة، منذ العام ٢٠٠هـ، ابتداءً من مقاومة الفارس والشّاعر اليمني أحمد بن يزيد القشيبي لداعية ابن طباطبا: إبراهيم بن موسى الجزار، الذي أجرم بحق اليمنيين في صعدة، كما أجرم أخوه «زيد النار» بحق العراقيين في البصرة، خارجين عن الدولة الإسلامية القائمة آنذاك، كما هي عادتهم، وعادة من تبعهم إلى اليوم في الخروج على الدول القائمة. وانتهاء بثورة السادس والعشرين من سبتمبر ٦٢م التي مثلت إكليلا نضاليا لكل ما سبقها من النضالات، وفيما بين هاتين المحطتين عشرات المحطات النضالية الأخرى، متنوعة ما بين ثقافية ودينية وسياسية وثورية، ولا يزالُ هذا الشعب حُرًا شامخًا أبيًا في مواجهة هذه الجماعة السُّلالية. وقد توقف المؤلفُ عندها مُستقرئا تفاصيلها برصانة الباحث الأصيل، كما تؤكد على ذلك هوامش هذا العمل، حيث عمل على توثيق معلوماته من مصادرها ومراجعها.

هذا العملُ إضافة نوعيّة للمكتبة الوطنية، يتسم بالشمول والسرد المتناسق للأحداث، يعطي القارئ خلاصة موجزة، وتصورًا جامعًا لتاريخ الحركة الوطنية، وهو ينمُّ عن جهودٍ كبيرةٍ، بُذلت خلال فترة إعداده، ليخرج للقارئ بهذه الصورة، وبمناسبة الذكرى الستين لثورة السادس والعشرين من سبتمبر التي نحتفل بها هذا العام.

أحيي المؤلف على هذا الجهد المتميز، وأحيي كلَّ الشباب اليمني الذين رفدوا قضيتهم الوطنية بالكلمة المعبرة شعرا ونثرا، وهم كثر، إلى جانب المواقف الوطنية الصادقة التي عرفوا بها؛ مستشعرين دورهم الريادي الكبير من موقعهم كأدباء وأكاديميين ومثقفين. وهذا هو الرهانُ الأكبر في معركتنا المصيرية مع النسخة الإمامية الجديدة التي تريد العودةَ باليمن إلى حكمها الكهنوتي الغارق في رجعيته وتخلفه.

إنّ معركتنا مع هذه الجماعة ثقافية قبل أن تكونَ عسكرية، وإن مواجهتها بالكلمة هو سلاحُ كل مثقف، يدافع عن وطنه وأمته، وهو السلاحُ الذي نحتاجه في السلم والحرب على حد سواء؛ إذ أنّ رسالةَ الكلمة لا تتوقف؛ بل إنّ تأثيرَ الكلمة في أزمنة السِّلم أكثر من تأثيرها في أزمنة الحرب؛ لأنّ فوهاتِ البنادق إذا تحاورتْ على طريقتها سدت منافذَ الكلمة وقطعت طريقها، فالفنونُ حربُ الأمم المتقدمة، فيما الحروبُ فنُّ الأمم المتخلفة، كما يُقال.

النصر للجمهورية، المجد لسبتمبر، البقاء للشعب. ولا نامت أعين الجبناء.

المقدمة

قرأنا في تاريخ الطغيان والاستبداد فلم نجد شعبًا من شُعوبِ الأرض أصيب بنكبة تاريخيّة مزمنة كالشعب اليمني.

وقرأنا عن مختلف الجماعات المتطرفة والإرهابية عبر التاريخ فلم نجد أسوأ من الكيان الإمامي الرسي أبدا.

وقرأنا في تاريخ الحركات الوطنية والنضال المستمر فلم نجد نضالا ممتدا بعمر نضال اليمنيين تجاه هذا الكيان.

صراعُ اليمنيين تجاه الكيان الإمامي البغيض يشبه صراعَ الجسد مع السرطان الخبيث، تتشبث الشعيرات السرطانية بنهش الجسد، ويقاوم الجسد آلام المرض.

هذه هي الحال منذ ورود يحيى حسين الرسي إلى اليمن، فارًا من عدالة الدولة العباسية القائمة، كما فرّ بنو عمومته إلى أطراف الدولة الإسلامية آنذاك، إلى الجيل والديلم، وإلى بلاد المغرب، متمردين عصاة على شرعية الدولة القائمة؛ مستغلا فراغ المجتمع اليمني من قياداته المحلية الذين استنزفتهم حروبُ الفتوحات الإسلامية في شمال افريقيا وبلاد الشام وفارس والأندلس، ولم يعودوا.

أسرج الرسيُّ وأحفادُه خيولَ الحرب، وأشرع اليمنيون سيوفَ الدفاع عن أوطانهم وذواتهم، ولا يزالون، في أطول مسيرةٍ نضالية لا تضاهيها مسيرةٌ في كل شُعوبِ المعمورة.

وضع الإمامُ أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني في بداية القرن الرابع الهجري مداميك الحركة الوطنية في بواكيرها الأولى، وها هي اليوم مسيرتها قائمة، لم تنته بعد..!

صراعات وحروب، متصلة ببعضها البعض، لم تخل سنة واحدة من حروب، منذ العام ٢٨٤هـ وحتى قامت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢م، وما تبعها، حتى العام ١٩٧٠م؛ بل وإلى اليوم..!

لا يزالُ أحفادُ الرسي وأتباعُه يكيدون المكائد ويحيكون المؤامرات ضد الشعب اليمني، مستعينين بالفرس اليوم كما استعان كاهنهم الأول بالفرس..!

هذا الكتابُ رصدٌ تاريخيٌ لمحطاتِ النضال اليمني تجاه هذا الكيان منذ داعي ابن طباطبا إبراهيم بن موسى الجزار، ومقاومة الفارس اليمني أحمد بن يزيد القشيبي، مطلع القرن الثالث الهجري، أي قبل ورود الهادي بما يزيد عن ثمانين عاما، وحتى المحطة الكبرى، متمثلة في ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م التي كانت إكليلا وتتويجا لكل ما سبقها من المحطات النضالية. نثبتُ فيه ــ فيما نثبت ــ صلفَ وهمجية هذا الكيان البغيض، كما نثبت أيضا ــ ومن وجهٍ آخر ــ نضالَ اليمنيين ومقاومتهم له، لربط النضال بالنضال، والفكرة بالفكرة. تعزيزًا لقيم الحرية التي تعشقها الأمة، ورفضا لكهنوت الإمامة الذي يحاول فرضه هذا الكيان بنظرية ثيوقراطية عتيقة تنتمي للقرون الأولى، ولا صلة لها بقيم وثقافة القرن الواحد والعشرين.

إنّ تاريخَ هؤلاء الكهنة الطغاة، المتسمين بالأئمة، زورًا وبهتانا هو تاريخ الحرب؛ بل تاريخ الإجرام الذي تطبعت عليه نفوسهم، نزفٌ مستمر لمقدرات الأمة ومقوماتها، كما هو الحاصل بين أيدينا اليوم، إذ لم يمثل الحوثيُّ إلا حلقة واحدة في السلسلة الطويلة، أو قل الطبعة الجديدة من الكتاب الرديء.

رصدٌ تاريخي، لمحطات الآباء والأجداد، من وحي المعاناة اليوم، ونحن نعيش سنوات الشتات خارج أرضنا، وصلتُ فيه الليل بالنهار، مستعينا

بما توافر لي من المصادر التاريخية، وببعض الأساتذة المؤرخين، أخصُّ منهم الزميل والصديق العزيز لطفي فؤاد أحمد نعمان، حفيد المناضل الأستاذ أحمد محمد نعمان رحمه الله الذي أمدني ببعض المصادر التاريخية، والمعلومات المهمة. كما لا أنسى أن أوجه شكري وتقديري لكل زميل وصديق أمدني بالتشجيع والدعم المعنوي الذي كان له الأثر الإيجابي، والشكر لله أولا وآخرًا، وهو المستعان.

د. ثابت الأحمدي

الرياض

15 **رمضان** 1442**هـ، الموافق** 27 **ابريل** 2021م.

الأوطان في وجدان الشعوب

إنّ أهمية الأوطان من أهمية الإنسان نفسه، وما الوطن في محصلته النهائية إلا الإنسان. إذ يتفاعل الثلاثي: الإنسان بهويته التاريخية، والأرض بحدودها الجغرافية، والنظام بتركيبته السياسية فيتشكل منه المفهوم الكلي الجامع لكلمة وطن، وما يترتب على هذا المفهوم من واجبات وحقوق، وخاصة في العصر الحديث.

في القرآن الكريم ذُكرت كلمة «مَوَاطِن» في قوله تعالى: ﴿ ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة﴾ وتعني هنا أماكن، وفقا لمدلول السياق؛ لكننا نجدها بمعناها في بعض الأحكام أو الإشارات القرآنية التي نستشف من خلالها قيمة المكان في الحياة الإنسانية العامة، وهي قيمة مادية ومعنوية معا، يجب التعامل معها بإيجابية. كما يجبُ أن يسودَ التفاعلُ الخلاق بين الإنسان من جهة، ومحيطه ــ بكل مكوناته ــ من جهة أخرى، وأن يكون الخُلقُ القويمُ هو أساسُ التعاملِ بوحيٍ من الضمير الإنساني الخالص، بعيدًا عن النزوات اللاأخلاقية التي يتعدى ضررُها بصورة مباشرة وغير مباشرة على الآخرين، ولأجل ذلك قرر الله في كتابه الكريم تلك العقوبات الصّارمة التي لا هوادة فيها تجاه من أساؤوا في حق أوطانهم وتعدوا على أمنها واستقرارها فقال: ﴿ إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٣٣]

ونلاحظ العقوبة الأخيرة في سلسلة الخيارات التي ذكرها الشارع الحكيم هنا بحق من يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا، وهي قوله:﴿ أو ينفوا من الأرض﴾ وكيف اقترنت بما قبلها من العُقوبات، وهي عقوباتٌ صارمة لا هوادة فيها، (القتل، الصلب، تقطيع الأيدي والأرجل) ليأتيَ النفيُ

من الأرض معطوفا بحرف الواو الذي تشي دلالته إلى التساوي التام، خلافا لبقية حروف العطف الأخرى التي تعني التراتبية أو التراخي في المعنى، كما هو معروف عند البلاغيين.

ولذا حين أشارَ الله في حديثه عن بني إسرائيل إلى تمردهم عن نواهيه وأوامره قَرَنَ قتل النفس بالخروج من الديار، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ..﴾ [النساء:٦٦]

وأيضا حين خاطبهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة:٨٤]

بل إن من أسباب القتال في سبيل الله كما يقررُ السّيَاقُ القرآنيُّ في إطارِ الحديثِ عن بني إسرائيل كمبررٍ ومسوغٍ ودافعٍ له هو إخراجُهم من ديارهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٢٤٦]

وهنا يتداخلُ الدفاعُ بين الذاتِ الإنسانيّة وبين الوطن، باعتبار الذات الإنسانية في حد ذاتها جزءًا من الوطن، والوطنُ هو الكل الإنسانيُّ مجتمعًا، به تتحقق مصالح الأمة، وفيه يربو معاشُها. وإذا كان الإخراجُ من الأوطانِ بمثابةِ القتل، فبمفهوم المخالفة: إنَّ البقاءَ في الديارِ نظيرُ الحياة.

ومفهومُ الأرض هنا في الآية السابقة ــ حسب القراءة المعاصرة ــ لا يتعدى مفهوم الوطن. كما أنَّ الفساد ـ وهو مفهومٌ متغيرٌ ـ تختلف طبيعتُه وماهيتُه باختلافِ الزمانِ والمكان، وتقدره الدولة وفق معادل موضوعي، بقدر ما يسقطُ الشّر، بقدر ما يقيمُ الخيرَ أيضا، في صورة واحدة ومتكاملة، وهذه فلسفة التشريع والتقنين.

فقطع الطريق، وسلب الحقوق فساد. والاستحواذ على مقدرات الأمة

وحقوقها فساد. والإخلال بأمن المجتمع فساد. ونعني بالأمن هنا الأمن الشامل: الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي. وعلى الدولة أن تقفَ له بالمرصاد؛ بل إن من الأهميّة أن تعمل الدولة ابتداءً على الحد من تغوله، وانتشاره وأن تجتثه من جذوره قبل أن يتعملقَ، ويصبح عصيًا على العلاج، وذلك من خلال ما عُرف ــ مؤخرا ــ بالأمن الوقائي، وبشروطه العادلة.

الإساءة للأوطان

من المعروف في فلسفة العقوبة والجزاء أن العقوبة لا تكون إلا بقدر الجرم الذي ارتكبه صاحبُه، ولما كان الظلم والتعدي في حق الآخر، أيا كان، فإن عقوبته جاءت بنفس المستوى وهو الحرمان من أعزما يكون على النفس وهو التفريق بين المجرم وبين الوطن؛ لأن رسالة الأوطان تقتضي مواطنا صالحا وإيجابيا، مواطنا لا تتحكم فيه شهواته ونزواته التي تلحق الضرر بالآخرين، والذي يحد من طبيعة الدور المنوط بهذا الإنسان في أرضه وهو الاستخلاف. فلا شيء يدمر الأوطان كالفساد، والفساد معنًى عام هنا وشامل، لا يقتصر على نمط معين أو جزئية محددة في الحياة، فهناك فساد الحكام والأمراء، وهناك فساد الرعية والمواطنين، وهناك فساد المال، وهناك فساد الإدارة؛ ولهذا كان الملك اليماني ذو القرنين على مستوى المسئولية التي أنيطت به وتحملها إزاء شعبه، وقد جاوز ملكه مطلع الشمس ومغربها، وقد أخبره الناس بفساد يأجوج ومأجوج، فلم يقف حائرا أو مكتوف الأيدي، أو محتقرا شأنهم قياسا إلى ملكه العظيم؛ بل سرعان ما دعا قومه: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ [الكهف:٩٦]

وهنا تتبدى المسئولية المشتركة بين القائد ومواطنيه، من خلال التعاون والتعاضد بين الاثنين فتتحقق النتيجة المرجوة في الإصلاح والبناء وقد خاطبهم: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾ [الكهف:٩٥]

مؤكدا في بداية موقفه الصارم على موقفه الثابت تجاه أي «ظالم» تسول له

نفسه تجاوز الحد المرسوم له والتعدي على حقوق الآخرين: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً﴾ [الكهف: ٨٧]

من جانب آخر حين ذكر القرآن الكريم عاقبة الظلم والظالمين، وفي مواضع عدة منه، وهو من قبيل الفساد الاجتماعي والسياسي في الأوطان، فإن ذلك ليس من قبيل السرد القصصي، أو الإشارات العابرة للحدث، بقدر ما هو دعوة للتأمل والتدبر في مآلات ومصائر الفساد والفاسدين. والظلم ـ كصورة من صور الفساد ـ مؤذنٌ بخراب العمران، كما يذهب إلى ذلك ابن خلدون. وكما قال الله عز وجل قبل ذلك: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧]

وقد ذُكر الظلمُ في القرآن الكريم مرات عديدة، مرتبطا بمآلاته ومصائره ارتباطا مباشرا، لا يكاد ينفك عنه، على نحو يلفتنا الله إليه، تجنبا لتكراره أو الوقوع فيه، والتفاتا إلى أهمية الأوطان بما يصلح أحوالها ويشيد بناءها. وبوجه عام فقد ارتبطت كل الحضارات الإنسانية عبر التاريخ بقيم العدالة والحرية، وكذا باحترام الناس لأوطانها، من خلال البناء والتعمير وتحمل مسئولية الاستخلاف، حسب المصطلح الإسلامي.

على صعيد آخر.. حين أشار القرآن الكريم في معرض حديثه عن المهاجرين من أهل مكة، واصفًا إياهم بأنهم أعظم درجة عند الله، وأنهم الفائزون، فإن ذلك ـ في الواقع ـ تعويض كبير بحجم المعوض عنه، وهو الوطن الذي فقدوه قسرا، على الرغم من أن البعد عنه ليس كبيرا، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة:٢٠]

وكذا قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر:٨]

كما هو الشّأنُ نفسُه بالنسبة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين خاطبه ربه مُسليًا إياه، وقد تكالبت عليه الخطوب، وازداد عنت أهل مكة والطائف عليه: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

عقائد الشعوب

للشُّعوبِ عقائدُها الوطنية، كما لها عقائدُها الدينية، تشكلت، وتتشكلُ هذه العقائد من منظومة الأنساق الثقافية والهوية التاريخية، وأي خلل في ميزان هذه العقيدة ينعكس مباشرة على السلم المجتمعي والأمن الوطني، ويُعتبر مهددا لأمنها القومي، حاضرًا ومستقبلا. ولو استقرأنا مشكلات الشعوب والأوطان التي تعاني من عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي لوجدنا أنَّ أُسَّ المشكلات تعود ــ في الغالب ــ إلى السّبب الثقافي غير المبني على أسسٍ متينة، وأرضية صلبة من المشترك الثقافي الواحد بين كل أبناء الوطن، وإنْ تعددت مشاربُهم السياسية أو أصولهم العرقية، إنما المشترك الثقافي الواحد يجب أن يكون ثابتًا وراسخا في الوجدان، كمسلمة عقدية لا تقبل التفاوض أو المساس بها. ففي عوالم الشعوب والأوطان يتم العمل بمبدأ: لكلٍ دينُه والوطن للجميع.

مرة أخرى.. إن للأمم والشعوب عقائدها الوطنية، كما لها عقائدها الدينية، وإن الشرك بعقائد الأوطان كالشرك بعقائد الأديان، ومن هنا نشأ أدب الملاحم التاريخية لكل أمة من الأمم، فللإغريق الإلياذة والأوديسا، وللهنود المهابهارتا، وللصينيين قوسار، ولليابانيين الهائيكي، وللفرس الشهنامة، وللكرد ميم وزين، وهي ملاحم صيغت من دم ولحم هذه الشعوب، أو قل من روحها الجمعية المتشكلة من وعْيها العام والمشترك في هوية وطنيّة واحدة، تختزل كينونة هذا المواطن الذي يجد نفسه فيها، كما تختزلُ قصة وجوده الأزلي على تربة وطنه الأم. وكم هي قداسة الانتماء في روح ووجدان الأفراد والشُّعوب، وهي قداسة للذات في أساسها.! ويمثل النشيدُ الوطني اليومَ لأي دولة من الدول التجلي الأصدق لحقيقة الانتماء للوطن، بما هو ذاتٌ وكينونة ووجدان، وبما هو معبر عن روحها الكلية ووعيها الجمعي.

وبما أننا قد تكلمنا عن أدب الملاحم التاريخية فيستوجب المقام التوقف عند أدب الملاحم والدوامغ اليمنية التي أخذت جدلا واسعًا على امتداد الفترات التاريخية، بين فريق يعتز بوطنيته ويمنيته وهويته التاريخية، وفريق

آخر يدعي انتسابه لهذه الحضارة؛ لكنه لا يلبث أن يسلط معوله لهدمه حقدا وكراهية، وإن ادعى حبه للوطن.

نتوقف أمام ملحمة «المجد والألم» التي نظمها حارسُ الهُوية اليمنية مطهر بن علي الإرياني رحمه الله عام ١٩٦٧م، والصراع الجمهوري الإمامي على أشده يومها، «ولا يزال»، من البحر الوافر، ردًا على "دامغة الدوامغ" التي نظمها أحمد محمد الشامي وزير خارجية المخلوع البدر حينها، وأحد دهاقنة الإمامة آنذاك، وقد فخَر فيها بأجداده الهاشميين، مزدريا تاريخ اليمن وحضارته، على الرغم من ادعائه الوطنية، وقد أذاعها من لندن حسبما ذكر الشاعر مطهر الإرياني في مقدمة ملحمته. ومطلعها:

أتمضي في سبيل الأولينا فتمدح تارة وتذم حينا؟

وكانت دامغة الشامي ردا على دامغة لسان اليمن الهمداني التي نظمها في القرن الرابع الهجري، متغنيا فيها بمجد اليمن وتاريخه، وتنوف عن ستمئة بيت، ومطلعها:

ألا يا دار لولا تنطقينا فإنا سائلون ومخبرونا

وجاءت يومها في إطار الصراع بين العدنانية والقحطانية، والذي ابتدأ بقصيدة الكميت بن زيد الأسدي «المذهبة» نهاية العصر الأموي في ثلاثمئة بيت، وكانت سببا من أسباب سقوط حكم بني أمية، بعد ثورة اليمانية على مروان بن محمد، ومطلعها:

ألا حييت عنا يا مدينا وهل قوم تقول مسلمينا؟

والقصة مبسوطة في «مروج الذهب» للمسعودي بكافة تفاصيلها. وقد تبنى الرد عليها الشّاعرُ دعبل بن علي الخزاعي، منتصرًا لخؤولته اليمانية، في قصيدة بنفس الوزن والقافية، ومطلعها:

أقلي من ملامك يا ضعينا كفاك اللوم مر الأربعينا

وتتالت الملاحم والدوامغ تترى بعدها، من نفس البحر ونفس الروي. منها قصيدة أبي الذلفاء الحسن ابن زيد التي سماها الدامغة، ردا على دعبل الخزاعي، ومطلعها:

أما تنفك متبولا حزينا؟ تحب البيض تعصي العاذلينا؟

وفي القرن السابع الهجري كانت دامغة مسلم بن العليف من ٦٢ بيتًا التي يسميها البعض العليفية، مدحًا لعدنان وذمًا لقحطان، ومطلعها:

ما عبت مذ كنت للأحباب مظنونا ولا بشت من الأسرار مكنونا.

وعارضه الشاعر علي بن سليمان الأسلمي بقصيدة سماها دامغة الدوامغ، منتصرًا لقحطان على عدنان، ومطلعها:

فخارنا بسيوف الهند تكفينا عن فخركم آل عدنان ويغنينا.

وعارض هذه القصيدة الهادي بن إبراهيم الوزير بقصيدة من ١٧٠ بيتا، سماها: دامغة دامغة الدامغة. ومطلعها:

فخارنا برسول الله يكفينا عن كل فخر وأن الأنبياء فينا.

وتتالت الدوامغ والنقائض بعدها، وآخرها كما أشرت ملحمة المجد والألم للشاعر مطهر الإرياني، ومطلعها:

أيا وطني جعلت هواك دينا وعشت على شعائره أمينا
إليك أزف من شعري صلاة ترتل في خشوع القانتينا
وفي الإيمان بالأوطان بِرٌ وتقديسٌ لربِّ العالمينا

وهي من أروع وأبرع وأزكى ما نَظمه يراعٌ ودبجه قلمٌ في موضوعها.

المنطلقات الكبرى في الثقافة اليمنية

الثقافات بطبيعتها مؤثرة ومتأثرة، وهي متداخلة مع بعضها من قديم الزمن، وبين يدينا العديد من هذه النماذج كالتأثير والتأثر بين الحضارتين الهندية من جهة والفارسية من جهة أخرى. وأيضا بين الحضارة الفارسية والحضارة العربية الإسلامية من جهة أخرى، فقد تداخلتا حد الامتزاج، كما هو الشأن في الهوية الكردية مع الأوطان التي انساحت فيها. ومع هذا يظل لكل بلد خصوصيته الثقافية، المنطلقة من هُويته التاريخية الخاصة، المتشكلة من التاريخ بتفاصيله، ومن الجغرافيا بتعاريجها، فعبقرية المكان حاكمةٌ، ولا تقل أهمية عن عبقرية الزمان أو الأشخاص، وهي متحكمة في صناعة الأحداث الكبرى. وللفيلسوف روبرت كابلان حديث طويل هنا.

ومن الطبيعي أن تزدادَ عملية التأثر والتأثير اليوم في ظل العولمة والفضاءات المفتوحة ووسائل الاتصال؛ ليكون التداخلُ أكثر وأسرع، فتتماهى الحدود الثقافية، وتنساح المفاهيم والقيم الخاصة بالشعوب في بعضها البعض، مع الأخذ بالاعتبار أن الكيان الأقوى هو الأكثر تأثيرًا؛ لأن المغلوبَ مولعٌ بتقليد الغالب، وفقا لابن خلدون.

وتتكون منظومة الثقافة اليمنية اليوم من دعامتين أساسيتين، تشكلت عبر مسيرتها التاريخية، هما:

1ـ الهوية الحضارية والتاريخية:

اليمن من البلدان العريقة حضاريا، وحضارتها ـ التي تعد من أولى الحضارات الإنسانية ـ لما تكتشف بعد. هذا إن لم تكن هي الحضارة الإنسانية الأولى التي تشكلت على وجه الأرض. وقد مرت بأطوار عدة من التقدم والرخاء ثم تراجعت، حتى كان انهيار السد في القرن الميلادي السادس،

وقيل قبل ذلك، على خلاف بين المؤرخين. شكلت هذه الحضارة ــ ولا تزال ــ مرجعية في بعض السلوكيات والأنماط الاجتماعية إلى اليوم على تقادم عهدها، وكأن تلك الحضارة تجري في دماء وجينات اليمنيين إلى اليوم. من هذه الملامح التي لا تزال ماثلة إلى اليوم، ثقافة بناء المدرجات والسدود ومنظومة الأعراف القبليَّة الشفاهية كقوانين غير مكتوبة، وبعض الطقوس الدينية التي مارسها اليمنيون قديما، وأقرها الإسلام، وفي مدونة القديس جرجينتي من القوانين الحميرية ببنودها الأربعة والستين ما يكفي للجزم بعراقة وأصالة هذه الحضارة.[1]

ولا تعتبر مدونة «جرجينتي» لوحدها ملمحا حضاريا؛ بل إلى جانبها منظومة القوانين الأخرى في مجال الزراعة والبناء واستصلاح السدود وتأجير الممتلكات والعقارات كما أشارت إلى ذلك نصوص المسند؛ وكذلك في المجال التجاري فقوانين سوق «شمر» أنموذج للمدى الرقي الحضاري الذي وصلت إليه اليمن قديما؛ أما قوانين وتعاليم المعابد ودور العبادة لدى اليمنيين القدماء ففيها ما يدهش العقل.[2]

ما نود أن نوضحه هنا تحديدا أنّ الشعبَ اليمنيَّ يستندُ إلى هُوية حضارية عريقة، ذات صبغة إنسانية عادلة، لها صلتها بالحضارات الأخرى التي تشكلت على ضفاف النيل في مصر، أو الفرات في العراق، مع الإشارة هنا إلى أن ما يميزها عن هذه الحضارات إنسانيتها ورقيها الحضاري الأكثر مدنية،

---

(1) ــ تُنسب هذه القوانين لمؤلف مجهول، لم تفصح عنه المصادر الاغريقية التي دونت هذه الوثيقة من وقت مبكر، وإنما جاءت ضمن سياق الحديث عن القديس جرجينتي الذي كان أشبه ما يكون بالمندوب السامي لبطريق الاسكندرية الذي انتدبه لنشر الديانة المسيحية في جنوب الجزيرة العربية، عطفا على توجيه الامبراطور البيزنطي جستنيان الأول، والذي كان بناء على طلب ملك الحبشة أصحمة آنذاك، وأشرف على بناء عدة كنائس فيها في القرن السادس الميلادي. انظر: التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية، نورة النعيم، أطروحة دكتوراه، ص: 382.

(2) ــ كشفت نصوص المسند عن عشرات النقوش التي تنص على ما يمكن أن نسميه بلغة اليوم القوانين الزراعية وحق كل فرد في الري والزراعة وضبط المخالفين، وايضا تأجير العقارات والمساكن، ليس ذلك فحسب؛ بل وجدت نصوصٌ تحكي تصاريح بناء مساكن جديدة في اليمن القديم. أما تعاليم المعابد فقد كانت من الإدهاش بمكان، وكشفت أن اليمنيين مارسوا النذور والفدية والكفارة والحج بكافة أركانه المعروفة اليوم وأيضا الصلوات، بما فيها صلاة الاستسقاء وغيرها، وفرضوا قوانين صارمة ضد من يدخل المعبد على غير طهارة، أو يدخل وسيفه مخضب بالدماء، ومنعت تعاليم المعابد دخول المعبد لمن أكل ثوما أو بصلا.

كما تكشف عن ذلك نصوص المسند، ولذا لم نقرأ في تاريخ الحضارة اليمنية عن طغيان الفرعون في مصر، او استبداد النمرود في العراق. وباستقراء شريعة حمورابي في بابل ومقارنتها إلى القوانين اليمنية نجد أنَّ القوانينَ اليمنية مرتكزة على الجانب الإنساني الخالص في نزعتها الفلسفية، لا تحمل دموية أو طبقية قوانين حمورابي، ولا نزعتها الاستبدادية في الحكم؛ بل لقد كان نظام الحكم في اليمن شوروي «ملئي» من خلال مجلس المسود أو الأقيال..

وبشكل عام، فحضارة اليمن العريقة قد تميزت بكونها حضارة متقدمة، متمدنة، من خلال:

١ــ وجود عملة اقتصادية لهذه الحضارة، تعاملت بها، بجميع وحداتها النقدية التي أفصحت عنها النصوص، ولم تكن تعتمد طريقة المقايضة البدوية في السلع والمنتوجات كما تفعل المجتمعات البدائية.

٢ــ وجود تقويم حسابي شمسي وقمري، تعامل به اليمنيون في مستندات التعاملات والوثائق السياسية، وفي حسابات المنازل والكواكب التي تقوم عليها الزراعة، وطرق الملاحين البحرية.

٣ــ وجود منظومة القوانين الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي نظمت شؤون الناس ومعاملاتهم.

٤ــ وجود تقاليد ملوكية ممثلة بالتاج الملكي والعرش الذي وصفه الله عز وجل في القرآن الكريم بالعظمة، فقال عن عرش بلقيس: (ولها عرش عظيم). ولم يصف الله تعالى شيئا بالعظمة ــ وهو العظيم ــ غير عرش بلقيس.

٥ــ وصول امرأة إلى سدة الحكم دليلٌ على الترف الاجتماعي والمادي والسياسي الذي وصل إليه المجتمع، ودليل على الرقي الحضاري والفكري لدى هذا الشعب الذي يكرم المرأة، لأن المجتمعات المتخلفة تنظر إلى المرأة نظرة ازدراء وتخلف، ولا تحظى فيها بالاحترام والتقدير، ليس في المجتمع العربي فحسب الذي يتسم بكونه مجتمعا ذكوريا؛ بل في كل المجتمعات بلا استثناء، علمًا أن ثمة "بلقيسات" أخر إلى جانب الملكة بلقيس تصدرت مناصب سياسية أخرى، كما

تصدرت أيضا منصب "الكهانة" الدينية، وهو من المناصب المهمة في حياة النسوة، كما هي الحال مع الكاهنة «رشوت» التي تحدثت عنها نصوص المسند. وفي العصر الوسيط كانت الملكة أروى «سيدة بنت أحمد الصليحي» على رأس الدولة اليمنية، وعرف عصرها بكونه من أزهى عصور التاريخ اليمني.

٦ــ وجود منظومة متكاملة من الفنون التصويرية والسمعية التي سادت المجتمع اليمني قديما، كالنقش والزخرفة والغناء والموسيقى والتصوير الملحمي. وممارسة أي مجتمع للفن دليلٌ على رقيه الحضاري، وعلى ترف العيش، كما توضح نصوص المسند، وكشفت عنها الدراسات الأثرية والتاريخية.

٧ــ وجود القراءة والتدوين من قبل الإسلام بمئات السنين؛ حيث اخترع اليمنيون الخط المسند، وكتبوا به، وتذكر عنهم بعض المصادر أنهم أول من اخترع القلم.

٨ــ تطور كبير في فن العمارة وتخطيط المدن وقوانينها، وكانت منتشرة في أنحاء اليمن؛ ولهذا أمر الخليفة عمر بن الخطاب ولاته أثناء خلافته، وعقب الفتوحات الإسلامية في عهده أن يُسندوا إلى اليمنيين تخطيط وبناء الأمصار الجديدة، مثل البصرة والكوفة في العراق، والفسطاط في مصر؛ بل لقد كانت مدينة يثرب قبل الإسلام تفوق مكة بأضعاف مضاعفة من حيث السكان وعدد القبائل والتمدن المجتمعي. وهكذا بالنسبة للثراء وعلو البنيان، فلم تعرف اليمنُ سكنَ الخيام، أو بيوت الشعر؛ بل اشتهرت بعلو البنيان وضخامتها، ويكفي إشادة المؤرخين بضخامة قصر غمدان، وقد ذكر مؤرخو اليونان أن بيوتَ اليمن كانت تُسقف بسقوف مزخرفة بالذهب والفضة، وسموها بالعربية السعيدة.

وبشكل عام، فهذه وغيرها معالم حضارية لشعبٍ بلغ أوج حضارته في زمن كانت أوروبا بكاملها جليدًا غير قابل للسكنى، وكانت أغلب شعوب المعمورة ترزحُ تحت نير الاستبداد والطغيان والإقطاع المتحكم؛ أما اليمني

فقد كان سيدًا برأسه، لم يعرف الاستبداد أو يألفه مطلقا. وحين جاء الإسلامُ لعب الدورَ الأبرز في الفتوحات الإسلامية شرقا وغربا، بتقاليده العسكرية الموروثة، وهي تقاليد دولة بتكتيكها الحربي، لا تقاليد فرد بخبرته الشخصية.

إنَّ جينات الحضَارة لا تزالُ تجري إلى اليومِ في دماء اليمنيين وأوردتهم، ولا يزالون يبحثون عن فردوسهم المفقود، وحضارتهم المدفونة التي حطمتها الإمامة وأتت عليها من قواعدها خلال فترة حكمهم كاملة، وقد تعاملت مع هذا الموروث كما لو أنه ضرة سياسية لها، فدمرت آثارَ اليمنِ ومعالمها الحضاريّة، واهِمَةً أنها ستحلُّ هي بصنميّتها البشرية محلها، ولكن دون ذلك خرط القتاد.

إنَّ من يتأمل في منظومةِ الأعراف القبليّة يجدها تكتنزُ بقيم إنسانية واجتماعية على قدر عالٍ من الرقي والتقدم، بصرف النظر عما شابها من بعض الجزئيات التي لا تعبر عن مقاصدها الكلية، هذه الأعراف تنتمي ــ في جزء منها ــ إلى تاريخ اليمن الحضاري القديم، وهي التي حفظت السلم الاجتماعي، ورعت مصالح الناس ومعاشهم وأحوالهم في وقت غابت فيه الدولة بقوانينها الرسمية، ولا تزال إلى اليوم. ولا يكاد يوجد شعب من الشعوب له من الأعراف القبلية ما لشعب اليمن، وهي أعرافٌ إيجابية في غالبها، لعبت دورا إيجابيا رائدا مع غياب الدولة.

هذه المنظومة جعلت اليمنيَّ يحتكمُ إلى المبادئ الإنسانية والقيم الأخلاقية بوحي من الضمير الخالص، رغبة في التميز والترقي الاجتماعي، ورهبة من العارِ الذي قد يلحقُه إذا ما تجاوز أخلاقيات المجتمع، خلافا لكثير من الشُّعوب التي لا تحتكم للقانون إلا رهبة من لهيب السياط التي تلفح ظهره، أو حد السيف المرهف الذي يفصل رأسه عن جسده. وهي ميزة وثقافة كان من الممكن أن نبنيَ عليها قيم الدولة المدنية الحديثة، وأن تكون أحدَ روافع البناء والتنمية الاجتماعية؛ لكن للأسف ذلك ما لم يكن، بسبب فشل قياداتنا السياسية في القرن العشرين في بناء الدولة العصرية؛ أما قبل ذلك فلم يكن ثمة حلم لبناء دولة، وقد كانت الإمامة متحكمة بالشعب في شماله، وهي الكهنوت الغاصب الذي لا يهمه بناء دولة أو صناعة مجتمع. وفي جنوب

الوطن كان الاحتلالُ جاثما على صدره، وكان كلٌ منهما ـ الإمامة والاحتلال ـ وجهين لعملة واحدة.

2ـ القيـــم الدينيـــة :

مثّـلَ الإسـلامُ بقيمـه الأخلاقيـة وتعاليمـه الدينيـة أحـد عوامـل النهـوض الحضـاري للعـرب، وكان رافـدا جديـدًا وحضاريـا تأسسـت للعـرب بموجبـه حضـارةٌ جديـدة جامعـة، كان لهـا امتدادُهـا الكبـير في الـشرق والغـرب.

وكان اليمنيـون هـم عـماد هـذه الدعـوة الجديـدة عـلى أكثـر مـن صعيـد، كونهـم أكثـر النـاس تطلعًـا لاسـتعادة الـذات الحضاريـة افتقدوهـا قبـل ذلـك بعقـود، مـن خـلال الفكـرة الجديـدة؛ لـذا هبـوا إلى الإسـلام مؤمنـين بمجـرد النـداء الأول والرسـالة الأولى مـن نبـي الإسـلام محمـد صـلى الله عليـه وسـلم. وإضافـة إلى القيـم الحضاريـة السـابقة في وعـي اليمنيـين وثقافتهـم كانـت قيـمُ الإسـلام تشـكلُ رافـدا جديـدًا في التحديـث الفكـري والثقـافي، وفيـما اندثـر أو تـآكل في منظومـة الأخـلاق والسـلوك خـلال الفـترة السـابقة للإسـلام التـي بـدأ فيهـا اليمنيـون بالانحـدار الحضـاري، فامتزجـت تعاليـمُ الديـن الجديـد بقيـم الحضـارة المتلاشـية، وهـي قيـمٌ إنسـانية ومدنيـة عـلى قـدر مـن الترقـي، كـما أسـلفنا، ولا تضـاد بينهما، إلا أن كل هـذا لم يجعـل مـن اليمـن مركـزًا حضاريًـا جديـدا، بحكـم تمركـز العواصـم الإسـلامية الجديـدة في كل مـن: مكـة والمدينـة، ثـم دمشـق وبغـداد والقـيروان فالقاهـرة فاسـتانبول، في الوقـت الـذي اسـتنزفت الفتوحـاتُ الإسـلامية أغلـبَ القيـادات المجتمعيـة الفاعلـة في اليمـن، فكانـوا رجـالات الفتـح الأوائـل، وقـادة الجيـوش في كل مـن اليرمـوك والقادسـية، ثـم في فتوحـات بـلاد فـارس ومـصر والمغـرب والأندلـس، والذيـن حـل محلهـم المتـورد القـادم يحيـى حسـين الـرسي، إمـام مـا يسـمى بـآل البيـت في اليمـن الـذي أسـس دولـة عـلى أسـاس عنـصري مقيـت في شـمال اليمـن، بعـد أن فـرَّ مـن عدالـة الخلافـة العباسـية في بغـداد إلى جبـال اليمـن الحصينـة، ومعـه بعـضُ أبنـاء عمومتـه مـن أبنـاء الجيـل والديلـم. وظـل الـصّراعُ قائـمًا بـين نسـله وبـين اليمنيـين إلى مطلـع سـتينيات القـرن المـاضي.

مثّـلَ هـذا الـصراعُ حالـة مـن الاسـتنزاف الجديـد لمقـدرات المجتمـع اليمنـي وخيراتـه، بـما فيـه رأس المـال البـشري نفسـه الـذي طحنتـه الحـروب والثـارات، كـما دمـره التجهيـل المتعمـد مـن قبـل حـكام هـذه السـلالة الذيـن يسـوؤهم تميُّـز أي يمنـي، أو نجاحـه.

عـلى أيـة حـال.. يمثـل الإسـلامُ بروحـه الخالـدة وقيمـه السـامية مرجعيـة أصيلة في التفكـير والتصـورات والسـلوك لـدى الشـعب اليمنـي، باعتبـاره شـعبا عربيـا مسـلما، عـدا مئـات قليلـة مـن الطائفـة اليهوديـة، لا تـكاد تمثـل نسـبة تذكـر، ومـع ذلـك فهـذه الطائفـة تحـترمُ هـذه القيـم ولا تصادمهـا، وإن اختلفـت معهـا.

ومـن هـذه المرجعيـة الإسـلامية يسـتمد الشـعبُ اليمنـي ثقافتـه، إضافـة إلى هويتـه الحضاريـة التاريخيـة، التـي عززتهـا تعاليـم الديـن وقيمُـه السـمحة. ومـن هنـا نسـتطيع أن نبنـيَ يمننـا الجديـد ــ ثقافيـا ــ مـن هـذا المنطلـق، ووفقـا لتلـك القيـم كموجهـات عامـة في السـلوك والعيـش المشـترك. وهـي موجهـات قمينـة بصناعـة مجتمـع رشـيد، متسـامح وقابـل بالآخـر مهـما اختلـف معـه، الأمـر الـذي يُحيـل التنـوعَ الحاصـلَ إلى قـوةٍ فاعلـةٍ وإيجابيـة، لبنـاء الدولـة الضامنـة. وبحسـب ايريـك فـروم: «كل الديانـات يمكـنُ أن تدعـمَ التدمير أو الاسـتعداد للحـب، كـما يمكنهـا أن تدعـم السـيطرة والاسـتئثار، أو المشـاركة والتعـاون. إن بإمكانهـا أن تطـور الـذوات، كـما باسـتطاعتها أن تشـكل عائقـا أمـام تطورهـا».[1]

ووفقًـا لمـا سـبق نسـتطيع القـولَ أنَّ الهُويـة الثقافيـة اليمنيـة متشـكلة مـن التاريـخ الحضـاري للشـعب اليمنـي بامتـداده العريـق، وأيضـا مـن قيـم الديـن الإسـلامي الحنيـف وقيمـه الشـاملة، وهمـا دعامتـان ثقافيتـان تشـكل هويتـه وذاتـه الحضاريـة.

(1) ــ التجربـة النهضويـة الألمانيـة، د. عبدالجليل أميم، مركـز نمـاء للبحـوث والدراسـات، بيـروت، ط:1، 2014م، 193.

اليمن في التوراة والقرآن

أولا اليمن في التوراة

لا توجدُ بلدٌ ذكرتها التوراة والقرآن كاليمن، عدا فلسطين في العهد الجديد فقط؛ حيثُ مسرح الرسالة المسيحية، وهو ما يستوجب التوقف هنا لاستغوار واستكناه الحقائق والمدلولات الخفية منها والظاهرة وراء هذه الإشارة؛ إذ ليس الأمر مجرد مصادفة عابرة؛ بل للمكانة التاريخية والعظيمة التي احتلتها هذه البلاد قديما، ومن زمن غابر.

ورد الحديثُ عن مملكة سبأ، وأحيانا لفظة «شبأ» في العهد القديم «التوراة»[1]، في معرض الحديثِ عن الأصل الإنساني، والأمم المتحدرة من نوح عليه السلام، ففي سفر التكوين، الإصحاح العاشر، الفقرة ٢١ فما بعدها: «.. وأنجب سام، أخو يافث الأكبر أبناء، ومنه تحدر جميع بني عابر. أما أبناء سام فهم: عيلام وأشُّور وأرفكشاد ولود وأرام. وأبناء أرام عوص وحول وجاثر وماش. وأنجب أرفكشاد شالح، وولد شالح عابر. وولد لعابر ابنان: اسم أحدهما فالج، ومعناه انقسام، لأن أهل الأرض انقسموا في أيامه، واسم أخيه يقطان. وأنجب يقطان المود وشالف وحضرموت ويارح، وهدورام وأوزال ودقله وعوبال وأبيمايل وشبا واوفير وحويلة ويوباب. وهؤلاء جميعهم أبنا يقطان. وقد استوطنوا في الأراضي الواقعة بين ميشا والتلال الشرقية من جبل سفار. هؤلاء هم المنحدرون من سام، حسب قبائلهم ولغاتهم وبلدانهم وشعوبهم. هذه هي القبائل المنحدرة من

(1)- التوراة جزء من العهد القديم، وليست كل العهد القديم. والمقصود بها الأسفار الخمسة المعروفة،

أبناء نوح حسب شعوبهم، ومنهم انتشرت الأمم في الأرض بعد الطوفان»[1]

ولأن النصوصَ التوراتيّة ظنية الثبوت ــ وفقا لمعتقدنا الإسلامي ــ فإنّ الجزمَ بصحة ما ذُكر سابقا أمرٌ فيه نظر؛ إنما تبقى في حكم المُستأنس به، خاصة إذا ما عضد هذا النص نصوصٌ أو شواهد أخرى. والواقع فإن نُصوصًا توراتية كثيرة قد عضدتها نصوصٌ قرآنية من كتابنا الكريم، وبالتالي اكتسبت الصحة، وهي كثيرة، الأمر الذي يجعلنا نأخذ في الاعتبار بعضًا من بقيّة النصوص التوراتية التي لم يُشر إليها القرآن الكريم، لا نفيا ولا إيجابا، ومنها هذا النص..

وقد فسر هذا النصَّ الباحثُ في الأمم السامية حامد عبدالقادر، بقوله: «المراد من ميشا حتى سفار، أي المقاطعات الواقعة في الجنوب الشرقي من جزيرة العرب، وكانت القبائل الثلاث عشرة المنحدرة من قحطان تقيمُ بتلك المقاطعات، ومنها حضرموت التي سميت بلاد حضرموت بها، وأوفير، وكانت تسكن مرفأ بحريا اشتهر في التاريخ القديم، وحويلة، والمراد بحويلة بلاد الأحقاف والبلاد الرملية ، وكانت إقليما يحيط به نهر تسميه التوراة فيشون، وقبيلة شيبا، وهي سبأ التي تنتسب إليها الدولة السبئية»[2]

وإلى هذه السُّلالة التي ذكرناها آنفا تنتسبُ العربُ جميعا، سواء ما عرف بالعرب العاربة أو البائدة، أم العرب المستعربة لاحقا؛ إذ ينتسب إليها كل من جديس وطسم وأميم وجرهم والعماليق، وأمم أخرى لا نعلمهم، الله يعلمهم. وما عدا هؤلاء فهم من العرب المستعربة لاحقا، أو ممن عرفوا بعرب الحجاز، ويعزوهم بعض المؤرخين إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقد قيل بشأنهم كلام كثير، حتى إن البعض نزع عنهم أرومتهم المتصلة بالعرب، وهو كما يبدو غير صحيح، إذ العدنانية «الشمالية» فرع عن

(1)- التوراة، سفر التكوين، الإصحاح، الإصحاح العاشر، الفقرات 21 : 32. ويقطان هو قحطان، كما ذكر ابن خلدون في تاريخه.11.

(2)- الأمم السامية مصادرها وتاريخها وحضارتها، حامد عبد القادر، دار نهضة مصر للطبع والنشر، د. ط. د. ت. 84، وانظرها في: الجديد في تاريخ دولة وحضارة سبأ وحمير، محمد حسين الفرح، وزارة الثقافة والسياحة، 2004م، 31.

القحطانية «الجنوبية» التي ينتسبُ إليها كلُّ العرب، مهما قيل في ذلك..

وقد قال المؤرخ الشهير فيلبي: إنني أعتبرُ بلادَ العربِ الجنوبية، ومن ضمنها اليمن، هي الوطن الأصلي لهذا الجنس من البشر المعروف الآن باسم الساميين، وهو يمتاز عن سائر الشعوب بلغته المعروفة باسم العربية

وقد أيّد «فيلبي فيما ذهب إليه في كلامه السابق، الخبيرُ الأنثروبولوجي هنري فيلد، مشيرا إلى "أنَّ اليمنَ وعدن كانتا مأهولتين بالسكان في العصر النيولوثي ــ وهو العصر الحجري الحديث المحدد بين ٧٠٠٠ و٥٠٠٠ ق.م.. هاجر منهم إلى عمان والخليج، وآخرون إلى الصومال وكينيا وتنجانيقا، وفريق ثالث إلى نجران وسيناء وفلسطين.

وقال جواد علي عن فيلبي في إطار الحديث عن عرب الجنوب والهجرات السامية: أما فيلبي فذهب في دراساته المسهبة لأحوال جزيرة العرب إلى أن الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب هي الموطن الأصلي للساميين، وفي هذه الأرضين نبتت السَّامية، ومنها هاجرت بعد اضطرارها إلى ترك مواطنها القديمة، لحلول الجفاف بها الذي ظهرت بوادره منذ عصر البالثوليتيك. هاجرت في رأيه في موجات متعاقبة، سلكت الطرق البرية والبحرية حتى وصلت إلى المناطق التي استقرت فيها. هاجرت وقد حملت معها كلُّ ما تملكه من أشياء ثمينة، حملت معها آلهتها، وأولها الإله «القمر»، وحملت معها ثقافتها وخطها الذي اشتُقت منه سائر الأقلام، ومنه القلم الفينيقي، وطبعت تلك الأرضين الواسعة التي حلت فيها بهذا الطابع السّامي الذي ما زال باقيا حتى اليوم.. فاليمن في رأي فيلبي وجماعة آخرين من المستشرقين هي مهدُ العربِ، ومهد السّاميين، منها انطلقت الموجات البشرية إلى سائر الأنحاء، وهي في نظر بعض المستشرقين أيضًا مصنعُ العَرب، وذلك لأن بقعتها أمدت الجزيرةَ بعددٍ كبيرٍ من القبائل، قبل الإسلام بأمد طويل وفي الإسلام، ومن اليمن كان «نمرود»، وكذلك جميع الساميين.[1]

(1)- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، 232/1.

مضيفا: «إننا نرى أن جزيرة العرب قد أمدت العراق وبلاد الشام بالسكان، وأن القبائل الضاربة في الهلال الخصيب قد جاءت من جزيرة العرب».[1]

وحسب جوستاف لوبون، فالعرب واليهود والفينيقيون والعبريون والسومريون والبابليون والآشوريون الذين استوطنوا جزيرة العرب وآسيا الصغرى حتى الفرات، من أصلٍ واحدٍ، ويُطلق على هذا الأصل اسم الأرومة السّامية.[2]

كما أشار العهد القديم في معرض الحديث عن التجارة والملك والازدهار، كتجارة اللبان والمر والذهب والأحجار الكريمة إلى اليمن بقوله على لِسَانِ حزقيال، مخاطبًا «صُور» التَّاجرة: «وتاجر معك أيضا تجار شبا ورعمة، فقايضوا بضائعك بأفخر أنواع الطيب والحجارة الكريمة والذهَب. ومن المتاجرين معك ـ أيضا ـ أهل حُران وكِنَّة وعدن وشبا، وأشور وكِلمَد. هَؤلاء قايضوا بضائعك بنفائس الأردية الأسمانجونية والمطرزة، وبسجاجيد ملونة، مبرومة الخيطان، ومضفورة بإحْكام»[3]

ويقول أيضًا في موضع آخر: «.. وعندما سمعتْ ملكة سبأ بشهرة سليمان قدمتْ إلى أورشليم بموكب حافل، وجِمالٍ مُحمَّلة أطيابًا وذهبًا وفيرا وحجارةً كريمَة..»[4]

وأيضا: «.. وأهدته مئة وعشرين وزنا من الذهب، «نحو أربعة آلاف وثلاثمئة وعشرين كيلو جراما» وأطيابا كثيرة، وحجارة كريمة، ولم يوجد ما يماثل الطيب الذي أهدته ملكة سبأ للملك سليمان»[5]

"ويُرجع بعضُ المستشرقين وجود الكتابات العَربيَّةِ التي بالمسند في جزيرة "ديلوس" من جزر اليونان التي يعود تاريخها إلى القَرْن الثاني قبل الميلاد،

---

(1)- نفسه، 234/1.

(2)- حضارة العرب، د. جوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط:؟، 2012م، 64.

(3)- الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر حزقيال، الإصحاح 27، الفقرات: 22 - 24.

(4)- العهد القديم، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح التاسع الفقرات: 1 - 9.

(5)- نفسه.

وفي وجود الكتابات المعينية في هَذِه الجزيرة إلى عَلاقة تجاريَّة، واتصالٍ تجاري بين العَرَب الجنوبيين، وبين اليونان، وكذلك ما عُثر عليه من المسند في مصر والسُّودان، وأن جالية يمنيَّة كانت تُقيم في هَذِه البُلدان..»[1]

وقد كان من الأسْباب الرئيسيَّة التي جعلت الرومانَ يفكرون بغزو اليَمن، هو السَّيطرةُ على طَرِيْق التجارة العَالمي من قبل الرومان ومنافسة اليَمَن في ذلك، نتيجةً للثروة المهولة التي كان عَليْها اليَمَنيُّون نتيجة لهذا السَّبب، ما أطمع القيصر الروماني هَذِه الحَال، وقال: إنه يريدُ أن يتعاملَ مع العَرَب كأصْدقاء أغنياء، أو أن يُسيطر عليهم كأعداء أغنياء، كما ذكر ذلك «استرابون» مؤرخ تلك الحملة.[2]

وإلى جانب هذه الإشارة فقد ذكر العهد القديم أيضا قصة الملكة بلقيس مع نبي الله سليمان، كما ورد في النصوص السابقة، ونصوص أخرى أيضا..[3]

وهناك بعض الباحثين المتأخرين من رأى أن مسرح التوراة هي بلاد اليمن أصلا، معتمدًا على العديد من الأدلة والشواهد التي تعزز رأيه.

وما يهمنا هنا هو الإشارة إلى الفترة الزمنية الأولى لدخول اليهودية إلى اليمن، أو حتى تكونها إن صحت الرؤية التي ذكرناها آنفا، وإن كان ذلك مما يصعب تحديده على سبيل القطع واليقين، لأن الآراء متعددة ومتضاربة، وأغلبها غير يقينية، فبينما يرى البعض أن أول اتصال يهودي يمني كان عقب زيارة الملكة بلقيس لنبي الله سليمان عليه السلام إلى فلسطين، وعودتها إلى اليمن بعد أن حملت منه، لتقوم هذه الجماعة بتربية المولود تربية يهودية خالصة[4] يرى المؤرخ استرابون أنَّ أولَ دخولٍ لليهودِ إلى بلاد اليمن كان مع الحملة الرومانية التي على جنوب الجزيرة العربية سنة ٢٤ق. م. حيث كان من ضمن الحملة جماعة يهودية تخلف أفراد منها في اليمن.[5]، مع أن هناك من

(1)- اليمن الخضراء مهد الحضارة، محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الجيل الجديد، ط:2، 1982م، 241.

(2)- هذِه هِي اليمن، عبدالله الثور، دار العودة، بيروت، ط:2، د.ت. 145.

(3)- التوراة، سفر الملوك الأول، الإصحاح العاشر.

(4)- انظر: الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر الملوك، الإصحاح العاشر.

(5)- التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية حتى نهاية دولة حمير، د. نورة بنت عبدالله علي النعيم، الرياض، 2000م، 326.

رأى أن هجرة اليهود إلى الجزيرة العربية لأول مرة كانت عقب خراب الهيكل سنة ٥٨٦م.

ويرى آخرون أن اليهودية قد دخلت اليمن لأول مرة على يد الملك الحميري «ابكرب أسعد» المعروف بأسعد الكامل، في فترة متأخرة، وتحديدا في القرن السادس الميلادي عقب زيارته ليثرب من أرض الحجاز، والتقائه لأحبار اليهود هناك، فاعتنق اليهودية، ومن ثم عاد متهودا ومعه حبران يعلمانه اليهودية. وقد خاض جدلا مع قومه الذين رفضوا التهود أولا؛ لكنهم تهودوا بعد ذلك لأسباب تضاربت بشأنها المرويات.. وهناك مرويات أخرى ترى أن تهود اليمنيين جاء عن طريق القوافل التجارية التي كانت بين الشام وجنوب الجزيرة العربية في تلك المرحلة. وما هو في حكم المرجح هو أن الملك يوسف أسار ذو النواس الحميري ملك يهودي، حكم اليمن، وإن كانت الآراء متضاربة حول زمن اعتناقه اليهودية، هل صغيرا على يد أمه التي كانت من سبايا الحروب أم اعتنقها متأخرا؛ لكنه اعتنق اليهودية بعد أن كان مسيحيا، ثم نكل بالمسيحيين وأحرقهم في الأخدود، وقد روى القرآنُ الكريم قصته في سورة البروج، وبسبب هذه الواقعة تم غزو اليمن من جهة الحبشة بإيعازٍ من الإمبراطورية البيزنطية التي تذمرت لحرق أبناء ملتها ظلما، وبهذه الحملة، ومنذ ذلك اليوم تكون الدولة الحميرية قد ارتكست وانتهت، وزال ملكها إلى اليوم. ومنذ ذلك اليوم وإلى اليوم واليهودية مستمرة في اليمن، وإن كانت هذه الفئة اليوم في حكم الجماعة المنقرضة التي لم يتبق منها إلا أشخاص قليلون.

ثانيا اليمن في القرآن الكريم

كما كانت اليمن مادة أساسيّة في التوراة، فإنها كذلك في القرآن الكريم، وبذات الوصف والمكانة والعظمة؛ بل لقد سُميت سورٌ بأسماء يمنية: هود،

سبأ، الأحقاف، ياسين، كما أشار القرآن الكريم إلى قصص كثيرة مسرحها اليمن، كقصة سام بن نوح عليه السلام بعد الطوفان، ومن بعده بنوه الذين تفرقوا في بقاع أخرى، وأيضا قصة بلقيس مع سليمان، وقصة بلاد سبأ، والأخدود، وأصحاب الجنة، وعاد، وثمود، وتُبّع، والبئر المعطلة والقصر المشيد، وذو القرنين.. إلخ.

فعن عاد الأولى والثانية ومعها ثمود ـ وهم من الأقوام البائدة ـ قال الله تعالى عنهم: (لم يُخلق مثلها في البلاد) وأيضا: كانوا ينحتون من الجبال بيوتا فارهين، ويتخذون مصانع لعلهم يخلدون. والمصانع هي القلاع. وآثارهم شاهدة إلى اليوم في أكثر من مكان في اليمن، وغير اليمن، لأن بعضهم استقر باليمن، والبعض الآخر هاجر إلى الشام والعراق وإيران وأفريقيا، ومنهم جاءت سلالات السومريين والكلدانيين.

وإلى جانب الأمم البائدة أيضا الملكة بلقيس وقصتها مع سليمان، وقد كانت على عِزٍّ باذخ وملك شامخ؛ حيث اكتملت في عهدها الحضارةُ اليمنية، اكتمالا لا نظير له يومها، فكانت حديثَ الشرق والغرب، وقد وصف الله عز وجل عرشها بقوله: (ولها عرش عظيم) ولك أن تتخيل العظمة من كافة جوانبها، وتتخيل أنَّ الوصفَ أيضا قد جاء من عظيم؛ بل من أعظم العظماء.

وفي سياق المقارنة بين قريش الدّعيّة للمجد والتمجُّد قرّع الله ادعاءَهم، ودحض منطقَهم حين قال: (أهم خير أم قوم تبع)[1]؟! مع أنّ قريشًا إلى أيام البعثة النبوية قد قطعت شوطا إيجابيا في المدنية والتحضر، متأثرة بعواصم الحضارات التي حولها من سبئية وبابلية وأشورية، وعلى الرغم من ذلك فالاستفهام هنا إنكاري تقريري. بمعنى أنهم ليسوا على الخيرية في شيء، وأن تُبَّعًا «أَخْيَرَ» منهم وأعظم.

وباختصار.. فهذه صورة اليمن في القرآن الكريم:

(1)- تُبّع: تبع أسعد أبو كرب الحميري.

قوم عاد: ﴿التي لم يُخلق مثلها في البلاد﴾
قوم تبع: ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾؟!
عرش بلقيس: ﴿ولها عرش عظيم﴾
بلاد سبأ: ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾
ملكة سبأ: ﴿أوتيت من كل شيء﴾
ذو القرنين: ﴿إنا مكنا له في الأرض﴾

أما في السُّنة النبوية فقد وردت المئات من الأحاديث عن اليمن وأهلها، وعن فضائلهم، ومكانتهم، وقد أفرد لها المحدثون كتبا خاصة.[1]

(1)- انظر اليمن مكانتها في القرآن والسنة، عبد الملك الشيباني، مكتبة خالد بن الوليد، عالم الكتب اليمنية، د. ط، 2003م، 10.

النضال اليمني.. جذور وبذور

إنَّ روحَ الإنسان مرتبطة بروح المكان نفسه، المكان بما هو نص بصري تهجّاه القلب لأول مرة منذ وعى الفردُ وجوده عليه، وبما هو جزء من الذات، بهوائه، بأجوائه، بأهله، بأرضه وسماه، من أجل الوطن يحيا الفرد، وفي سبيله يقدم روحه. ولا يمكن لأي مرتحلٍ عن وطنه أن ينسى مسقط رأسه ومراتع صباه الأولى، مهما تمرغ في النعيم. وفي هذا قال الشاعر أبو تمّام:

نقل فؤادك حيث شئتَ من الهوى ما الحبُّ إلا للحبيبِ الأول
كم منزلٍ في الأرض يألفُه الفتى وحنينهُ دومًا لأولِ منزل

وقال الشاعر أحمد شوقي:

وطني لو شُغلتُ بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

ويزدادُ حبُّ الوطن والتشبثُ بذرات ترابه مع تزايد الأخطار التي يتعرض لها، بالغزو الخارجي، أو الخيانة الداخلية التي تُرزأ بها الأوطان أحيانًا، على ما في الغزو الخارجي والخيانة الداخلية من تداخل وترابط، فالطغاة يجلبون الغزاة، وفقا لابن خلدون.

منذ مطلع القرن الثالث الهجري بدأت تتشكلُ روحُ المقاومة والدفاع عن الخطر الذي بدأ يطلُّ بقرونه على اليمن، متمثلا في الإمامة الخارجة عن الخلافة العباسية، الدولة الشرعية القائمة آنذاك، ثم بعد ذلك في يحيى حسين الرسي وبنيه وأتباعه الذين جلبهم من الجيل والديلم، لبناءِ دولةٍ لهم في جبالِ اليمن الحصينة، بعيدين عن مركز الخلافة الإسلامية في بغداد آنذاك التي كانت تلاحقُهم أينما حلوا وثووا، باعتبارهم كيانا مارقًا ومتمردا

عـلى دولـة الخلافـة، فتمترسـوا بصلابـة الجغرافيـا هنـاك في جبـال شـمال اليمـن المنيعـة، مسـتغلين حالـة التحـول والانحـدارِ الحضَـاري التـي كانـت اليمـن قـد بدأتهـا آنـذاك، غـير محترمـين أدب الضيـف أو طبيعـة المقـام، فبـدأوا ينخـرون في جسـد المجتمـع ويقوّضـون أركانـه. ومـن هنـا بـدأت مسـيرةُ النضـالِ اليمنـي منـذ ذلـك التاريـخ وإلى اليـوم، وكلـما ازدادت همجيـة أبنـاء وأحفـاد يحيـى حسـين الـرسي تبلـورت الـروح الوطنيـة أكثـر، وصمـدت هامـات وقامـات في وجـه ذلـك الطغيـانِ البربـري الغاشـم.

ونسـتعرض هنـا أبـرز هـؤلاء الرجـال الذيـن نـذروا حياتهـم للوطـن عـلى فداحـة الثمـن، وقـوة البطـش الـذي لاقـوه، وهـم كثـر؛ إنـما سـنقتصرُ عـلى أبرزهـم موقفًـا، وأكثرهـم معانـاةً، وأبلغهـم تأثـيرًا.

محطات من نضال الأحرار

1ـ أحمد بن يزيد القشيبي.. قادح الشرارة الأولى

إنّ نضالَ اليمنيين تجاه الإمامة ارتبط بمجيء الإمامةِ إلى اليمنِ من أول يومٍ لها، من قبل ورود يحيى حسين الرسي بما يزيد عن ثمانين عاما.

كان إبراهيم بن موسى العلوي، الملقب بالجزار قد زار اليمنَ داعية بالإمامة لابن طباطبا[1]، وخلال قدومه إلى اليمن بدأت أعماله الوحشية ضد اليمنيين[2]، مستغلا مكانة أخيه علي الرضا عند المأمون الذي قربه، وعيّنه وليًا للعهد، كما قرب العلويين بشكل عام من أجل مهادنتهم ومصالحتهم وتأمينًا لشرورهم، فأعمل الجزّارُ حدَّ سيفه بين اليمنيين، متحالفًا مع بقايا «الأبناء» من الفرس، حتى انبرى له أحمد بن يزيد القشيبي[3]

وأحمد بن يزيد القشيبي شاعرٌ وفارسٌ وقَيلٌ من أقيال عصره، كان معتدًّا بيمنيته، مُفاخرًا بقحطانيته، انتفض وجماعتُه ضد طغيان إبراهيم الجزار، الذي عاد إلى أدراجه من حيث أتى، بعد معركة فاصلة في منطقة «جدر» خارج صنعاء، سنة ٢٠٠١هـ، في جيشٍ أغلبه من بني عقيل، من خولان في صعدة، بقيادة والي المأمون على اليمن حمدويه بن علي بن عيسى، والذي

---

(1) ــ هو محمد بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي أبي طالب. خرج على الدولة القائمة سنة 199هـ، عقب موت الخليفة هارون الرشيد، وتغلب على الكوفة، وأرسل الدعاة إلى بعض المناطق، مدعيًا لنفسه الإمامة.

(2) ــ انظر: اليمن الإنسان والحضارة، الشماحي، 104. وقد اتخذ الجزار من صعدة قصبة لحكمه، وأعلن أن كل خارج عن حكمه خارجٌ عن الملة، مباح الدم والمال، فناوءه بعض أبناء صعدة، فخرب عليهم مدينة صعدة، وهدم سد الخانق، وقتل كل معارض، وهدم الآثار السبئية والحميرية.

(3) ــ أحمد بن يزيد بن عبدالرحمن القشيبي الثاني، وهو غير أحمد بن يزيد بن عمرو بن ثابت العوسجي، القشيبي الكبير، أو الأول، وهو فارس وشاعر، وحليف للزعيم اليماني محمد بن أبان.

عزله المأمون، وعين بدلا عنه عيسى بن يزيد الجلودي، وأمره أن يرسل حمدويه مخفورًا إلى بغداد.[1]

«وكان أحمد بن يزيد هو الذي ألّب أهلَ اليمنِ على إبراهيم بن موسى العلوي، أولِ داعية للإمامةِ في اليمن، وقلب عليه البلد، وقام كثيرٌ من اليمانية مع عبدالله بن محمد بن ماهان سنة ٢٠١هـ، ثائرين عليه حتى خرج ابن موسى طريدًا».[2]

وقد استطاع الإفلات من أسر الجزار، ضمن مئة وخمسين شخصية من خنفر وأكيل وشهاب، وهم قومه، أعدمهم الجزار جميعًا في عملية غادرة، وكانوا من نخبة اليمن ورجالاتها، بعد أن تحالف مع قبيلة سعد في صعدة، مواليا الخليفة العباسي المأمون ضد العلويين الذين انقلبوا عليه. وفي هذا يقول الهمداني في الإكليل في سياق الحديث عن الجزار: «فوثب به أحمد بن يزيد، وكان لسانًا، فألّب عليه أهل اليمن، وقلبَ عليه البلد، وقام هو وكثير من اليمانية مع عبدالله بن محمد الأحوال ابن ماهان، في سنة إحدى ومئتين، فخرج إبراهيم بن موسى طريدًا..».[3]

ورثى القشيبيُّ هؤلاء القتلى بقصيدة، منها:

فيا أسفـًا من بعد صيد غطارف ... جسام المعالي ليس زندهم يكبو
بكل جيادٍ تستفاض جيـــادهم ... من الماء قرنا بعد قرن له سكب

ويقول فيهم أيضا في قصيدة أخرى:

مصابيح أرضٍ أُطفئوا ثم غُيبـوا ... سلالة أقـــوال مغاوير في الـــردع
بقية ميمون بن حجر بن زرعـــة ... فيا نبعـــــة خضراء سامقة الفـــرع

(1) ــ انظر: اليمن في التاريخ الإسلامي الباكر، د. عبدالمحسن المدعج، ترجمة: د. قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط:1، 2009م، 245.

(2) ــ قصة الأدب في اليمن، أحمد محمد الشامي، ط:1، 2007، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 202.

(3) ــ الإكليل، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، مطابع السنة المحمدية، القاهرة، 1966م، 132/2. وانظر أيضا: الأدب والثقافة في اليمن عبر العصور، محمد سعيد جرادة، دار الفارابي، بيروت، ط:1، 1977م، 87.

بهم كان يُستسقى الغمام وتُتقى بهم عثرات الدهر في السهل والتلع

وثمة تفاصيل أخرى في هذه الواقعة التاريخية، وغيرها من الوقائع، فصلتها كتب التاريخ، سواء ما كان منها في العهد الأموي، أم ما كان في العهد العباسي. ولعل أبرزها هي الهبة السياسية التي قادها أحمد محمد العُمري «أحمر العين» ــ وهو من نسلِ عمر بن الخطاب ــ ضدَّ سياسةِ المأمون التي كانت قد قربت العلويين، والذين بدورهم تحالفوا أيضا مع الفرس، سواء في بغداد أم في اليمن. والحقيقة أن القرن الثالث الهجري هو بداية التأسيس لقرن الدويلات في اليمن التي تتابعت لفترة طويلة من الزمن.[1]

وتجدر الإشارة هنا إلى أخي إبراهيم بن موسى الجزار، وهو زيد بن موسى، الملقب بالنار، وكلاهما من أبناء جعفر الصادق، خرج زيد على المأمون في البصرة، فأحرق دورها وبيوتها وأهلها، وقتل منها الكثير، فسمي بزيد النار، لكثرة ما أشعل من النيران التي دمرت منازل ومتاجر أهل البصرة آنذاك. وهذا في الوقت الذي جاء فيه إبراهيم إلى اليمن، وقتل من جنود بني العباس ومن اليمنيين خمسة عشر ألفا. وهكذا نرى وحشية وإرهاب هذه الجماعة التي تنتسب لآل البيت، ثم تمارس أبشع الجرائم الإنسانية عبر التاريخ.

(1) ــ اليمن في التاريخ الإسلامي الباكر، سابق، 252.

2ـ الهمداني.. مؤسس مداميك النضال

إن الوقوف على حياة أبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني، هو الوقوف على جزء من تاريخ اليمن وحضارته، وهو توقف في محطة مهمة من محطات النضال الوطني ضد غزاة السلالة الكهنوتية التي تستبطن حقدها التاريخي على اليمن وتاريخه خلفًا عن سلف.

كان لسانُ اليمن أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني -٢٨٠ ٣٣٦هـ المؤسسَ الأول لمداميكِ النضالِ الوطني في بواكيرِ فجره الأول تجاه أبناء يحيى حسين الرسي وبقايا أتباعه من الجيل والديلم والطبريين، في القرن الرابع الهجري، وقد لمح بحدسِه الذكي مشروعَهم الفارسيَّ يتبلور، على حساب حضارة ومجد اليمن.

كان الهمداني يعرف تمام المعرفة حضارة بلده وأمجادها القديمة، كما كان يشعر ــ باستبصار العالم والمفكر ــ بحقيقة المشروع الفارسي الذي يؤسس له الرسي في بلد ليست بلده، مخاطبًا قومه في بلاد فارس:

كذلك أنتم يا آلَ أحمد فانهضُـــوا ... بجيشٍ كسيلٍ حــدرته الجراشع
فما العز إلا الصَّبر في حَومة الوغى ... إذا برقت فيه السُّيـــوف اللوامع
هل الملك إلا العز والأمر والغنى ... وأفضلكم من هَذبتـــه الطبَـائـع
بنيتُ لكم بيتًا من المجد سُمْكه ... دُويـن الثـــريا فخـرُه مُتتابـــع
ألـم تعلمـوا أني أجودُ بمهجتي ... ومالي جميعًا دونكم وأدافـــــع
فما أحــدٌ يسعــى لينعـش عزكم ... سواي وهَذا عند ذي اللب واقع
فإن لم تكافوني بفعـــلي فتُحسِـنُوا ... فلا يأتني منكم ـ هُديتم ـ قطائع[1]

(1) ـ سيرة الهَادي إلى الحَق يحيى بن الحسين، علي بن محمد عبدالله العلوي، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط:2، 1981م. 302. وهذا الخطاب هو نفس الخطاب الذي خاطب به أحمد بن سليمان من بعده قومه، قائلا: =

هذه هي معالمُ المشروعِ الإمامي الفارسي منذ لحظاته الأولى، تجلت واضحة للعيان في شعر يحيى الرسي، فقرع جرس الإنذار الأول، وأعلن النفير بين القوم، ولكن..!

لم يكن في القوم من هم بنفس هامته وقامته.. كان الفراغُ المجتمعيُّ والسّياسي سيدَ الموقف، وكانت الأغوال على أهبة الاستعداد للتمدد في هذا الفراغ. كانت رجالات المجتمع اليمني من قبل تلك الفترة بعشرات السنين قد حطت رحالها في أرض الفتوحات الإسلامية في كل من الشام والعراق وفارس والأندلس، ولم تعد.

رأى المؤامرة واضحة للعيانِ على مرأىً ومشهد؛ لهذا شمّر عن ساعدِ الجد، ونازلهم العِدا، حتى وفاته، فكان أولَ من وضعَ لبناتِ النضالِ والمواجهة في وجه تلك الطغمة، غير آبهٍ بما لاقاه من صُنوف العذاب المادي والمعنوي من قبل هذه الجماعة التي لم تحترم مكانته العلمية ولا وجاهته الاجتماعية؛ حيث سجنوه أكثر من مرة، وعذبوه، ثم صفدوه وربطوه على ظهرِ حمارٍ وطافوا به بين القبائل، إمعانًا منهم في الإذلال، ومع هذا، فقد أصر بكبرياء اليماني الأصيل على مواصلة نضاله ومقارعة المحتلين رغم ما لاقاه منهم. كانت معارضته فكرية، باعتباره صاحب قلم فقط، لا يملك العصائب والجند، فسهل على الإماميين قمعه والتنكيل به. وهم ــ في الواقع ــ إن نكلوا به جسدا، فلم يستطيعوا أن يمحوه من ذاكرة التاريخ ولا وجدان اليمنيين،

= قوموا جميعا بني الزهراء وانتصروا ... مما أضَرَّ بكم من سَالف الزمن

وجَاهدوا في سَبيل الله وانتقموا ... للحق واستيقظوا من غمرة الوسن

إني نهضتُ للم الشَّمل شملكم ... وما لويتُ على أهل ولا وطن

فإن تجيبوا أملُكُم بلا كذب ... على الشَّريعة أرضَ الشَّام واليَمن

وأقتني لكم ما ينفعُكم ويحفظ ... العِز من حِصنٍ ومن حُصُن

يا قوم إن تسمعوا مني أكُنْ لكم ... أصفى من الماء أو من خالص اللبن

انظر: سيرة الإمَام أحمد بن سليمان، سليمان بن يحي الثقفي، تحقيق: الدكتور عبدالغني محمد عبدالعاطي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط:1، 2002م، ص: 26.

فلا يزال إلى اليوم مُلهمًا كبيرًا من خلال كنوزه العلمية القيمة، ومن خلال موقفه البطولي الذي جسده، ولم يستسلم رغبة أو رهبة.

يُعتبر الهمداني شخصية الألف الهجري الأول، لمكانته العلمية ونتاجه الفكري والمعرفي الذي تركه، وخاصة موسوعته التاريخية «الإكليل» الذي لم يصلنا منه إلا أربعة أجزاء، ونتفة يسيرة من الجزء السادس فقط، فيما عمل كهنة الإمامة على إخفاء بقية الأجزاء، كما عملوا على إخفاء، وربما إتلاف بقية الكتب التي لم نعرف إلا أسماءها فقط. وربما أخفيت أو أتلفت مؤلفات أخرى له لم نعرف لها اسمًا. وإلى جانب الإكليل أيضا صفة جزيرة العرب، والمسالك والممالك، والجوهرتان العتيقتان المائعتان «الذهب والفضة»، والدامغة، وهي عبارة عن ملحمة شعرية، تزيد عن ستمئة بيت تختصر تاريخ اليمن وملوكه وملاحمه نظما.[1]

(1) ــ ثمة رواية عنه للسياسي والمفكر الدكتور أحمد محمد الأصبحي، تلخص شخصيته، بعنوان: «الهمداني يطل من أورليان». و «أورليان»: مدينة فرنسية.

3ـ نشوان بن سعيد الحميري.. المجدد الديني

مَثّـل القَيـل اليـماني الكبير نشـوان بـن سـعيد الحمـيري[1] ــ وهـو عـالم وشـاعر ووجيـه قومـه ــ مدرسـة نضاليـة، عـلى نهج لسـان اليمـن أبي محمد الحسـن بـن أحمد الهمـداني، فقـارعَ أحمـد بـن سـليمان، إمـام تلـك الفـترة[2]، خـلال القـرن السـادس الهجـري، منتـصرًا ليمنيتـه، ومناوئـا لفكـرة الأفضليـة العرقيـة التـي تبلـورت معالما أكثـر في عهـد هـذا الإمـام، داعيًـا لنفسـه بالإمامـة، باعتبـاره مسـتكملا لشروطهـا، فهـو فقيـه ولغـوي ومجتهـد وعـالم كبير، ناهيـك عـن كونـه قَيـلا مـن أقيـال البـلاد، إلا أن الإمامـة وأعوانهـا اجتمعـت عليـه بقضِّهـا وقضيضِهـا، ونازلتـه العِـدا، وفيـه ــ وبعـد وفاتـه ــ نظـمَ عبـدالله بـن حمـزة أرجوزتـه المعروفـة، بعـد أن شـاع رأيـه بين النـاس وفشـا، وفيهـا:

أما الذي عند جدودي فيـه فينزعون لسنـه من فيـه
ويؤتمـــون جهـــرة بنيـه إذ صار حق الغير يدعيه

ومنـذ ذلـك التاريـخ وإلى اليـوم، لا يـزال القَيـل نشـوان بـن سـعيد الحمـيري حيًـا في وجـدان وذاكـرة الأحـرار اليمنيـين.

وكـما خلـف لنـا المؤسـس الأول الهمـداني كنـوزًا فكريـة في مجـالات متعـددة، وصلنـا منهـا مـا وصـل، وأخفـي عنـا مـا أخفـي، كذلـك الحـال مـع نشـوان بـن سـعيد الحمـيري، خلـف لنـا ثـورة فكريـة، لا تـزال منهـلا عذبًـا إلى اليـوم، ومنهـا: شـمس العلـوم ودواء كلام العـرب مـن الكلـوم، والنشـوانية أو القصيـدة الحميرية

(1) ــ هـو نشـوان بـن سـعيد بـن سـعد بـن أبـي حمير بـن عُبَيْد بـن القاسـم بـن عبـد الرحمـن بـن مفضـل بـن إبراهيـم ابـن سـلامة بـن أبـي حمير الحميـري. ينتهـي نسـبه إلـى القيـل الحميـري حسـان ذي مراثـد، قـال فـي قصيدتـه الحميريـة المشـهورة بالقصيـدة النشـوانية:

أو ذو مَرَاثِدَ جدُّنا القيلُ بن ذي سَحَرٍ، أبو الأذواءِ رحبُ الساحِ
وبنوهُ ذوقَينٍ وذو شَقَـــرٍ وذو عمران، أهلُ مكـــارمٍ وسماحِ.

ولـد فـي حُـوث ــ وهـي مدينـة يمنيـة قديمـة ــ علـى الأرجـح نهايـة القـرن الخامـس، أو بدايـة القـرن السـادس الهجـري؛ إذ لا يوجـد تاريـخ مجمـع عليـه لسـنة ولادتـه؛ أمـا تاريـخ وفاتـه فكان فـي 24 ذي الحجـة، 573هـ.

(2) ــ تذكر بعض الروايات أنه أخوه من أمه.

وشرحها، المطبوعة تحت عنوان: ملوك حمير وأقيال اليمن. والتبيان في تفسير القرآن. وغيرها من المؤلفات.

ومن أشعاره مفاخرًا بيمنيته:

مِنّا التَّبابِعةُ اليمانون الأُلـــــى ... ملكوا البسيطة سَلْ بذلـــك تُخْبِرِ
مِن كلِّ مَرْهوبِ اللقاء مُعصَّبٍ ... بالتـاجِ غـــازٍ بالجيـوش مُظَـفَّرِ
تعنو الوجوهُ لسيفهِ ولرُمحـــــهِ ... بعدَ السُّجود لتـــاجـه والمِغْـفَرِ
يا رُبَّ مفتخرٍ ولولا سَعيُنـــا ... وقيامُنا مع جَـــدّه لـــَم يَفْخَـر
وخلافةُ الخُلفاء نحنُ عِمـادُها ... فمتـــى نهمّ بِعـــَزْل والٍ نَقْـــدِرِ
وبكُرَهْنِا ما كـان مـن جُهـّالنا ... في قتلِ عُثمانٍ ومَصـــرع حَيـْدَرِ
وإذا غَضِبنـــا غَضبـــةً يَمنّيـــةً ... قَطَـرت صوارمُنـــا بموْتٍ أَحمـرِ
فَغدتْ وهادُ الأَرضِ مُترعَةً دماً ... وغَدتْ شِباعاً جائعـاتُ الأَنْسُـرُ
وغدا لنـا بالقهر كُـــلُّ قبيـلـةٍ ... خَـــوَلاً بمعـروف يَزينُ ومُنكَر
وإِناخَةُ الضِيفان فـرضٌ عندنـا ... يلقى به الولْـدِانُ كـــلَّ مُبَـــشرِ

4ـ المطرفية.. في سبيل التجديد الفكري والثقافي

تتالت فصول النضال الوطني في مختلف جوانب الحياة، ومنها الجوانب العلمية، متمثلة في حركة المطرفية الإصلاحية[1]، وهي الجماعة الفلسفية الأولى في التاريخ اليمني التي قمعها من بداية تكوينها أحمد بن سليمان، وأبادها بصورة نهائية من بعده السفاح عبدالله بن حمزة. وقد مثلت هذه الجماعة التي نشأت ابتداء في قاع البون، حركة نهضوية علمية، مناوئة للفكر الاستبدادي القمعي الكهنوتي، ورد فعل لغلو الهادويّة الجارودية المتطرفة. لقد سبقت حركة التنوير الأوروبي بقرون، وناقشت قضايا علمية وفلسفية لم يصل إليها فلاسفة التنوير في أوروبا إلا بعد قرون من الزمن. وعلى مكانتها العلمية هذه إلا أن كهنة الإمامة قد أبادتهم وأتت عليهم، وذلك حين شعر هؤلاء الكهنة بخطر العلم والتنوير والعقل عليهم، فأبادت أطفالها وشيوخها بمن في ذلك الأكفّاء منهم، وجعلت مدارسهم أثرًا بعد عين.

تبدت حركة الإمام الهمداني معارضة فردية، مرتكزة على خلفية تاريخيّة وثقافية عميقة ضد آل الرسي، تسعى لاستعادة الذات السليب والهُوية التاريخية. وتبدت حركة نشوان بن سعيد الحميري حركة معارضة إصلاحية من منطلق ديني/ فقهي بالمقام الأول، إلى جانب ما مثله الهمداني له. وكلتاهما أيضًا معارضة فردية.

كان النسق الثالث الذي تشكل خلال القرن السّادس وبداية السابع هو النسق العلمي الفلسفي الذي تبدى في صورة أكاديميات عنقودية متناثرة في أكثر من مكان، بأدوات تلك المرحلة، بنت على تراث الهمداني، وكان نشوان ممن تأثر بها وأثر في نفس الوقت. وكان هذا النسقُ المحطة الثالثة من محطات النضال الفكري أو الثقافي على الأقل، ولا يزالُ النضَالُ حتى هذه المرحلة فكريًا علميًا في غالبه، أي معارضة نخبة.

---

(1) ــ نسبة إلى مطرف بن شهاب بن عمرو بن عباد الشهابي، من أعلام نهاية القرن الرابع، وبداية القرن الخامس الهجري.

تخلت المدرسة المطرفية عن الأفكار السائدة في أدبيات الهادوية، وأهمها شرط البطنين في الحكم، وانفتحوا على كل الآراء الأخرى، وبدأت أصداء هذه المدرسة تتعالى، وقد توافد على مدارسها مئات الطلاب والطالبات، وكادت تحدث طفرة علمية وسياسية، لولا أن نكل بها أولا أحمد بن سليمان، ثم عبدالله بن حمزة من بعده.[1]

(1) ــ ثمة عملان علميان عن المعتزلة، الأول بعنوان: معتزلة اليمن دولة الهادي وفكره، للدكتور علي محمد زيد، والثاني: رواية بعنوان «وقش» للكاتب والروائي وليد دماج، وهما من أفضل الأعمال الثقافية التي تناولت تاريخ المعتزلة وأفكارها ورجالها.

5ـ مدارس الإصلاح الديني.. التجديد الفقهي

تواصل القمعُ الإماميُّ الكهنوتي تجاهَ اليمنيين، ومع هذا القمع أيضًا تواصلت مسيرةُ الرفض والمناوءة لهذا الفكر، فكان كل من: صالح بن مهدي المقبلي، وابن الأمير الصنعاني ومحمد علي الشوكاني ـ وجميعهم من رجالات الإصلاح الديني في العهد القاسمي ـ امتدادًا لمدرسة التجديد الفقهي التي وضع لبناتها الأولى نشوان بن سعيد الحميري، وضد فرض الوصاية الدينية على الخلق، أو فرض أفضلية جنسية لعرقٍ ما على بقية الأعراق.

لقد كان لكل عَلَم من هؤلاء الأعلام موقفٌ علميٌ مناهضٌ ومغايرٌ لأفكار الإمامة، وتعرَّض بعضُهم للسجن، كحال ابن الأمير الصنعاني مع الإمام المهدي، كما تعرض آخرون للتكفير والتفسيق والتضييق عليهم، كحال الإمام الشوكاني الذي كفّره غلاةُ الهادوية، واتهموه بالنصب، ودعوا الإمام لمهاجمة داره ومصادرة كتبه، ولما لم يفعل هاجمه بعضهم، وسلطوا عليه العامة والمتعصبة من الناس، مهاجمين إياه إلى الجامع، وقد ذكر الشوكاني ذلك في كتابه «أدب الطلب» بقوله: «فوصلوا وصَلاة العشاء الآخرة قائمةٌ. ودخلوا الجامع على هَيئة منكرة، وشَاهدتُهم عند وصولهم، فلما فرغت الصَّلاة قَال لي جَمَاعَةٌ من معارفي: إنه يحسنُ ترك الإملاء تلك الليلةِ في البخاري، فلم تطب نفسي بذلك. واستعنت بالله وتوكلت عليه، وقعدت في المكان المعتاد، وقَدْ حضر بعضُ التلاميذ، وبعضهم لم يحضر تلك الليلة لما شاهد وصولَ تلك الأجناد. ولما عقدتُ الدرس وأخذتُ في الإملاء رأيتُ أولئك يدورون حولَ الحلقةِ من جانبٍ إلى جانب، ويقعقعون بالسِّلاح، ويضربون سِلاح بعضهم في بعض، ثم ذهبوا ولم يقع شيءٌ بمعونة الله تعالى وفضله ووقايته».[1]

ليس ذلك فحسب؛ بل لقد بلغ الحقدُ بالإمام الناصر، عبدالله بن الحسن، ت:١٢٥٦هـ أنه كان قد قرر نبش قبر الإمَام الشَّوكاني وإحراقه، لولا أنه

(1) ـ انظر: أدب الطلب، محمد بن علي الشوكاني، مركز الدراسات والبحوث اليمني، 1979م، 32.

تراجع في الأخير حين هددت قبائل خولان التي ينتمي إليها الشَّوكاني بالهجوم على صنعاء، كما أمر اليهود بالوقوف على قبر المهدي عبدالله وقراءة التوراة عليه، لإقراره الشوكاني على منصبه بعد أبيه وجده..!

مثل الشوكاني ــ بمدرسته التجديدية ــ محطة هامة من محطاتِ النضال الثقافي والفكري، متجاوزًا غلو الفقه الهادوي الذي غلب على تلك البيئة، لا على مستوى اليمن فحسب؛ بل امتد تأثيره إلى خارج اليمن، وتخرج على يده فقهاء مجتهدون، امتد تأثيرهم إلى الرعيل الأول من مناضلي ثورتي ١٩٤٨م و ١٩٦٢م، الذين «تشوكنوا» فقهيًا» متجاوزين تراث الرسي وابن حمزة وابن حريوة السماوي وغيرهم من المتعصبين الغلاة.

6ـ ثورة الفقيه سعيد بن ياسين.. أفق جديد في مسار النضال

كان الفقيه سعيد بن ياسين الدنوة في إب، رجلا صالحًا تقيًا ورِعًا، يمثلُ مرجعية بلاده في مختلف شؤونهم، وكان توحش الإمامة وجنونها قد بلغ مداه من النهب والسلب والقتل والاعتداء، حتى ضاق الناس بهم، وخاصة في مناطق ما عرف باليمن الأسفل، «فأجفل إليه اليمن من نقيل صيد إلى عدن، وأتوه بالنذور والزكاة، وكان يُطعم الطعام لمن وفدَ إليه، وارتعب المشرق والمغرب حين رأوا رجال بكيل قد فارقوا تلك الحصون وخرجوا عنها وارتحلوا عن اليمن مرعوبين منهوبين».[1]، وحينها قام بالثورة ضد المتوكل محمد بن المتوكل أحمد[2] سنة ١٢٥٦هـ، وسيطرة على تهامة وعدن ومناطق اليمن الأسفل بشكل عام، إلا أن تلك الثورة لم يُكتب لها النجاح، وسرعان ما حشد له المتوكل/ الهادي القبائل من صنعاء وما حولها، وقضى على ثورة الفقيه سعيد التي مثّلت ملجأ للناس من بطش وظلم الإمامة.[3]

وقد أسقطت ثورته هذه ثلاثمئة وستين حصنا كانت تتمركز فيها جحافل النهب والسلب، ودعا الإمام سعيد لنفسه، وصكّ العملة، وعين الولاة، وامتد نفوذه من سُمارة شمالا، وحتى أبين على ساحل البحر العربي جنوبي.[4]

ولم تكتف الإمامة بهزيمة الفقيه سعيد ماديا؛ بل لقد لاحقته كعادتها بالشائعات التي تلاحق بها خصومها، فقيل فيه الكثير من الأكاذيب التي تريد

---

(1) ــ اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، محمد بن إسماعيل الكبسي، تحقيق وضبط: أبي حسان خالد أبي يزيد الأذرعي، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ط:1، 2005م، 410.

(2) ــ جدد لقبه لاحقا بالهادي.

(3) ــ قبل ثورة الفقيه سعيد بن ياسين كانت ثورة الشيخ علي بن يحيى المنتصر في ريمة، سنة 1248 هجرية، وكانت أكثر نجاحا من ثورة الفقيه سعيد بن ياسين؛ إذ قضى الشيخ المنتصر على أتباع الإمام القادمين من بلاد حاشد والمسيطرين على حصون البلاد، وعددها 46 حصنا، فغادروا البلاد جميعًا، عدا من اختار أن يكون في عداد الخدم والأتباع للشيخ المنتصر. انظر: ذخرة الأحياء في مناقب الشيخ علي بن يحيى، وأيضا: الدر المنتثر في مدح الشيخ علي بن يحيى المنتصر. صورة من المخطوط بإرشيف المؤرخ اليمني حيدر علي ناجي.

(4) ــ الزهر والحجر التمرد الشيعي في اليمن وموقع الأقليات الشيعية في السيناريو الجديد، عادل الأحمدي، مركز نشوان الحميري للدراسات والنشر، ط:2، مارس، 2007م. 90.

تشويهه، إذ رموه بالسحر والشعبذة[1] وادعاء المهدية إلى آخر هذه الاتهامات؛ بل أسقطوا عليه لقبا تاريخيا متوارثا، لمصادفة مطابقة اسمه مع اسم سعيد بن ميمون القداح، الذي لُقب بسعيد اليهودي، وأطلقوها على الفقيه سعيد بن ياسين، فقالوا «سعيد اليهودي»، ازدراءً وتنقيصًا له أمامَ الأتباع. وقد شنّعَ عليه صاحب «حوليات يمانية» أكبر تشنيع، فوصفه بالشيطان، وأكبر أهل الطغيان، وجعلوا منه شخصية عبثية أمام العامة من الناس، فيما هو في الواقع ثائرٌ سياسي، ومصلحٌ اجتماعيٌ ضد ظلم الإمامة وجورها، رفض حكم الإمامة الكهنوتيّة، وقاوم الظلم والقهر.[2]

وفي تلك الفترة قامت انتفاضات قبلية أخرى في أغلب مناطق اليمن، بسبب الجور والتسلط الذي كانت عصابة الإمامة تمارسه كجزء من عقيدتها.

(1) ـ انظر: مئة عام من تاريخ اليمن الحديث، د. حسين عبدالله العمري، دار الفكر، دمشق، ط:1، 1984م، 293.

(2) ـ انظر: حوليّات يمانية، اليمن في القرن التاسع عشر الميلادي، «مؤلف غير معروف» حققه: عبدالله محمد الحبشي، دار الحكمة اليمانية، ط:1، 1991م، 95. وانظر أيضا: حرب الشائعات.. الإمامة الهادوية في اليمن تاريخ من الافتراء، د. ثابت الأحمدي، مركز النهضة اليعربية، 2020م، ص: 28.

النضال الوطني في القرن العشرين

نضال بلون مختلف

نتوقفُ في هذا الفصلِ عند أبرزِ المحطات النضاليّة في القرنِ العشرين التي مهدت للحدثِ الأكبر، في يومِ السادسِ والعشرين من سبتمبر العظيم ١٩٦٢م. وهي محطاتٌ مهمة، بَنَت عَلى بعضِها البعض، ومثلت المنابعَ الأولى لذلك الحدث الكبير، وهو اليوم التّاريخي الأعظم في حياة اليمنيين.

1ـ معارضات عائلية

إن ثمة تململات، تطورت إلى تمردات وانتفاضات مناوئة للإمام يحيى حميد قبل مرحلة الثلاثينيات؛ بل منذ البواكير الأولى لتوليه الإمامة، كمناوءة القاضي العلامة محمد جَغْمَان[1]، شيخ الإمام يحيى، والذي كان يلقبه البعض بشيخ الإسلام، وهو أكثر علمًا من الإمام يحيى، وكان يرى نفسَه الأحقَّ بالإمامة، وفقًا للشروط النظرية في النظرية الهادوية، فرفض مبايعته في العام ١٩٠٤م؛ كما رفضَ الشيخُ الضحياني[2] مبايعته أيضًا، وبايعه أكثر فقهاء صعدة، وتلقب بالإمام، ومات وهو يعتقدُ في نفسه الإمامة، غير معترفٍ بإمامِ صنعاء، يحيى حميد الدين، إلا أن هذه التململات لم تتبدّ في ملمحٍ سياسيٍ مكتملٍ كما حصلَ لاحقا.

ليسَ القاضيَ جغمان أو الضحياني من رفضوا مبايعة يحيى حميد الدين

(1) ــ ذكر عبدالله جزيلان أن الإمام يحيى اغتاله عام 1919م، مع رفيقه القاضي السدمي، والشيخ مصلح مطير، ثم مجموعة من آل أبي دنيا. التاريخ السري للثورة، عبدالله جزيلا، 25.

(2) ــ هو الحسن بن يحيى بن القاسم الضحياني، لقب نفسه بالإمام، وعارض الإمام يحيى، إلى جانب: محمد بن الإمام الهادي شرف الدين، ومحمد بن محسن المتوكل.

فحسب؛ بل حين اجتمع العُلماء للتداولِ وانتخاب إمَام جديد في قفلة عذر "أغلق على المجتمعين بابَ غرفة الاجْتماع، وترك الشَّيْخ ناصر مبخوت الأحمر حارسًا عليها، وقد أعطاه مبلغا من المال، فلما سَمعهم الحارسُ يتداولون الرأي في انتخابِ الإمَام يحيى أو انتخاب غيره، هاجمَ الاجتماعَ وهدَّدهم بالقتل، وقال: «مابش» إمَام غير سِيدي يحيى..»[1] وقد كان الإمامُ يحيى يعرف أن شروط النظرية الهادوية لا تنطبق جميعها عليه، فهو وإن كان عالمًا في القضاء والشريعة، إلا أنه بخيل مشهور بالبخل والتقتير حد الشح، والبخلُ من موانع الإمامة في النظرية؛ بل وحتى في الفقه السني، وثمة روايات أخرى، قريبة من هَذِه الرواية، ذكرها الأكوع في كتابه هجر العلم، وغيره.

وفي الوقت الذي يُجمع كل المؤرخين وكتاب السير على هذه الطريقة التي وصل بها الإمام يحيى إلى السلطة، يتفرد أحد أحفاده، وهو أحمد بن محمد بن الحسين في سرد رواية من نسج خياله بأن جده قد وصل إلى السلطة بترشيح العلماء له ومبايعته بالإجماع،[2] وهو محض افتراء، تدحضُه تلك التمردات والمعارضاتُ له من ثاني يوم على وصوله إلى الحكم؛ فكيف سيُجمعون على انتخابه برضًا واختيار، وفي اليوم الثاني سيعارضونه؟!!

والواقعُ أن هذه المعارضة في صورتها الأولية، ذات طابع ديني تقليدي، منطلقة من مفاهيم الفقه الهادوي، وبعضها ذات خلاف عائلي، لها نظائرها في السابق، كثقافة في تاريخ الإمامة تلاشت بمجرد تمكنه من عرش الإمامة وسيطرته على القوة.

في العام ١٩١٩م، ١٣٣٧هـ أي بعد الاستقلال النهائي بسنة واحدة فقط،

---

(1)ــ تكوين اليَمَن الحديث، د. سيد مصطفى سالم، دار الأمين للنشر والتوزيع، ط:4، 1993م. 72. واليمن الجمهوري، عبدالله البردوني، 80. وهجر العلم ومعاقله في اليمن، القاضي إسماعيل بن علي الأكوع، دار الفِكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط:1، 1995م. 1700/3. وأيضا: وانظر ايضا: مذكرات الرئيس القاضي عبدالرحمن الإرياني، د، د. ط:1، 2013م 58/1. وأيضا مصرع الابتسامة، حميد شحرة،20، وكلمة «مابش» هنا تعني لا يوجد. وقد دحض هذه الرواية ونفاها أحمد بن محمد بن الحسين بن يحيى حميدالدين، في كتابه «الإمام الشهيد يحيى حميدالدين».

(2) ـ انظر: الإمام الشهيد يحيى حميد الدين، أحمد بن محمد بن الحسين بن يحيى حميد الدين، د.ط، 98.

كانت حركة يحيى شيبان في حجة، بحسب تسمية البردوني، وبحسب المؤرخ الشماحي ثورة يحيى شيبان وأخيه محسن شيبان، وقد التجأ يحيى شيبان إلى الشيخ ناصر بن مبخوت الأحمر، ومعه ابنه حسين بن ناصر، ضد الإمام يحيى، رويت فيها أكثر من رواية، فبين قائل أنه أراد الإمامة بدلا عن الإمام بدعم من الإدريسي في صبيا، المناوئ للإمام يحيى، وقائل بأنه انتقص من واردات بيت المال، فالتجأ إلى الشيخ الأحمر هروبا من عقاب الإمام، ومهما كانت الروايات إلا أن هذا الحدث مثل حركة تمرد سياسي عسكري، انتهت بإخمادها عسكريا على يد السيف أحمد، كما ذكر ذلك البردوني.[1]

أعقب حركة شيبان في حجة، حركة حاشد والتي تصدى لها عبدالله الوزير على رأس جيش من صنعاء، كما أخمد حركات أخرى تتالت بعدها في صعفان والحدا والجوف، وإن كانت أقل منها.[2]

فيما بين عامي ١٩١٩ و١٩٢٠م كانت ثورةُ أهل ملحان من المحويت ضد الإمام يحيى، ورفضهم لحكمه،[3] ثم تمرد حراز غرب صنعاء، ثم مريس من قعطبة، ثم الضالع، ثم العدين، ثم برع وعبال من الحديدة، وبلاد الطعام من ريمة، ثم سائر بلاد ريمة، بقيادة الشيخ محمد أمين الجبي، حيث تواصلت المقاومة لشهور، تخللتها عدة معارك بمختلف الأسلحة، والتي راح ضحيتها المئات. ولما كادت جيوشُ الإمام يحيى أن تشارف على الهلاك جيّش على ريمة قبائل الحدا وخولان، انتقامًا منهم.[4] ويأتي هذا التجييش بعد تمرد ريمة كاملة عدا الجعفرية فقط.[5]

وبين يدينا نص لكاتب سيرة الإمام يحيى عبدالكريم مطهر عن تمردات

---

(1) ـ انظر اليمن الجمهوري، عبدالله البردوني، ط:6، 2008م، 73 فما بعدها.

(2) ـ نفسه، 82.

(3) ــ انظر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين المسماة كتيبة الحكمة من سيرة إمام الأمة، عبدالكريم أحمد مطهر، دراسة وتحقيق: محمد عيسى صالحية، دار البشير، الأردن، ط:1، 1998م، 114/2.

(4) ـ نفسه، 195/2، فما بعدها.

(5) ــ انظر: نظام الرهائن في اليمن في عهد المملكة المتوكلية اليمانية، 1918: 1962م، أمين محمد علي الجبر، «رسالة ماجستير، جامعة صنعاء، 2005م، 116.

ريمة، يقول عن حوادث سنة ١٣٣٨هـ: «وفيها ظهر الاختلال في بلاد الطعام من أعمال جبل ريمة، وأعلن في الضالع[1] كبير شيوخها الخلاف، وجلب بغاة تهامة إليه، وطار شر الخلاف إلى جميع عزل بلاد الطعام، ولم يكن في ريمة جند يقوم بدفع هذا الحادث، ويرفع خطبه الكارث، فاستمد عامل ريمة السيد محمد بن علي الشامي مولانا الإمام، فأمدّه بجند كثيف».[2]

وفي سنة ١٩٢٢م تمرد على الإمام يحيى الأمير محمد بن علي بن أحمد الوزير في خولان، وقَدْ كان عامله عليها آنذاك، إلا أن هذا التمرد انتهى في حينه، كعادة الأمراء الذين يخرجون على الأئمة، ثم يتصالحون غالبا أو يتم القضاء على تمردهم بالقوة.

(1) ـ اسم قرية من قرى عزلة المسخن.

(2) ـ سيرة الإمام يحيى، سابق، 167/2، وانظرها في صفحات من تاريخ اليمن في ريمة، حيدر علي ناجي العزي، ط:1، 2018م، 342.

2ـ انتفاضة المقاطرة

وفي نفس السنة أيضا كانت انتفاضة المقاطرة في تعز ضد حكم الإمام يحيى، والتي قادها أمير لواء تعز علي الوزير، أحد المقربين من الإمام يحيى، أشار إليها علي محمد عبده في لمحات يمنية من تاريخ حركة الأحرار، وذكر أن حروبه مع المقاطرة قد أخذت نصف مخطوطٍ عن حياة الأمير المذكور بعنوان «زورق الحلوى في سيرة أمير الجيش وقائد اللواء». وفي تلك معركة المقاطرة مع الجيش الإمامي اشتركت حتى النساء في القتال، دفاعا عن أنفسهن؛ حيث «كنَّ يرمينَ الجيشَ الإمامي بالحجارةِ ويضربنه بالفؤوس».[1]، علما أنَّ بلادَ المقاطرة وما حولها قد ضربت أروعَ النماذج في الاستعصاءِ والتمردِ على الجيشِ التركي هناك قبل الإمام يحيى. وبحسب البردوني فإنَّ قلعة المقاطرة كانت أسبق من حصن شهارة في صراع الأتراك؛ لأنَّ قائد نضال شهارة كان يتراوح بين المفاوضة والمقاومة، وكان يقبلُ الاحتلالَ إذا أتاح له المحتل التولي على الزكوات والأوقاف بدون فرض زيادات في الضرائب السنوية المتفق عليها؛ أما المقاطرة بزعامة آل علي سعد فانتهجت النضالَ بلا مساومة.[2]

ويضيف عنها البردوني: «إنها انتفاضة وطنية من جملة الانتفاضات التي تأججت في العشرينيات والثلاثينيات، كانتفاضة حاشد والزرانيق وحركة الدّباغ[3] والرصّاص.. فهي عملٌ وطنيٌ يلحقُ بالحركاتِ التي طمحت عن إرادة غامضة، وكانت دليلا للحركات الهادفة وللتطور التاريخي الذي تخلقه حيوية الأحداث وبُعد نظرها إلى المستقبل».[4]

---

(1) اليمن الجمهوري، سابق، 93.

(2) ـ نفسه، 88. والمقصود بقائد نضال شهارة هنا الإمام يحيى نفسه أثناء ادعائه مقاومته للأتراك.

(3) ـ الدباغ: محمد الدباغ، وفي مصادر أخرى: حسين الدباغ، ينتمي إلى الحزب الهاشمي بالعراق الذي كان يهدف إلى إعادة الحجاز إلى حكم الهاشميين، وكان قبل ذلك قد وصل إلى صبيا وأبي عريش لتحريض الأدارسة «الهاشميين» ضد الملك عبدالعزيز آل سعود. انتقل بعدها إلى صنعاء، ثم عدن، ثم يافع، ثم البيضاء، فانهزم أمام قوات الإمام يحيى، وعاد إلى الجنوب، فقبض عليه البريطانيون وسلموه للملك عبدالعزيز آل سعود، فيما سلموا حليفه الشيخ صالح المقالح للإمام يحيى، ليودعه السجن لسنوات. انظر: التاريخ العام لليمن، محمد يحيى الحداد، ط:1، 2008م، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 95. و اليمن تحت حكم الإمام أحمد 1948 ـ 1962م، د. أحمد عبيد بن دغر، مكتبة مدبولي، 2005م، 186.

(4) ـ نفسه، 96.

3ـ الزرانيق

كان التمرد الاجتماعي الأكبر هو تمرد الزرانيق «المعازبة» في تهامة والذي ابتدأ من أواخر سنة ١٩٢٦م ضد الإمام يحيى، فانتفضت ضده في أقوى عملية حربية داخلية، وذلك بعد انتفاضة المقاطرة بأربع أو خمس سنوات، وكانت أطولَ زمنا منها؛ حيث استمرت ما يقارب ثلاث سنوات، إلى أواخر العام ١٩٢٩م، فكبدته خسائر فادحة، و «أضنت فؤاد» نجله أحمد الذي قاد الحملة ضد الزرانيق، حتى أخضعها، فعبّر عنها بهذا اللفظ ضمن قصيدة له، منها:

صاح إن الجاح[1] قد أضنى فؤادي وابتلى جفني بألوان السهـــــاد

وقد قدمت الزرانيقُ مئاتِ القتلى والجرحى في ثورتها ضد الإمام يحيى ونجله السيف أحمد الذي حشّدَ القبائل عليهم من حاشد وبكيل وخولان وغيرها، حتى خضعت لحكمه بعد طول قتال، وبعد خيانات من السلاليين أنفسهم كما يذكر البعض، وما أكثر الخياناتِ السُّلالية في المقاومات الوطنية. ومن المعروفِ عن الزرانيق أنهم رجالات حرب، دوّخوا الأتراكَ العثمانيين قبل الإمام يحيى؛ ولم يؤثر عن مقاومةٍ داخلية أذاقت الإمامَ المُرّ كما حدث مع الزرانيق الأبطال؛ ووفقًا للبردوني، فقد أبادوا حملة خولان كاملة عن بكرةِ أبيها، بقيادة حسين بن عبدالرحمن بن عامر «فأبادوا الحملة وقتلوا القائد»[2] فرثاه السيف أحمد بقوله:

الله أكبر هذا فادحٌ جلل أصاب أهل الهدى من جوره الخطل
الله أكبر هذا الفرق قد جمعت أحزابه وأتت كالنّـــار تشتعلُ

ويقول في بيت ضمن قصيدة أخرى:

(1) ــ الجاح منطقة زراعية إلى الجنوب والجنوب الغربي من بيت الفقيه في تهامة، تتبع بلاد الزرانيق، خاض فيها الزرانيق أشرس معاركهم ضد السيف أحمد. وهي منطقة زراعية مشهورة، وفيها قلعة حربية، لا تزال آثارها إلى اليوم.

(2) ــ اليمن الجمهوري، 148.

كلما أعملتُ في القوم الردى طلعوا كالجنّ من تحتِ الرمال

ويضيفُ البردوني: «لم يرَ أحمد هذا الحدثَ تمردًا قبليًا كسائر الانتفاضات المعهودة؛ وإنما تصوره هَولًا كالنار، قد اجتمعت أحزابُه، وتألبت عناصرُ ناره، فهو يسميه تجمعًا حزبيًا، تشبيهًا له بغزوة المدينة، فصورةُ الحدث في تصور أحمد فوق كل الأحداث التي ألفها..».[1]

«لقد كانت أكثر الحروب القبلية ضراوة، وأطولها عمرًا هي حربُ الإمام مع قبيلة الزرانيق في تهام».[2]

وهكذا لم يستكن اليمنيون يومًا ما، أو يخضعوا لهذا الحكم الكهنوتي الغاصب الذي يدعي أن اليمنيين قد خضعوا له، أو دانوا لحكمه. لم تخلُ سنة واحدةٌ من حرب؛ بل من حروب، وفي أكثر من منطقة، ولم يكتب لهم البقاء إلا لأنهم يقمعون الناسَ بسلطةِ الحكم التي يتشبثون بها، مدعين أحقيتهم بها، افتراءً وزورًا، وفي سبيلها، ومن أجلها يقتلون وينكّلون، ولم يكن الأمرُ إلا كما قال الشاعر:

قد بُليـنا بإمـــام قتل الناس وسبّح
فهو كالجزار فينـاً يذكـر الله ويذبح

وقد انتصر عليهم الإمام يحيى بواسطة نجله أحمد، وقد جيّش عليهم قبيلتي حاشد وبكيل، واعتقل منهم ٨٠٠ شخص، وساقهم جميعًا مربوطين بالسلاسل إلى سجن حجة، سيرًا على الأقدام لأكثر من أسبوع، ولم يفرج عن أحد منهم، وماتوا جميعًا في سجن حجة، عدا شخصا واحدا فقط، ولا تزال هناك مقبرة في حجة إلى اليوم تعرف بمقبرة الزرانيق.

(1) ـ نفسه، 149.

(2) ـ اليمن تحت حكم الإمام أحمد، سابق، 183.

4ـ هيئة النضال

تأسستْ هيئة النضال في منتصف ثلاثينيات القرن الماضي، وتحديدًا في العام ١٩٣٥م، وذلك عقب ثلاثة أحداث كبرى في سنة واحدة، هزت عرش الإمام يحيى وعرّت هشاشة حكمه، وكان ذا مهابة كبيرة أمام الشعب حد القداسة عند الجهلة منهم، بسبب الجهل السائد آنذاك. وهذه الأحداث:

١ـ المعاهدة اليمنية البريطانية في ١١ فبراير ١٩٣٤م، والتي اعترف بموجبها الإمام يحيى ـ ضمنًا ـ بشرعية الاحتلال البريطاني للشطر الجنوبي من الوطن، وأكدت ما كان قد جرى بين الأتراك العثمانيين من جهة والبريطانيين من جهة ثانية قبل ذلك في مسألة ترسيم الحدود اليمنية بينهما. ويبقى معمولا بها لمدة أربعين سنة بين الجانبين. وقد أشَار البردوني إلى أنَّ الأئمَّةَ من بيت حميد الدين كانوا يعتبرونَ اليَمَنَ هو الجزء الشَّمالي الذي يقع تحتَ سَيطرتهم، وفي جزءٍ منه قاعدةُ نظريتهم السِّيَاسِيَّةِ فقط، قد نزلوا عند تسمية الاسْتعمار للجنوبِ بالجنوب العربي، بدون إشَارةٍ لليمن..! وكأنَّ الجنوب ليسَ من اليَمن؛ مع أنَّ مجردَ التفاوضِ مع البريطانيين على جزءٍ من الوطنِ هو اعترافٌ مباشرٌ وصريحٌ بالمحتل الغاصِب. وعلى أية حالٍ، فذلك لا يعنيه ما دامتْ عُشُورُ الزكواتِ والضرائب لن تصِلَا إليه.!

٢ـ الحرب السعودية اليمنية في ٢٢ مارس ١٩٣٤م والتي تفوقت فيها قوة الملك عبدالعزيز آل سعود على قوات الإمام يحيى.

٣ـ معاهدة الطائف في ٢٠ مايو ١٩٣٤م، وهي مرتبطة بحدث الحرب قبلها، ونصت على إنهاء الحرب بين البلدين الشقيقين، والتي بدا الملك عبدالعزيز فيها منتصرا، فيما الإمام يحيى قد كُسرت شوكته.

هذه الثلاثة المواقف التاريخية، في أربعة أشهر متلاحقة نكست رأس الإمام يحيى، ونالت منه، بسبب فشل سياسته، فأثارت الجدل في أوساط النخبة السياسية اليمنية، من بعض البيوتات المناوئة له، ومن المثقفين على قلتهم حينها، وإن كان هذا الجدلُ همسًا غير صاخب، خاصة مع البدايات المتهامسة

مع الحاج محمد المحلوي التي كانت قد سبقت هيئة النضال، وإن كانت فردية، أو «مقائلية» لم تتبلور في هيئة أو منظمة أو تيار.

ووفقًا لما ذكره الأستاذ نعمان في مذكراته: «هزيمة جيشِ الإمام أمامَ جيش السعودية أحدثت في اليمنِ ردةَ فعلٍ، أسقطت هيبةَ الإمام سُقوطا يساوي سقوط هيبة عبدالناصر في هزيمة عام ١٩٦٧م في الحربِ مع إسرائيل».[1]

هنا برز المثقفُ المستنير، أحد كتاب صحيفة الإيمان الناطقة باسم الإمام، ثم الرئيس الثاني لمجلة الحكمة اليمانية بعد وفاة الوريث، أحمد بن أحمد المطاع، منتقدًا الوضع، داعيًا إلى الإصلاح وتحديث الجهاز الإداري للدولة الهشّة، والتي لا يصح وصفها بالدولة أسَاسًا؛ لأنها لا تعدو أن تكونَ دولة فردٍ طاغية، منكفئ على نفسه، متوجسٍ من كل مَن حوله في الداخل والخارج.

في تلك الأجواء، من العام ١٩٣٤م تبلورت فكرةُ تأسيس هيئة النضال، كفكرة أولا، ثم أصبحت واقعًا ملموسًا بعد ذلك، وقبل أن نتكلم عن نشاطها، نتحدثُ أولا عن مؤسسها ورئيسها الأول، المناضل أحمد بن أحمد المطاع الذي يقول عنه المؤرخ الشماحي: كان أحمد المطاع ذا شخصية قوية، ماضي الإرادة، مرهف الإحساس، عنودًا متواضعًا مع إخوانه الجماهير، وفيًا بوعده وعهده، ولأصحابه واضحًا، لجوج المناظرة والعداوة، إذا آمن بشيء التزم به عملا ودعوة. عالم كونت معظم معلوماته المطالعة، متأثرًا بالمنفلوطي والكواكبي والشيخ محمد رشيد وشيخه محمد عبده. أديبًا، درس شعر المتنبي وشوقي وحافظ والرصافي وكتابَ عصره، وأسلوب الصحافة والنظم، وقرأ الكثير من مؤلفات زمنه حول الاقتصاد والاجتماع والفلسفة والثورات والتطورات، معجبًا بصراحة قاسم أمين وأمثاله من دعاة التطور، إعجاب تقدير، لا اتباع وتقليد؛ بل فحصٍ وغربلة، ويظهرُ هذا التفاعل في كتابته وشعره. وكان في الكتابة قويّ الأسلوب، قوي البيان. وكان إذا آمن بنظرية طبق عليها جل أعماله، ودعا إليها في حكمة وإصرار. وكان مخلصًا لليمن، وقف الشطر الأكبر من جهاده وجهوده وشعوره في سبيل ما كان يظنه أصح الوسائل وأنجعها، لتقدُّم اليمن

(1) ــ مذكرات أحمد محمد نعمان سيرته حياته الثقافية والسياسية، مراجعة وتحرير: د. علي محمد زيد، مكتبة مدبولي، 2003م 40.

وارتفاعه إلى مواكبة الأمم المعاصرة المتحضرة، معتقدًا أن هذا الطريق والوسائل ستظل مسدودة ما بقي على الحكم الإمام يحيى وأسرته، وما بقيت الإمامة الزيدية..».[1]

طواف اليمن على البغلة

قام المطاع بجولة استطلاعية على البغلة إلى حجة وزبيد وتعز والمخا وجبال الحجرية، ثم إب وذمار، وفي كل منطقة من هذه المناطق يعرض فكرته على أبرز رجالاتها ويحاورهم، ثم عاد إلى صنعاء.

وذكر علي محمد عبده في كتابه لمحات من تاريخ حركة الأحرار أن المطاع التقى ببعض الشخصيات في تعز، وأنه زار المدرسة والنادي في الحجرية، وأعجب بالنشاط القائم فيهما، وتبادل النقاش والحوار مع كل من التقى بهم، فوجدهم جميعًا يشكون من ظلم أمير اللواء علي الوزير وقسوة أحكامه وجور الضرائب التي فرضها على المواطنين وكراهيته للتعليم، وإذا بالمطاع يشكو لهم بدوره ما يعانونه من التزمت المفروض عليهم في صنعاء.. إلخ[2]

كما ذكر أن الأمير علي الوزير استطاع أن يقنع الإمام يحيى بإغلاق المدرسة والنادي، وأن الأمير القاسم بن الإمام يحيى قد كتب لوالده يقول له أنه رأى في الحجرية شيئا قد يكونُ له عواقب سيئة إذا تُرك، وربما أن الحجرية تنفصل وتعمل دولة لنفسها، فأرسل الإمام يحيى مدرسا من ذمار إلى التربة يُدعى علي مجلي، فألغى التعليم الحديث، وأخذ يعلم على الطريقة القديمة، فهرب أكثر الطلبة إلى عدن.[3]

---

(1) ــ اليمن الأرض والإنسان، الشماحي، 196. وللمطاع كتاب ألفه عن الإمامة فُقد بعد أحداث ثورة 48م، فضح فيه زيف الإمامة وكهنوتها.

(2) ــ انظر: لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، علي محمد عبده، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية ومنتدى النعمان الثقافي للشباب، ط:1، يناير، 2002م، 124. وأيضا: اليمن تحت حكم الإمام أحمد، 1948 ــ 1962م، د. أحمد عبيد بن دغر، مكتبة مدبولي، 2005م، 214.

(3) ــ نفسه، 126.

في ١٩٣٥م، وبعد تلك الجولة التي قام بها تأسست هيئة النضال، في صنعاء، كأول جماعة إصلاحية سياسية معارضة للكهنوت الإمامي في القرن العشرين، بأدوات محدودة جدا، في بيئة فقيرة، وبالسِّر أيضا، وكانت تطمح أن يكون لها فروع في بعض المدن الأخرى. وكان من أعضائها: عبدالسلام صبرة، ومحمد المحلوي والعزي صالح السنيدار وعلي محمد السنيدار وعبدالله العزب وعبدالله الشماحي وعلي الشماحي ومحمد بن أحمد المطاع ومحي الدين العنسي وأحمد قاسم العنسي محمد عكارس ومحمد بن حسين عبدالقادر. وكتب هؤلاء نظام الهيئة الداخلي من ثمان نقاط.

وعملت الهيئة ــ التي كانت خليطا من الشيوخ والفقهاء والتجار والمتنورين، حسب البردوني[1] ــ بكل سرية، واستطاعت اختراق جهاز الإمام، حتى بدأ خبرها يتسرب إليه عن طريق رئيس وزرائه القاضي عبدالله العمري الذي استطاع إقناع الإمام بأن ثمة جماعة على رأسها المطاع والعزب مرتبطة بالاحتلال الإيطالي بالحبشة، ويسعون للانقضاض على حكمه، فأمر الإمام باعتقال هذين الشابين مع بعض زملائهم في الهيئة، في العام ١٩٣٦م وبعد اعتقالهم أشاع الإمامُ وأعوانُه أن هؤلاء يحاربون الدين، ويريدون إدخال النصارى إلى البلاد، وأنهم يحاولون أن يختصروا القرآن الكريم إلى ستة أجزاء..![2]

وقد كانت هيئة النضال أول عمل سياسي معارض ومنظم في إطار سياسي، في مشروع واضح المعالم له أهدافه وآلياته وبرامجه؛ فمثّلت البذرة الأولى للنضال؛ منطلقة من ثقافة العشرينيات التجديدية، تبعتها حركات وتنظيمات جديدة متلاحقة بعدها، ذات طابعٍ حركي جماعي، خلافا للمعارضات السياسية التي كانت قبل ذلك، متمثلة في النشاط

(1) ــ انظر: الثقافة والثورة في اليمن، عبدالله البردوني، د. د، 25.

(2) ــ انظر: اليمن الأرض والإنسان، عبدالله الشماحي، 196 فما بعدها. وأيضا: الثقافة والثورة في اليمن، البردوني، 114، والذي أضاف إلى الاثنين أيضا على الشماحي. كما ذكر الأستاذ أحمد محمد نعمان في مذكراته أن الاعتقال كان في العام 1934م، واصفًا إياه بأنه أول اعتقال سياسي، 130.

الفـردي لهـذا البيـت الإمامـي أو ذاك، أو حتـى للقبيلـة. وكل ذلـك بفضـل الثقافـة الوافـدة التـي كانـت قـد تسربـت إلى عقـول هـذه النخبـة، سـواء مـن ثقافـة القاهـرة التجديديـة، أم مـن عـدن، متجـاوزة الثقافـة التقليديـة السـائدة ذا المرجعيـة الدينيـة. لامسـت هـذه الثقافـة طموحًـا شـبابيا كبـيرًا، مصحوبًـا بهمّـةٍ عاليـة، كهمّـةِ المطـاع الـذي طـاف أغلـب مناطـقِ اليمـن الشـمالي حينهـا عـلى بغلـة، عـلى مـا في السّـفر مـن مشـقةٍ ومخاطـرة آنـذاك.

أهداف ونشاط الهيئة

بعـد طـواف المطـاع في كثـير مـن مناطـق اليمـن، عـاد وبـدأ يضـع لـه مخططـا، أو مـا يشـبه البرنامـج، ويتمثـل هـذا البرنامـج الـذي خلـط بين الأهـداف والآليـات في:

١ـ صنعاء المركز الرئيسي للهيئة.

٢ـ إقامـة فـروع للهيئـة في أنحـاء اليمـن مـن رجـال يُعتمـد عليهـم.

٣ـ تكوين مالية للهيئة، تودع عند الخادم غالب والعزي صالح السنيدار.

٤ـ في سـبيل جمـع المـال يجـوز للرئيـس المطـاع وأعضـاء الهيئـة وفروعهـا الاتصـال بأربـاب المـال، مـن أمـراء وتجـار وغيرهـم، لاسـتغلال ثرائهـم باسـم الإصـلاح، دون أن يكشـفَ لهـم حقيقـة الهيئـة.

٥ـ محاولـة تـسرب أعضـاء المنظمـة إلى جهـاز الحكـم، وإلى قمتـه إن أمكـن، لضربـه مـن داخلـه، وإثـارة بعضهـم عـلى بعـض، وكشـف الأسرار، ودرء الأخطـار عـن المنظمـة، وتنفيـذ مـا أمكـن مـن قراراتهـا.

٦ـ إحبـاط مخطـط الاتجـاه المعاكـس، الداعـي إلى إصـلاح الجهـاز الحاكـم، وإحيـاء الدعـوة الزيديـة والإمامـة الـذي أبـدى الإمـام تجاوبـه مـع هـذا المخطـط.

٧ـ الاتصـال بالصحافـة الخارجيـة والشـخصيات العربيـة، لنقـد سياسـة الإمام يحيـى والأوضـاع باليمن.

٨ــ توعية الجماهير القبلية، سيما في الشمال، وهذه المهمة هي عقدة العقد؛ إذ عليها في اليمن يتوقف النجاح والفشل.[1]

ويذكرُ الأستاذ نعمان في مذكراته أنَّ حركة الأحرارِ في اليمن قد بدأت تقليدًا للحركات في البلاد العربية، «حينما كنا نرى أن البلادَ العربية ديموقراطية، فيها برلمانٌ وصحافة وأحزاب. وكانت اليمنُ لا تزالُ محكومة برأي الإمام. ليس هناك أحدٌ له حق التصرف أو أن يبدي الرأي إلا الإمام وحده، فبدأت حركة الأحرارِ على هذا النحو. ونشأت، وكان من رُوادها: محمد المحلوي والسيد أحمد المطاع، وعبدالله العزب، والعزي صالح السنيدار من أبناء صنعاء، وكان هؤلاء على اتصال بي وأنا في الحجرية. وكان عندنا مدرسة ونادٍ يستقدمُ الصُّحفَ من الخارج، وقد كان هذا شيئا غريبا في اليمن، ونادٍ للمحاضرات، ومكتبة للمطالعة».[2]

وكان المُطاع ممن تم إعدامهم بعد ثورة ١٩٤٨م، وحين نُودي به إلى ساحة الإعدام خرج من المعتقل مكتوفَ اليدين، مكبّلَ الساقين، فوجد الأمير مطهر بن يحيى، والأمير محمد بن أحمد بن يحيى في انتظاره، فبصقَ في وجههما، وقال: لا تزالُ هذه الشجرة الخبيثة تلاحقني حتى هذه اللحظات المقدسة؟!![3]

(1) ــ التاريخ العام لليمن، 113/3.

(2) ــ مذكرات الأستاذ نعمان، 129.

(3) ــ ثورة اليمن الدستورية، المشير عبدالله السلال، المقدم حسين عنبة، العميد حسين الدفعي، المقدم مجاهد حسن غالب، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط: 1، 1985م، 144.

5ـ مجلة الحكمة اليمانية

خلالَ النصفِ الأول من القرنِ العشرين ظهرت المجلاتُ والصحفُ العامة والمتخصصة بصورةٍ ملحوظةٍ في كثيرٍ من الدول العربية، مثل: مصر وسوريا ولبنان والعراق وبلاد المغرب العربي، وشكلت هذه الصحف والمجلات رافدًا كبيرًا من روافدِ المعرفة والثقافة؛ لاسيما وقد كان القائمون عليها من العلماء والأدباء والمثقفين الكبار.

في اليمن ظهرت الصّحافة لأول مرةٍ أيامَ الأتراك العثمانيين الذين أدخلوا معهم مطبعة حديثة؛ عرفت بمطبعة الولاية؛ حيث صدرت صحيفة «اليمن» لأول مرة سنة ١٨٧٢م، باللغة التركية، على غرار الصحف التي كانوا يصدرونها في الأقطار التي تقع تحت حكمهم آنذاك. بعدها بست سنوات، أي في العام ١٨٧٨م صدرت صحيفة صنعاء، الأسبوعية، بتوجيه من الباب العالي، والتي استمرت في الانتظام حتى العام ١٨٨٢م، من أربع صفحات باللغتين: العربية والتركية.

بعد رحيل الأتراك العثمانيين عن اليمن، عقب هزيمتهم ضمن دول المحور في الحرب العالمية الأولى، تولى الإمامة يحيى حميدالدين، المعروف بشدة سياسته المنغلقة، والمناوئ لكل المظاهرِ العصرية والحداثية، وللتعليم والثقافة، ولكل ما من شأنه التنوير أو التثقيف، فقد «كان الإمامُ ينظرُ إلى التعليم نظرةً مريبة، لأنه كان يؤمن بأنّ الشعبَ الجاهلَ أسهلُ قيادًا من الشّعب المتعلم؛ لذلك فرض سياسة تجهيل الشّعب، وإذا كان هناك نوع من التعليم فقد كان في مستوى منخفض جدا، ولا يشمل إلا جزءًا محدودًا من السكان، ولم تكن المناهجُ موحدة، فلكل مدرسة تنظيمها الخاص، على قدر إمكانياتها المحدودة».[1] والواقع أنها سياسة الإمامة كلها بشكل عام، سواء قبل الإمام يحيى أو بعده.

(1) ــ انظر: علوي عبدالله طاهر، واقع التعليم في اليمن قبل ثورة 26 سبتمبر 1962م/ مجلة الإكليل العدد 1، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، 1987م، ص: 6.

رحل الأتراك العثمانيون، وتركوا وراءهم مطبعة، ورثها عنهم الإمام يحيى، كانت هي المطبعة الوحيدة في اليمن، وتعمل تحت إشرافه هو شخصيًا، فكان يطبع بها مستنداته الرسمية الخاصة،[1] وما تسمى صحيفة «الإيمان» الشهرية، الخاصة به، والتي تُعتبر الصحيفة الرسمية للدولة، التي أسسها عام ١٩٢٦م، وعين عليها الإمامُ رئيسَ الديوان الملكي عبدالكريم مطهر، بداية صدورها، وألزم كل موظف في الدولة الاشتراك فيها بمقابل مادي، يتم استقطاعه من راتبه، فيستعيد الإمام يحيى تكاليفَ طباعتها وتشغيلها. «ويؤكد هذا نص البرقية.. المرسلة من الإمام إلى عامل الحدا، يحثه فيها على جمع اشتراكات جريدة الإيمان، بمناسبة انتهاء الاشتراك السنوي، وإرسال قائمة بمن يرغب الاشتراك في الجريدة؛ بل ويأمر بإلزام كل من يبلغ مرتبه الشهري عشرين ريالا أن يشترك في الجريدة، ويلاحظ أن تاريخ هذه البرقية يسبق صدور الحكمة بعام واحد فقط».[2]

وكانت تقتصر على أخبار الإمام وحركة عماله وبعض الأخبار العامة، كهطول الأمطار على بعض المناطق أو وصول زائر إلى مقام الإمام.

ونظرًا لرتابة صحيفة «الإيمان» وعدم احتوائها على مضمونٍ مفيد، ونظرًا لطول فترة صدور كل عدد منها، فقد فكرت نخبة صنعاء الثقافية آنذاك بإصدار مجلة ذات طابع ثقافي وحداثي معاصر، تحاكي مجلات القاهرة أو بيروت أو بغداد، ولو جزئيًا. فكانت مجلة «الحكمة اليمانية»، واشتهرت بالاسم الأول: «الحكمة».

---

(1) ــ انظر: مجلة الحكمة اليمانية وحركة الإصلاح في اليمن، 1938 ــ 1941م، دراسة ومقالات، د. سيد مصطفى سالم، علي أحمد أبو الرجال، مركز البحوث والدراسات اليمني، ط:2، 1988م، ص: 20.

(2) ــ نفسه، 20. ونص البرقية كما أوردها الدكتور سيد مصطفى سالم بألفاظها، وعلى غموض بعض كلماتها: «من الإمام إلى عامل الحدا، حرسه الله، منتهى السنة لاشتراك جريدة الإيمان إلى غايته جماد الآخر 56 هـ، فنأمركم بإرسال البدلات «الاشتراكات» مع قطفة «قائمة» أسماء المشتركين للسنة الجديدة، لإرسال النسخ، وليكن الأخبار بالمتوفين والغائبين عند حصوله بوقته، ليس عند تمام السنة، وطلب البدل، فيحصل ضياع الجرايد وتراكم البدلات فاعتمدوا هذا، الله الله، وكل مأمور يبلغ معاشه عشرين ريالا يلزم اشتراكه في جريدة الإيمان، وقطع بدلها من معاشه، والسلام عليكم، بتاريخه، 11 جماد الآخرة، 1356هـ.

وما تجدرُ الإشارة إليه هنا هو أن العقلية التي تنشأ عليها يحيى حميدالدين صغيرا فشابا، قد صحبته إلى الشيخوخة، وقد صار إمامًا، حيث عمل في بداية حياته مع والده جابيًا للضرائب لدى الأتراك، وحين وصل إلى الحكم مارسَه بعقلية جابي الضرائب الذي يعرف الأخذ، ولا يعرف العطاء.

كانت مجلة «الحكمة» (مجلة علمية جامعة شهرية) وهي لازمة كل الصحف والمجلات الصادرة خلال العشرين كاملا، إذ كانت الصحف والمجلات تصف نفسها هكذا، حتى المجلات المدرسية كانت تصف نفسها هكذا..! مع زيادة صفة أو نقصانها. وقد صدر العددُ الأول من منها في ديسمبر ١٩٣٨م، وصدر العدد الأخير في فبراير/ مارس ١٩٤١م. أي أنها أصدرت خلال هذه الفترة ٢٨ عددًا.[1]

ويربط المؤرخ الشماحي بين جماعة هيئة النضال ومجلة الحكمة بالقول: «ارتفع اسم السيد أحمد الوريث فلم يتركه الإمام يحيى بذمار، فاستقدمه إلى صنعاء، ليشرف على المعارف، بالتعاون مع وزير المعارف سيف الإسلام عبدالله، وكان المطاع مستشارًا للمعارف والصحافة، وبالتقاء الوريث والمطاع في جهاز وزارة المعارف تمكنا من الاجتماع وتبادل الأفكار فيما يتطلبه الموقف من إصلاح، وانتهيا إلى أن خير طريق هو التوعية الهادئة الهادفة، فاتفقا على إصدار مجلة ثقافية أدبية تاريخية. وبعد مساعٍ وافق سيف الإسلام عبدالله، وتعين الوريث رئيسًا لتحرير المجلة، وبذل هو ومجموعة من الشباب جهودًا من التنوير والتوعية، أكسب المجلة مقاما كان له أثره في المجتمع اليمني، سيما بين الشباب..».[2] ويعزز هذا ما ذكره الكاتب حميد شحرة في كتابه مصرع الابتسامة بالقول: «وكان الوجه الثقافي والتنويري لهذه الجماعة مجسدا في مجلة الحكمة يمانية» ١٩٣٨ ــ ١٩٤١م».[3]

كانت المجلة عمليا برئاسة السيف عبدالله، نجل الإمام يحيى، ووزير المعارف يومها، وشكليا برئاسة أحمد عبدالوهاب الوريث الذي يسِمُ نفسه بذلك؛ بل لقد أشار في أول مقاله في العدد الأول بالقول: «وقد اقترح حضرة الرئيس حفظه الله» يقصد السيف عبدالله، كما ذكر الدكتور سيد مصطفى

(1) ــ كانت تحتوي 32 صفحة من القطع الصغير.

(2) ــ اليمن الأرض والإنسان، الشماحي، 206.

(3) ــ مصرع الابتسامة سقوط مشروع الدولة الإسلامية في اليمن، 1938 ــ 1948م، حميد أحمد شحرة، المركز اليمني للدراسات الاستراتيجية، ط:1، 1998م، 27.

سالم.[1] وهذا لأن الإمام يحيى لم يوافق على صدور المجلة إلا بعد تردد كبير، وممانعة طويلة، وبعد تدخل ابنه السيف عبدالله الذي عهد إليه بها.

وتناولت المجلة خلال مسيرتها القصيرة عدة مقالات في عدة اتجاهات؛ لأنها بحكم طبيعتها «علمية ـ جامعة» وربما لكونها الوحيدة فقد اضطرت أن تكون كذلك، مع مراعاة طبيعة المرحلة والظروف المحيطة بها آنذاك.

وما يهمنا هنا الإشارة إلى سلسلة المقالات المهمة لرئيسها أحمد عبدالوهاب الوريث بعنوان «الإصلاح» حيث نشر تسع حلقات في حياته تحت هذا العنوان، ونشرت له الحلقة العاشرة بعد وفاته، حيث وجدت بين أوراقه الأخيرة، إذ تبنى صديقه وزميله في العمل أحمد المطاع مواصلة الدور؛ بل لقد واصل مقالاته هو بنفس الاسم، في ثمان حلقات أخرى، وبالتالي يكون قد بلغ عدد هذه السلسلة ثماني عشرة مقالة. وأيضا التوقف عند بعض المقالات الأخرى التي تأتي في سياق التنوير والتثقيف.

على أية حال.. أراد السيف عبدالله تقليد الآخرين ومجاراتهم ــ وخاصة مصر ــ بمجلة تصدرُ من بلده، المتهم بالانغلاق والجمود والتخلف، فاستطاع إقناع والده على مضض بذلك، رغم تحسس الإمام يحيى من خطر مشروع كهذا، واعتباره مظهرا من مظاهر «العصرنة» التي تخالف الإسلام..!! ولولا محاولة السيف عبدالله إقناع والده بذلك لما استطاع أحد إقناعه، وربما الاقتراب منه لطرح الفكرة من أساسها؛ لاسيما وهو أثيرُ والده وأقربهم إلى نفسه يومها، إضافة لكونه وزير المعارف، والذي تسنى له زيارة أكثر من دولة، ومعرفة طبيعة الحياة فيها، فأذِن له والده الذي لم ينس أن يوصيه بألا يترك الحبل على الغارب، وأن تكون المجلة تحت إشرافه المباشر. وربما أراد السيف عبدالله من هذا العمل تحقيق امتياز شخصي له، فسعى لإقناع والده أولا، ثم للاقتراب من النخبة الثقافية ودعمهم وتشجيعهم، فليس ببعيد أن يكون له طموح سياسي، يخفيه أمام أبيه، وأمام أخيه أحمد الذي كان قد ابتدأ بتقريب

(1) ــ مجلة الحكمة، سابق، 32.

بعض المثقفين منه أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات، فأراد أن يبتدئ بناء المجد السياسي من الطبقة المثقفة، لأن موالاة المثقفين لأي نظام ضمان لديمومته؛ لاسيما والسيف عبدالله يمتاز بقدر معقول من الانفتاح والعصرية والتعاطي مع الآخرين، فليس فيه همجية أحمد، ولا بخل الحسن، ولا عبثية إبراهيم أو إسماعيل، ولا انطوائية الحسين.

من ناحية ثانية أراد الوريث ورفاقه من المثقفين المستنيرين فتح نافذة للتنوير وكوة للضوء تحت أي مسمى، وبأي ثمن، وكانت كذلك بحق، وقد طرقت مواضيع مهمة، وشكلت مدرسة صحفية وثقافية تنويرية جادة، ظلت مُلهمة لمن بعدهم من الجيل الثاني للثوار، وخلال هذه الفترة القصيرة تمت الكتابة فيها إلى جانب الأدب والأخلاق والشعر أيضا عن الزراعة والاقتصاد والإدارة والصحة؛ بل والرياضة، وتحديثها بما يلائم المرحلة، ناهيك عن سلسلة مقالات «الإصلاح»، سواء للوريث أو للمطاع من بعده، وما الإصلاح من وجهة نظر الإمام إلا التخريب والتمرد والخروج على الطغيان والكهانة والاستعباد.

ولقد تبنى اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين «الموحّد» في السبعينيات تسمية مجلته الصّادر عنه من عدن بهذا الاسم «الحكمة»، تقديرًا لهذا الاسم، وللدور النضالي العريق للمجلة ورجالاتها. وتم اعتبار الحكمة الجديدة امتدادًا للحكمة القديمة،[1]

كل يغني على ليلاه!

علل البعضُ موافقةَ الإمام يحيى على تأسيسِ المجلة على الرغم من عدم ارتياحه لها، وذلك لجمع كوكبة المثقفين «العصريين»، ولمعرفة ما يدور في رؤوسهم من خلالها، وأيضا لتقريب الخطيب المصقع والمثقف المستنير أحمد

(1) – انظر: مجلة الحكمة، سابق، 23.

عبدالوهاب الوريث من المقام الإمامي، واستقدامه من مدينة ذمار، للعمل في وزارة المعارف لتقييد حركته ومعرفته عن قرب، كما أرد السيف عبدالله من ناحيته أيضا الاتصال أكثر بأدباء ومثقفي صنعاء ونخبتها المؤثرة، كما استأثر أخوه أحمد بالاتصال بمثقفي وأدباء تعز من خلال عمله هناك نائبا للإمام في لواء تعز، وأيضا الظهور بمظهر التقدم والعصرية التي كان يسعى إليها، في الوقت الذي يريد المثقفون والأدباء هؤلاء تأسيس مشروع ثقافي، وفتح نافذة للضوء وللمعرفة، كما أسلفنا، وكل الثلاثة الأهداف على تشعباتها في نهايتها خدمت القضية الوطنية، وفتحت نافذة طريقا جديدا للاستنارة والتثقيف، وقد غنى كل منهم على ليلاه..!

المؤثرات الثقافية للمجلة وطاقمها

يعرف الجميع طبيعة الحالة التي كان يعيشها الشعب في تلك الفترة، والجمود والتخلف الذي كان يلف الحياة العامة، كسياسة مُمنهجة من قبل الإمام، ومع هذا فقد كان للكتب التي تصل إلى اليمن منذ مطلع القرن العشرين فبما بعد دورٌ كبيرٌ في التثقيف والتنوير، مثل كتب طه حسين والعقاد وخالد محمد خالد[1] وأحمد أمين والرافعي والمنفلوطي، وكتاب الكواكبي "طبائع الاستبداد"، وأيضًا الدوريات العامة كمجلة المنار التي كان يرأسُها الشيخ محمد عبده، ومن بعده تلميذه رشيد رضا، ثم مجلة الرسَالة التي رأَسَها

(1) ــ كانت كتب خالد محمد خالد من أكثر الكتب انتشارًا بين مثقفي صنعاء منذ الأربعينيات فما بعدها، ويذكر محمد علي الأكوع أنه قد كتب عن الإمام: «كل شيء حق الإمام، حتى المسجد والحمار والضابط». وكان الأكوع ممن قرأها، وبقيت في ذاكرته، وذات يوم أساء إليه طبيب أسنان هولندي، فعلم الإمام بذلك، فقال الإمام للأكوع: «للمه تخليه يقفل الباب في وجهك، وأنت حقي الضابط، وشرفك من شرفي؟ فقلت بصوت خافت: صدق خالد محمد خالد؛ لكنه سمعني، وقال: خالد في عينك، ما ضرك إلا هذه الكتب النجسة يا خبيث، ولطمني حتى أطار طربوشي أمتارا». انظر: أحداث ثورة 55م، العميد محمد علي الأكوع، منتدى النعمان والزبيري للفكر والتوثيق، ط:1، 2004م، ص: 31. وكان الأئمة فعلا يعتقدون أن كل شيء في البلاد هو ملكهم هم دون الناس، حتى لو كان ملكا شخصيا للناس، فإنه من جملة أملاكهم، وإلى هذا أشار أبو الأحرار الزبيري، على لسان الأئمة شعرًا، قائلا: وما الأرض إلا لنا وحدنا ولكنهم زاحمونا بها.

أحمد حسن الزيات، وكلتاهما مصريتان، ومجلة الحكمة اللبنانية، إلى جانب بعض المطبوعات التي تصل اليمن من خلال رحلات الحجيج السنوية من الحجاز، وأيضا عودة البعثة التعليمية الأولى من العراق التي تبناها السيف عبدالله. إضافة إلى ما كان يصل إلى مدن الشمال كتعز وإب وذمار وصنعاء والحديدة من الكتاب والمطبوعات العدنية، وعدن واحدة من حواضر الشرق الأوسط خلال النصف الأول من القرن العشرين، كل هذه وغيرها شكلت رافدًا ثقافيًا وتنويريًا عصريًا، صبغ ثقافة صنعاء بصبغة جديدة، وإن في حدها الأدنى، وكسر طبيعة الجمود السائدة آنذاك.

كانت ثقافة المجلة خليطا من هذا كله. وهو ما ينعكس واضحًا في كلمة الوريث نفسه في العدد الأول من المجلة، وفي مقالته الافتتاحية التي دعا فيها إلى مبدأ الإصلاح الديني وتحقيق العدالة، فقال: «ذلك المبدأ الذي قوامه الإصلاح الديني والإهابة بالمسلمين إلى أسباب سعادتهم، وعوامل نهوضهم ومجدهم، ودعوتهم إلى جمع الكلمة ولمّ الشعث، ورأب الصدع وتنظيم الصفوف، وتحذيرهم من التمادي في خوض بحار التأخر، وألا يُغال في بيداء الخمول والاستسلام والقبوع في زوايا الكسل والبطالة والنوم على بساط الذلة والمهانة، والرضا بالعيش الخانع والحياة المرذولة، وحفزهم إلى تحطيم قيود الجهل، وتمزيق غشاوة الضلال وتبديد حُجب الظلام...»[1] إلخ.

وعن الوريث وثقافته ومكانته يقول أحمد محمد الشامي: «إن أحمد الوريث ما وصل صنعاء إلا بعد أن وصلتها شهرته، وشغلت المقامات العليا، وكان قد اشتهر وذاع صيته في ذمار، وخطب على منابرها، معلنا الدعوة للإصلاح العلمي والتغيير الفكري والاجتهاد بصوت يشبه صوت الإمام محمد عبده والإمام المقبلي وشيخ الإسلام الشوكاني، وبنبرة مستمدة من إلهام جمال الدين الأفغاني وشكيب أرسلان، وذلك ما أقلق الحكام فاستدعوه إلى صنعاء وعينوه عضوًا في لجنة التأليف، ثم رئيسًا لتحرير مجلة «الحكمة اليمانية»، وظل

(1) ـ مجلة الحكمة، سابق، 48.

حتى مات في ميعة الشباب قبلة إكبار واحترام الجميع».[1]

كذلك الشأن أيضا بالنسبة للمطاع، فقد كان ضابطًا في الجيش، ثم خرج منه، ليتفرغ لحياة الأدب والشعر والفكر.[2]

وبشكل عام، فإن من العوامل التي سببت في يقظة الأفكار وتحطيم أغلال الجمود وفتحت الأذهان، وحركت الهمم نشر بعض الكتب لدعاة الإصلاح من رجالات اليمن، مثل محمد بن إبراهيم الوزير والمقبلي والشوكاني والأمير والجلال وغيرهم، وكان للسيد محمد زبارة يدٌ طولى في هذا الشأن، كما أن من أهم ما أثر في أبناء المدرسة الجديدة كتب الشيخ محمد عبده ورشيد رضا وشكيب أرسلان وفؤاد الخطيب ومصطفى صادق الرافعي وشوقي وحافظ والعقاد وأحمد أمين وجورجي زيدان وأمين الريحاني.[3]

ويضيف الدكتور أحمد قايد الصايدي، متحدثا عن ثقافة تلك المرحلة: والثقافة السائدة آنذاك كانت ثقافة دينية في الغالب، وكانت أكثر الأفكار الشائعة تقدمية هي أفكارُ المصلحين الإسلاميين، من أمثال الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي ورشيد رضا، وقد تمثلها مثقفو اليمن، وبدت بصماتها في كتاباتهم وأفكارهم ومواقفهم الإصلاحية.[4]

وعقب كل صدور عدد منها كانت أشبه ما تكون بهدية شهرية لدى مثقفي صنعاء الذين يعكفون على قراءتها أياما بصورة جماعية في دواوين القات، وفي مجالسهم الخاصة، ثم يناقشون مضامين هذه المقالات، ولعل أهم ما كان يتم مناقشته هو المقالة شبه الرسمية فيها بعنوان «الإصلاح» التي اتسمت بقليل من الجرأة المغلفة بالأدب المقامي، سواء للوريث أو للمطاع. فكانت هذه المقالات هي الشرارة الأولى والنبع الرئيس الذي تفجرت منه أحلام الجيل الشبابي المترقب والمتطلع للجديد، وأصبح مطلب الإصلاح جاريا على كل لسان يومها.

---

(1) ـ مجلة الحكمة اليمانية، سابق، 45.

(2) ـ مجلة الحكمة اليمانية، سابق، نقلا عن أحمد المروني، 46.

(3) ـ انظر: قصة الأدب في اليمن، أحمد محمد الشامي، 212.

(4) ـ انظر: حركة المعارضة اليمنية في عهد الإمام يحيى بن محمد حميدالدين، الدكتور أحمد قايد الصائدي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط:2، 2004م، 156.

كان هؤلاء المصلحون على قدرٍ عالٍ من النباهة والذكاء حين جعلوا من السيف عبدالله مظلتهم وواجهتهم أمام نزق أبيه؛ لاسيما والسيف عبدالله ـ دون بقية كل إخوانه ـ يتسم بصبغة حداثية تجديدية كما أسلفنا؛ وكان أيضا المنافس القوي للسيف أحمد، والأقرب إلى قلب أبيه إلى جانب عبدالله، كما أسلفنا، كما كان أقرب السيوف الأربعة عشر إلى المثقفين؛ ولهذا دفع حياته لاحقا في انقلاب ١٩٥٥م مع أخيه العباس، وإن كان هذا التجديد في إطار المذهب والبيتية الإمامية.

ولعل صدق الروح الإصلاحية لدى هؤلاء المثقفين هي التي جعلت لتلك المقالات العلمية ذلك الحضور الشعبي لدى القراء، وشكلت الخميرة الأولى للروح الثورية التي تدفقت فيما بعد، ومنها تواصل النضال بالنضال، وتلاقحت الفكرة بالفكرة حتى تفجرت حِمَمُ الغضب الثوري في فبراير ١٩٤٨م بالثورة الدستورية، فانقلاب ١٩٥٥م، وما تلاه من الحركات الأخرى التي تكللت جميعها بثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢م المجيد. فكانت مجلة الحكمة هي أولى منابع النضال الثقافي الذي انطلق تحت مسمى «الإصلاح» ثم تبلور في أدبيات الثوار رويدا رويدا، حتى وصلت إلى الإعلان الثوري الصارخ. ولقد أصبح كلٌ من: الوريث والمطاع وأحمد الحورش وعبدالله العزب وزيد عنان والقاضي عبدالواسع الواسعي ومحمد حسن الذاري فيما بعد رموزا في المدرسة الصحفية، كما كانوا ايضا رموزا في مدرسة النضال والمقاومة والثورية.

وقد توفي الوريث في ظروف غامضة، ثار حولها جدل كبير، وهو يرأس المجلة، أواخر العام ١٩٣٩م، فخلفه المطاع الذي لا يقل عنه حماسة وثقافة ونضالا، مواصلا ذات النهج والمسير.

وللبردوني قصيدة رثاء مطولة فيه، بعنوان: سباحة على ريشة البرق، نظمها في الذكرى الخمسين على وفاته، في ديوانه جواب العصور، ومنها:

ليس لي فوق ما أضأتَ زيادة ... كل غيب كاشفتَ أضحى شهادة
وتراءى الذي رأيت، لماذا؟ ... ما سها الموت أو أجاب الوسادة

ألهذا يجيء كـــــــــــــل أوانٍ فاجئا، وهو كالتحيـــات عـــــادة
ولمـــــاذا لا تملـــــــــك الآن ردا يا وريث البيان يا ابن الإجـــــادة
يا الذي دارت الثـــــــــريا دواة في يـــديه وألهمتـــه النضـــــادة
يا العشيق الذي رأى مهد عـــــــادٍ غـــادةً في قميصهـــا كل غـــادة
هل أقص الذي جرى أنـــت أدرى فليكن، ولْأقل حكـــايـــا معـــادة
بعدما غصتَ في حشا الأرض أمست بالربيـــع الذي بذرتَ جـــواده
لو تأنيت شمت[1] ما خلت يجـــري مودِعًـــا سيـــد الأوان السيـــادة
كنتَ في مقلتي "شباط" اشتيـــــاقًا في محيّـــا "آذار" ومض انتـــقاده[2]
شمسُ أيلولَ[3] كنتَ نبضَ سناهـــا والكتـــــابَ الذي يقودُ القيـــادَة

****

ثورةٌ تلـو ثورةً بعـــــد أخـــرى والمُرجـى يلـم شـــعثَ الإرادة
كنـــــت في هذه وتيـــك وتلـــك شوقَ آتٍ وخـيرَ مـــا في المُبـــادة

****

هكـذا دمـــتَ حـــاضرًا من غيابٍ يا غيـــابًا لـــه حضـــورُ الفـــرادة
يا حُـسامًا من السُّـيوف اللـــواتي لُحْنَ برقًا من قبـــل بدء الحـــدادة
يا أخا ذو الفقار جـــرّبت حـــــربًا قبل أن تَعْـــرُكَ اليـــد المُستجـــادة
يا قريبًـــا نأى وحـــال طيـــــوفًا حلـــن في جيـــد كل زاهٍ قـــلادة

*** *** ***

إيه يا أحمـــد الوريـــث أتحـــــكي كيـف صافى الجموحُ فيك الزَّهـادَة؟
كنتَ تدعو إلى القنـــوت وتغـــري باقتحام الـــردى وحرقَ الهـــوادَة
وترى الخانعـــين بعـــضَ قبـــورٍ نصف يقظى، والصمت حزم البلادَة

---

(1) ــ شِمتَ: نظرتَ من بعيد، والفعل الماضي منه، شام، وشمتُ، وفي اللهجات المحلية من المناطق الوسطى تعرض اللفظ للتحوير، فصار هكذا: «شمهك، و «شمهكه». وقد وردت اللفظة في شعر عنترة بن شداد، وابن حمديس الصقلي، وغيرهما.

(2) ــ شباط/ فبراير، إشارة إلى الثورة الدستورية عام 1948م، وآذار/ مارس إشارة إلى انقلاب 1955م بقيادة الثلاثيا على الإمام أحمد.

(3) ــ إشارة إلى 26 سبتمبر المجيد عام 1962م.

وعلى القـاعدين تنصـبُّ لـومـًا وعلى الصـاعدين تضـفي الإشـادَة
منشـداً «حـيَّ في الربـوع شبـابًا سُبَّقـًا للعـلا عن الحـق ذادَة»
بيـدٍ تـدفع «الإمـامَ» أمـامًا وبأخـرى تريـه عـام الرَّمـادَة
ساءلنـهُ: أيسـكن الشـحُّ دارًا؟ قيل عنهـا دار ابن شيـخ الرفـادَة؟

***

يا أبـا الحكمـة البتـول، بقلـبي نفثة ليـس لي عليهـا جـلادة
أتـراني في جانـح البرق أسـري ريشـة من هـواك ذات اتقـادة
وعلى جمـرتي ترى وجـه صنعـاء كي تـؤدي زيـارة أو عيـادة
خـذ حريقـي فكـل ما في بـلادي من بـلادي حتـى الأسى والنكادة
إنهـا ما تـزال كالأمـس تغـدو شبـه صيّـادة وتمسي مُصـادة

***

خلـت يحيـى عـلى العصافير صقرا فتـلاه من صـيروه جـرادة
لو ترى اليوم دُورهـم صحتَ فـورًا عم مسـاءً يـا فقـر دار السعـادة

الحس الوطني والأدب الثوري في مجلة الحكمة

يذكر الدكتور سيد مصطفى سالم أنَّ الاهتمامَ بالوطنِ والوطنية كان الاتجاه السائد والمسيطر على المجلة، إلى الحد الذي يمكن أن نقول معه أن المجلة بكليتها كانت لسان حال الشعور الوطني النامي في اليمن حينذاك، والمعبرة عن الروح الوطنية التي بدأت تنبثق على يد المتعلمين والمثقفين «الانتلجنسيا» والتي بدأت تتضح على يد أبناء الطبقة المتوسطة.[1]

مضيفا: وقد بدأت «الحكمة» تتحدث عن الوطن والوطنية صراحة منذ عددها الأول، فقد نشرت مقالا بعنوان: الوطن وواجبات المرء نحوه، وهو بدون توقيع، أي أنه من قبل هيئة التحرير، وإن كنا نرجح أنه بقلم أحمد

(1) ـ مجلة الحكمة، 93.

عبدالوهاب الوريث، لأنه يتسم بأسلوبه وروحه. وتضمن المقال التعريف بالوطن وحقوقه على أبنائه وواجبات المواطنين نحوه، وجاءت عباراته تحمل الروح الخطابية المثالية..[1]

وكان محي الدين العنسي أحد محرري المجلة وكُتابها، والعنسي أحد العائدين من بعثة العراق الذين تشربوا قدرًا معرفيا معقولا من الثقافة الجديدة، خاصة وقد جمع بين الروح العسكرية والثقافة الحقوقية، من خلال دراسته للحقوق هناك إلى جانب الدراسة العسكرية؛ ناهيك عن سعة اطلاعه وثقافته التي عمقت من فكره وثقافته، فكتب عن الأدب والشعر، متسائلا: لماذا لا يكون لنا أدب كأدب مصر والعراق؟ ولما ذا ليس لنا أدباء كبار كما هو الحال في العراق والشام ومصر؟!

وهو ذات الاتجاه والمنحى الذي نحاه المطاع وهو يستثير الحس الوطني في إحدى مقالاته، قائلا: ومن التواريخ التي أصبحت اليوم تُدرس في جامعات الغرب كفنٍ مستقل تاريخ اليمن القديم وما به من النقوش والآثار والعاديات، وما خلفه آباء اليمنيين من آداب وثقافة صقلت العقل الإنساني وازدانت بها حضارة البشر في أيامهم.

إن هذه الإشارة من قبل المطاع في مقالته هي استثارة للحس الوطني الكامن لدى كل مواطن تقريبا، وذلك باستنهاض الهمم ومعرفة عظمة التاريخ اليمني المرتكز على تراث حضاري عريق، تعمدت الإمامة تغييبه، وإن لم يشر إلى ذلك الموقف الإمامي من التراث الحضاري، وهذه الصيحة مما لا ترضى به التوجهات الإمامية بكل تأكيد، لأنها ترتكز في دعواها على تعظيم من يسمونهم «آل البيت» وحدهم دون سواهم، لا إلى اليمنيين وتاريخهم العريق..! وهي المفردة التي لا زلنا بحاجة إليها إلى اليوم لإنعاش الذاكرة الحضارية والتخلص من ركامات الثقافة الإمامية المزورة التي رانت على عقول الكثير بحكم محدودية ثقافتهم وتعلُّمهم.

(1) ـ نفسه، 93.

وكما كان المطاع شجاعا في طرح أفكاره الإصلاحية المتقدمة بمقاييس تلك الفترة، فقد كان العلامة محمد بن حسن العماد الذاري أكثر جرأة في دعوته إلى الإصلاح الإداري الحديث القائم على أسس علمية صحيحة، مستشهدا باليابان وكيف تقدمت كثيرا بسبب اهتمامها بالعلم، وكما ذكر البردوني فإن هذه المقالة قد أغضبت الإمام يحيى الذي قال لبعض من حضر مجلسه بعد أن قرأ المقالة: «القاضي محمد يشتينا نتشبه بالنصارى».!!

وعلى ذات المنوال نظم القاضي محمد بن أحمد السياغي قصيدة تدعو للعلم والتعلم، نشرت في المجلة، يقول فيها:

من المدارس نور العلم ينفجـــر وبالمعارف يغني البدو والحضر
الله أكبر كم بالعلم قد نهضـــت من نومهـــا أمم قد خانها الخور
هي المـــدارس تهـــدي الناشئين بها لثروة العقل ثم النور ينتشـر
بني اليمانيين هلموا من مراقدكم إلى المدارس قد جاءتكم النـــذر

ودعم مقالة الذاري وقصيدة السياغي مقالة أخرى لأحمد البراق عن المعلم ودوره التجديدي كواجب ديني ووطني. وفي ذات الاتجاه أيضا كتب أحمد حسن الحورش ثماني حلقات بعنوان «علم التربية والتعليم» في دعوة صريحة لاستنهاض الهمم في هذا العلم والتعلم، والخروج من عباءة الجهل والتخلف.

الوطن والشعر

كان الشاعر إبراهيم الحضراني واحدا من هؤلاء الرواد الأوائل الذين وضعوا بذور النداء الوطني الأول بين قصائده، على الرغم من انتمائه العائلي، وعلى الرغم من مكانة أبيه لدى الإمام، إلا أنه اتخذ منحى وطنيا مخالفا لنهج أبيه، فعارض الإمام والإمامة من وقت مبكر، وكان من أصرح الناس في المواجهة، فقال في إحدى قصائده المنشورة في مجلة الحكمة، ومنها:

فاز من شب على ما ينفع الشعب وشابا
أيها القائم بالأمر الذي يرضي الكتاب
دم لليل الجهل في الأمة بدرا لن يغابا
لا تظن السعي والإخلاص لا يفتح بابا
سوف تجني من ثمار الجد ما لذا وطابا
إنما الماجد من لم يأل للمجد طلابا
قل ولا تخش فما فاز امرؤ دارى وحابا[1]

كما نشرت المجلة ايضا قصائد شعرية أخرى لشعراء عرب تغنوا بتاريخ اليمن وحضارته وجماله، كقصيدة الشاعر عبدالهادي الجواهري، ومنها:

صنعاء يا دار الحضارة والعلا ومقام كل خليفة ومليك
باريس دونك في الجمال ولندن وعواصم الرومان والأمريك
فجمال تلك مزخرف متكلف وجمالك المطبوع من باريك.

وفي قصيدة أخرى بعنوان: تحية العصر الجديد، نظم شاعر، استعار له اسم: «الشاعر المخلص» قصيدة قال في مطلعها:

معشر النشء إننا قد دخلنا عصر جد وذاك العصر بادا

وواضح أنها كنظيراتها تستثير همم الشباب، وتبعث فيهم روح العصر والتجديد.

وهكذا مضت المجلة في كافة أبوابها ومقالاتها تعزز من الروح الوطنية وتستجيش الهم الوطني لدى الجميع، وبها تشكلت النواة الأولى من المدرسة النضالية الخالدة تجاه الإمام والإمامة في القرن العشرين بمسؤولية حميمية وكفاءة عالية، فكانت الثقب في جدار المسيرة النضالية الذي شق الضوء وسار وإلى اليوم لا يزال يواصل مسيرته على ذات النهج.

(1) ـ نفسه، 96.

الوحدة اليمنية في مجلة الحكمة

إن من إحدى مفردات الوطنية والحس الوطني الذي كان الهدف الرئيس للمجلة هو العمل على تحقيق واستعادة الوحدة اليمنية بين شطري الوطن الواحد، فكتبت في ذلك مقالا مطولا دون أن يذيل باسم كاتب، لكن ذلك ـ على الأرجح ـ لن يعدو أن يكون بقلم رئيس التحرير كما هو معروف في العمل الصحفي غالبا، وقد أشارت المجلة إلى أهمية الوحدة بين شطري اليمن، وعرَّضت بسياسة بريطانيا في اليمن التي لا وفاء لها ولا عهد، ليس مع اليمن فحسب؛ بل مع العرب بشكل عام، واستشهدت المقالة بالاتفاقات التي تم الإخلال بها من قبل البريطانيين مع الشريف حسين ومع الفلسطينيين، وتأتي هذه الإشارات عقب المعاهدة التي وقعها الإمام يحيى مع الإنجليز عام ١٩٣٤م، ولاقت استياء كبيرا من بعض النخب السياسية، لأن توقيع الإمام على اتفاقية حدود مع بريطانيا بين شطري البلاد يعتبر من قبيل الاعتراف بالاحتلال البريطاني للشطر الجنوبي من الوطن، وأنها عززت الاتفاقية البريطانية العثمانية التي وقعها الطرفان عام ١٩١٤م.

وما تجدر الإشارة إليه هنا أن بريطانيا ـ وفي إطار سياستها المعروفة: فرق تسد ـ قد سعت لضم شبوة إلى حضرموت، متعدية اتفاقية المعاهدة بينها وبينها العثمانيين، وثار جدل واسع حينها، هل شبوة من حضرموت أم من اليمن؟ والمقصود باليمن هنا الشطر الشمالي من الوطن؛ فرد أحمد عبدالوهاب الوريث ردا حازما في إحدى مقالاته: «إن من الحق البين والسفة الواضح أن يسأل كاتب غيره أو يتساءل: أشبوة من اليمن؟ أم من حضرموت؟ وأن يظن أن اليمن شيء وحضرموت شيء آخر.! فالله جعل لليمن حدودا طبيعية، لا يدخلها لبس ولا يعتريها غموض؛ إذ أحاطه بالبحر من غربه وجنوبه وشرقه، وكل ما شملته هذه الحدود إلى أطراف الحجاز الجنوبية فهو اليمن، فهل رأى حضرموت جزيرة منقطعة في أوساط بحر الهند حتى يسوغ له أن يقول:

شبوة من حضرموت لا من اليمن؟ أو من اليمن وليس من حضرموت[1]؟!

وهكذا ناقشت المجلة العديد من القضايا الوطنية، سواء ما لقي من بعضها رضىً إماميا، أم ما استاء منه الإمام، فعلى أي حال كانت النافذة الأولى ومحطة الانطلاق لمسيرة النضال، كما أسلفنا.

(1) ـ نفسه، 117.

6ـ كتيبة الشباب اليمني

كانت كتيبة الشباب اليمني المحاولة الجماعية الثانية في طريق معارضة حكم الكهنوت الإمامي. تأسست في القاهرة في سبتمبر ١٩٤٠م، أسسها الزبيري ونعمان، وكانت أول عمل نضالي يشتركان فيه، أو قل يجمعهما أثناء دراستهما هناك؛ حيث كان الزبيري ملتحقًا بدار العلوم، فيما نعمان ملتحقًا بالأزهر، والتحق بهما أيضا محمد صالح المسمري.

وقد ضمت في عضويتها إلى جانب هؤلاء زملاء لهم من الجنوب أيضا؛ مثل: رشيد علي حريري ومحمد علي الجفري وعبدالرحمن علي الجفري وسالم الصافي، ذلك لأنَّ الهَمَّ اليمنيَّ كان واحدًا في وجدان الشباب المتطلع للتغيير حينها، والمشكلة تبدو كذلك واحدة، أو متقاربة، متمثلة في الاحتلال البريطاني للجنوب والاستبداد الإمامي في الشمال، مع أنّ الاستبدادَ الإماميَّ قد تبدى أسوأ من الاحتلال بكثير؛ إذ لم يضع حجرًا على حجرٍ خلال فترة حكمه، كما فعل الاحتلال على الأقل؛ بل لقد هدّم ما كان قائمًا.

وذكر الأستاذ نعمان عن تأسيس الكتيبة ما نصه: «.. وصل الزبيري إلى مصر، وأول ما وصلها بحث عني، فجاء إلى الأزهر، وبقينا نتذاكرُ سَوية ونتدارس، ودخلنا في تشاورٍ من أجل القضية اليمنية، وارتبط بنا جماعة من أبناء الجنوب: محمد علي الجفري وسالم الصافي، وهو عضو في رابطة أبناء الجنوب، على أن نضع مخططًا لتجمع، نسميه: الكتيبة اليمنية».[1]

ويبدو أنَّ الطلبة اليمنيين الذين وصلوا إلى القاهرة قد انبهروا بالفارق الحضاري المهول بين القاهرة في تلك الفترة وصنعاء التي يصعب المقارنة بينهما، بفعل سياسة الإمام المنغلقة وكهانته التي مارسها على اليمنيين، فتأثروا بتلك الأجواء، بثقافاتها المتعددة، بمدنيتها، بجامعاتها، بصُحفها، بجمالها، وتطلعوا لتغيير بلادهم نحو الأفضل، فكانت كتيبة الشباب اليمني بقانونها وموادها.

(1) ـ مذكرات الأستاذ نعمان، 133.

ونوردُ هنا قانون كتيبة الشباب اليمني الذي تمت صياغته بالقاهرة، كما نشره علي محمد عبده.

قانون كتيبة الشباب اليمني

المقدمة: الحمدلله والصلاة والسلام على أفضل خلق الله، وبعد:

فقد اجتمع فريق من الشباب اليمني، واستعرضوا حالة بلادهم، وما هي بحاجة إليه من الإصلاح وما تعانيه من التفكك والانحلال، فلا رابطة تجمعهم، ولا هيئة توحدُ أغراضهم، وتوجه الأمة إلى ما فيه صلاحها وسعادتها، حتى تستطيع أن تُسايرَ القافلة الإسلامية والعربية التي تسير نحو الرقي والنهوض بخطى ثابتة سريعة، وحتى تعيد ما كان لها من مجد طريف وعز تليد، فرأوا من واجبهم الديني والوطني تأليف «كتيبة» من «الشباب اليمني» تحملُ على عاتقها دعوة الأمة والإهابة بها إلى النهوض واليقظة، حتى تكونَ عضوًا عاملا في الأمة الإسلامية والوحدة العربية، وتتبوأ المكانة اللائقة بها بين الأمم الراقية. وقد عاهدوا الله على أن يجعلوا رائدهم الإخلاص والقيام بواجباتهم على أتم الوجوه، معتمدين على الله سبحانه وتعالى، واثقين بإعانته وتيسيره. شعارها: (الإسلام، العرب، الوطن).

الإسلام، بنصره والاستنصار به.

والعرب، بالعمل لصالحهم وتحقيق وحدتهم.

والوطن، برفع شأنه وإعزازه.

القانون:

المادة الأولى: تألفت هذه الكتيبة في القاهرة يوم السبت، ٢٥ شعبان ١٣٥٩هـ، الموافق ٢٨ سبتمبر ١٩٤٠م، وسُميت بكتيبة الشباب اليمني، وجعل مركزها الرئيسي القاهرة.

المـــــادة الثانية: مقاصدها.

أ. بعث الأمل في نُفوس الشعب اليمني ومحاربة اليأس.

ب. بـث روح التضحيـة والإخـلاص والإخـاء ونـشر الثقـة بـين أفـراد الأمـة وشبابها، حتى تعـود بينهـم الطمأنينـة.

ج. تصوير آلام الشعب وما يعانيه، والنظر في العلاج الناجح لإزالة تلك الآلام.

د. نـشر الثقافة بين اليمنيين، وإيقـاظ شُعورهم، وتذكيرهـم بماضيهـم المجيد، وتنبيههـم إلى واجبهـم في المسـتقبل، وتزويدهـم بالتعاليـم الصحيحـة التي تعـودُ على الأمـة بالنفـع العـام.

هـ. الاتصـال بعظماء الشـعب وغيرهـم مـن الرجـال الذيـن تتجلى فيهـم الروح الوطنيـة والإخـلاص، للتشـاور فيـما يتعلـق بنهضـة اليمن.

و. ترغيـب المقتدريـن وذوي اليسـار في إرسـال البعثـات العلميـة لدراسـة العلـوم التـي تهـم معرفتهـا، وتشـتد حاجـة البـلاد إليهـا.

ز. السَّعي لـدى الحكومـة اليمانيـة في شـد أزر هـذه البعثـاتِ ومسـاعدِتها بمالها ونفوذها.

ح. محاربـة النعـرات المذهبيـة، ونبـذ الخلافـات والآراء التـي جـرّت عـلى المسـلمين النكبـات في معظـم أدوار التاريـخ.

ط. إعداد اليمن ليكون عضوًا عاملا في الجامعة العربية والإسلامية.

ي. الاتصال بالحكومة للاستعانة بها في تنفيذ أغراض الكتيبة.

المـــــادة الثالثـة: الوسائل

الكتيبة تنفذ مقاصدها بالوسائل التالية:

أ. نشر مجلة، تكون لسان الكتيبة، أو كتابا دوريًا، أو نشرات.

ب. إلقاء المحاضرات في أحوال اليمن المختلفة، دينية وتاريخية واجتماعية علمية.

ج. إنشـاء فـروع للكتيبـة بداخـل اليمـن وخارجهـا بواسـطة أشـخاص تعتمـد الهيئـة عليهـم، وتثـق بهـم وبإخلاصهـم وحزمهـم باسـم الكتيبـة، أو باسـم هيئـة أخـرى جهـرا.

د. إرسال وفود تفاهم للهيئة لنشر مبادئ الكتيبة، وإلقاء محاضرات بلسانها باستمرار.
هـ. الاتصال بكل شاب يمني، وبث روح الكتيبة فيه، وإعداده إعدادًا كاملا، لأن يكونَ عضوًا في الكتيبة.

المادة الرابعة: مالية الكتيبة
ماليتها تتكون مما يأتي:
١ـ الاشتراكات
٢ـ التبرعات العامة
٣ـ الربح من المجلة والنشرات
٤ـ الواردات من فروع الكتيبة للهيئة

المادة الخامسة: أعضاء الكتيبة، وهم:
١ـ المشتركون، وهم الذين يدفعون اشتراكاتهم للكتيبة شهريا، ويساعدونها عمليا.
٢ـ المساعدون، وهم الذين يقدمون للكتيبة الإعانة سنويا.
٣ـ أعضاء الشرف، وهم الذين اشتهروا بخدماتهم الجليلة للعرب والإسلام، أو ساعدوا على تنفيذ أغراض الكتيبة.

المادة السادسة: واجبات الأعضاء
١ـ يُشترط في العضو أن يكون يمانيًا مسلمًا، ومثلا أعلى في أخلاقه وقيامه بشعائر دينه واستقامة سيرته، ويُعتبر عضوًا في الكتيبة من يوم تدوين اسمه.
٢ـ على أعضاء الكتيبة أن ينشروا مبادئها بمختلف الطرق، ليعرفوا مواطنيهم بمقاصدها وأعمالها ويحببونها إليهم، وأن يتشاوروا مع مواطنيهم الآخرين فيما يقدمونه إلى الهيئة المركزية من التقارير عن أحوال البلاد.
٣ـ على كل عضو ينتمي لهذه الجماعة أن يُقسم يمين الإخلاص بأن يكون

وفيا لمبادئ هذه الكتيبة، حافظا لأسرارها.
٤ــ على كل عضو أن يعمل جهده في رفع قيمة الكتيبة في أنظار الشعب، بتجنبه للآراء الشاذة والاصطدام بشعور الأمة.
٥ــ على كل عضو منتسب لهذه الكتيبة يرغب في الخروج منها فهو حرٌ في ذلك، على أن يُحافظَ على أسرارها، وإذا اتضح للهيئة المركزية أنه أفشى سرًا من أسرارها فللهيئة أن تقرر التأديب اللازم.

المـــــادة الثامنة: الهيئة المركزية للكتيبة
١ــ الهيئة المركزية للكتيبة تتألف من وفودٍ تختارهم الهيئة، وعند إرادة ضم عضو جديد لهذه الهيئة المركزية تعقدُ الهيئة اجتماعًا للنظر في ذلك، على ألا يزيد أعضاء هذه الهيئة على خمسة عشر عضوا.
٢ــ نظرًا للظروف الحاضرة ومصلحة البلاد قرروا أن تكون الكتيبة سرية إلى أن يحين الوقتُ لإعلانها.
٣ــ على كل فرع أن يتصل بالهيئة المركزية، ويعرض عليها تقاريره ويستشيرها في كل ما يهمه، على أن لكل فرع الحرية في تنفيذ ما يرى من الضروري تعجيله بدون استشارة الهيئة.
٤ــ تجتمع الهيئة المركزية، وتتبادل الآراء وتقرر ما يجب من الأمور، والمعتبر هو رأي الأغلبية.
٥ــ الاتصال بالشباب اليماني، وتزويده بالتعاليم الصحيحة التي تعود على الأمة بالخير العميم.
٦ــ على كل فرد أن يكون مستعدا دائمًا لتنفيذ رغبات الهيئة المركزية، مدينا لها، خاضعًا لأوامرها، واقفًا عند إرادتها. (١)

(1) ــ انظر: لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، علي محمد عبده، 153.

ولم تذكر المصَادرُ التاريخيّة التي بين أيدينا أيَّ نشاطٍ يُذكر للكتيبة، سواء في القاهرة أم في بعضِ المدنِ اليمنية في الداخل، رغم البرنامج الطموح الذي ظهرت به «الكتيبة». وكان الذي حصل بعد ذلك أن عاد الأستاذ نعمان إلى تعز في فبراير ١٩٤١م[1]، أي بعد التأسيسِ بأشهر معدودة، فيما عاد الزبيري إلى صنعاء في يوليو من نفس العام، وهي فترةٌ قصيرة بعد تأسيسِ الكتيبة، عدا ما كان من الزبيري في صنعاء من تأسيس هيئةِ الأمرِ بالمعروفِ والنّهي عن المنكر، كما سنرى.

والكتيبة وإن لم تضف شيئًا معتبرًا على الصعيد العملي خلا تلك الفترة، إلا أنها كانت صوتا جديدا، وتجربة إضافية في مسيرة النضال الوطني، ومثلت أحد محطاته التاريخية.

(1) ــ ذكر الأستاذ نعمان في مذكراته أنه عاد سنة 1940م والحقيقة، وكما أفادت أغلب المصادر التي بين أيدينا أنه عاد في التاريخ الذي ذكره علي محمد عبده في فبراير 1941م، لأن الأستاذ أملى مذكراته استظهارًا من ذاكرته بعد عقود طويلة، والذاكرة خوانة أحيانا، فيما كان علي محمد عبده معتمدا على الوثائق التي بحوزته في كل ما ذكر، ومشهور عنه الحصافة والدقة في تناوله للأحداث. ثم إن المؤرخ لطفي نعمان قد رجح ذلك في مناقشة بيننا بهذا الخصوص. انظر لمحات من تاريخ حركة الأحرار، 161.

7ـ هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

المتتبع للجذور الأولى لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يرجح أنها قد تأسست في مصر قبل عودة الأستاذ محمد محمود الزبيري، وإن لم تُعلن هناك، إذ بعد تفرق عناصر كتيبة الشباب اليمني التي تأسست في سبتمبر من العام ١٩٤٠م تحول حماسُ الزبيري إلى حركةِ الإخوان المسلمين بحسب المؤرخ علي محمد عبده، فأعجبَ بدستورها، ومن ثَـمَّ قرّرَ تأسيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، متخليًا عن كتيبة الشباب اليمني، ووضعَ دستورًا أو برنامج عملٍ للهيئة، يكاد أن يكونَ صورةً من دستورِ حركةِ الإخوان المسلمين.[1]

وبحسبِ الدكتور محمد علي الشّهاري: فإنَّ برنامجَ شباب الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ قد أصدره الزبيري ونعمان، تحت تأثير حزب «جماعة» الإخوان المسلمين، إذ كانت بصماتُ فكر الإخوان واضحة فيه، وقد أوكل إلى الزبيري حمله إلى صنعاء عام ١٩٤١م بقصد العمل في ضوئه، وتجنيد رجال الدين على أساسه، وبهدف إقامة فرع لحزب الإخوان في اليمن، يشمل كلَّ من يمكنُ استقطابه من الشباب حتى الحاكمين.[2]

والحقيقة لقد وهِمَ الدكتور الشّهاري أنّ الأستاذ نعمان قد كان من مؤسسي هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الزبيري بالقاهرة، وأنه ممن تأثر بالإخوان المسلمين، أو ارتبط بهم، فالأستاذ نعمان لم تؤكد المصادر على انتمائه لأي حزب أو جماعة، ولم يرتبط بالإخوان المسلمين حينها كما فعل الزبيري وبعض رفاقه على الأرجح، علمًا أنَّ الأستاذ نعمان في مذكراته قد أشار إلى ارتباطه بالفضيل الورتلاني الذي كان صديقا للأديب المعروف الأستاذ

(1) ــ انظر: لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، علي محمد عبده، 161. بتواري كتيبة الشباب اليمني، وظهور هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم تعد الأخيرة ذات طابع وحدوي، شمالي وجنوبي، بل أخذت طابعًا شماليًا، الأمر الذي جعل الأخوة رفاق الكتيبة من الجنوبيين يتذمرون ويعاتبون إخوانهم على هذا الإجراء، كما أشار إلى ذلك علي محمد عبده.

(2) ــ انظر: اليمن الثورة في الجنوب والانتكاسة في الشمال، د. محمد علي الشهاري، 67.

شكيب أرسلان الملقب بـ«أمير البيان العربي»، فكان يكتب له مقالاته؛ لجودة خطه، لأن «شكيب أرسلان» كان صاحبَ رعشةٍ في يده، تعوقه عن الإمساك بالقلم.[1] والأهم من هذا فقد نفى الأستاذ عن نفسه تهمة الحزبية نهائيا، بالقول: «والحزبية عندي لا شيء، وليس لها أي محل عندي، أكرهها وأمقتُها. لم أتحزبْ قط».[2]

وإذن فالهيئة من تأسيسِ الزبيري فقط. وربما شاركه فيها زملاء آخرون في القاهرة، لم تذكر أسماءهم أية وثيقة تاريخية بين أيدينا حتى الآن، عدا من شاركه نشاط الهيئة في اليمن عقب عودته من القاهرة، وارتبطوا بها، من أمثال: الشيخ حسن الدعيس في إب، وأحمد عبدالله الكبسي، وحسين عبدالقادر في صنعاء، وعبدالله العيزري في ذمار، وعلي بن حمود شرف الدين في الطويلة، وعباس بن علي في تعز، ثم محمد قاسم أبو طالب في صنعاء، لاحقا. وكان لكل واحدٍ من هؤلاء أتباع، يمثلون خلايا تنظيمية سرية.

برنامج شباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لأن الزبيري كان قد تفتح وعيه أكثر في القاهرة، وانتمى إلى جماعة الإخوان، ذات الطابع التجديدي في الفكر الديني آنذاك، أضف إلى ذلك موهبته الأدبية والفكرية فقد استطاع صياغة برنامج إصلاحي، يجمع بين خصائص ما يعرف بالمدرسة الزيدية والمدرسة السُّنية،[3] ومن ثم عرضه الزبيريُّ على الإمام يحيى، طامحًا تنفيذه، إلا أن الإمام سخر منه؛ على الرغم من أنه كان

(1) ــ سألت الزميل والصديق العزيز لطفي نعمان، الباحث والمؤرخ المعروف ــ وهو حفيد الأستاذ نعمان ــ عما إذا كان الأستاذ قد انتمى لجماعة الإخوان المسلمين، فنفى ذلك. وتجدر الإشارة هنا إلى أن شكيب أرسلان اللبناني الجنسية من أصول يمنية، ومحب لليمن، وقد كان من سُعاة الصلح بين الإمام يحيى والملك عبدالعزيز آل سعود، أثناء الحرب التي قامت بينهما عام 1934م، مع آخرين.

(2) ــ مذكرات الأستاذ نعمان، 151.

(3) ــ كان الزبيري إذا سُئل: أنت زيدي أو شافعي؟ يجيب: أنا مُحمدي.

يركزُ على القضايا الاجتماعية، ومبتعدًا عن الجوانب السياسية، لعدم إثارة الإمام. ليس ذلك فحسب؛ بل لقد كان منهاجُ الهيئة ينصُّ على الولاء التام للإمام يحيى، وعلى التقدير الكامل له، كما نلمسُ في هذا البند من برنامجها، والذي يقول: «.. جديرٌ بالشباب أن يستمدَّ من حكومته الهاشمية المتوكلية النصح والتوجيه، وأن يصغيَ لما يبديه أميرُ المؤمنين، نصره الله، وما يراه جلالته من الطرق الناجعة، فإمامنا المعظّم قد خبر الأمورَ وعرك الدهر. كما يجبُ على الشباب أن يستعينوا برجال حكومتنا الأفذاذ، فهم الآباء، ونحن الأبناء».

ورغم كل هذا الولاء الذي أبداه الزبيري وجماعته في الهيئة إلا أن الإمام قد رفضه رفضًا قاطعًا، وتوجس منه، وسجن أصحابه؛ لأنه ينطوي على نزعة تجديدية إصلاحية، فيما الإمام عدو كل جديد وتجديد. ومن ثم بدأ الصِّراع والاصطراع. ويمكن تقييم الهيئة بأنها أول هيئة منظمة ببرنامج مكتوب، بلغة عصرية، تتغيّا الإصلاح السياسي لا التثوير الجماهيري. وإن كانت قد سبقها هيئة النضال.

وإلى جانب هذا النص، في برنامج الهيئة، فثمة نصوصٌ تثويرية بلغة الواعظ الديني، حدسها الإمام، فاشتم ما وراءها، وما يترتب عليها، كما يقول هذا النص الزبيري، مخاطبا اليمنيين: «هل تعلمون ما الذي يهدمُ السعادة، ويمحو الشخصية، ويفني الأمم؟ يا قوم، هل تعرفون ذلك؟ إنه يسيرٌ لو تمعنتم وتأملتم لوجدتموه واضحًا جليًا، هو الذي جعلكم في اضطراب وانزعاج. هو الذي أضاع ماضيكم وحيّركم في حاضركم، وسيقضي على مستقبلكم إن لم تنتبهوا له وتقتلوه في مهده. إنه يا قوم الجبنُ، اقهروه، قاوموه، حاربوه في أبنائكم..».

هذه دعوة دينية، تربوية، سياسية معًا، قولبها الزبيري بحدسه اللماح وذكائه المتوهج، وهو يعي تماما ما الذي يقول. وذلك حين كانت رهبة الإمام يحيى في قلوب الناس كأنه ابن السماء، فدعا الناس ضمنا لكسر هذه الرهبة، ومقاومة ذلك الخنوع الذي كان يطبع عامة الناس، بسبب الجهل.

داعيًا إلى محاربة ذلك في الأبناء، باعتبارهم المستقبل، وباعتبار أكثر تلقيا للأفكار التي يسمعونها أيا كانت.

وفي هذا يقول البردوني: لقد فطن الزبيري وجماعته إلى متطلبات المرحلة، فأعلن ميثاق جمعية، تجمع مهماتها بين الإيقاظ الديني والإيقاظ السياسي على أساس ديني. وكان الزبيري لا يخرج عن هذا المنحى، لا في كتاباته ولا في أشعاره. ففي قصائده في الأربعينات كان يركز على الإيقاظ حتى في الأماديح والمراثي..».[1]

وعلى أية حال فقد انتهى الأمر بالزبيري سجينًا في سجن الأهنوم في حَجَّة، في ديسمبر من سنة ١٩٤١م، مع أحد عشر شخصًا من أقرانه، منهم محمد قاسم أبو طالب، أحد أبرز رفاقه في الهيئة، عقب خطبة جمعةٍ خطبها في الجامع الكبير بصنعاء، دعا فيها الإمامَ إلى الإصلاح، وظل في السجن حوالي تسعة أشهر، حتى استعطف الإمام بقصيدة مدح، مصحوبةٍ أيضا بشفاعة عمه، يقول فيها:

نور النبوة من جبينك يلمع والملك فيك إلى الرسالة ينزع[2]

علما أن خطبة الجمعة التي ألقاها بديلا عن رفيقه الخطيب محمد قاسم أبو طالب، لم تكن إلا الشرارة التي أشعلت السهل، والقطرة التي أفاضت الكأس بين الزبيري والإمام، فلقد أحسَّ الإمام يحيى بخطورة برنامج الهيئة، والتي إن تبدت في صورة برنامج ديني إصلاحي، لكنها ــ وبحسب البردوني ــ: «فقد أرادت من الإيقاظ الديني الإيقاظ السياسي ضمنًا».[3] وهذا ما توجس منه الإمام يحيى، المتوجس أصلا بطبعه قبل تطبعه.

وبهذا تكون قد انتهت محطة من محطات النضال، متمثلة بانتهاء مشروع هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مهدها، كما انتهت فكرة كتيبة الشباب اليمني في القاهرة بعد أشهر على تأسيسها. ومن ثم يتحول الزبيري ورفاقه إلى منعطف آخر من النضال، هو وسط بين هذه المحطة ومحطة تالية، أو بالأصح: محطات تالية، كما سنوضح ذلك لاحقا.

---

(1) ــ اليمن الجمهوري، 198.

(2) ــ حين اطلع الإمام يحيى على القصيدة، أعجب بها، وعلق بالقول: القصيدة طنانة، ولكن من أين لنا رجوعه؟ فإن أفكاره مسمومة..!

(3) ــ اليمن الجمهوري، 190.

ردة الفعل الإمامية

خلال العامين: ٤١، و٤٢م، وبعد أن شاع خبر الهيئة الزبيرية بين الناس وأهدافها ذات الطابع الديني التي لم يفهم أبعادها عامة الناس، وربما بعض مثقفيهم، بدأت التساؤلات: ولِمَ منع الإمامُ دعوة الزبيري وهي لا تحض إلا على فعل الخير وإحياء الشُّعور الديني عند الناس، والحث على التعليم.. إلى آخر هذه التساؤلات التي يوحي بها برنامجُ الجمعية «الهيئة»، حاول الإمام يحيى استباق الزبيري لتنفيذ بعض البرامج الإصلاحية، على طريقته هو «فبعث أعدادًا من طلاب دار العلوم بصنعاء وجامع صعدة، ومن أئمة المساجد وأشباههم إلى جميع المناطق، ليعلموا الناس الصلاة، ولتزويج العزب بالمهر الشرعي: سبعة ريالات وشاتين وكسوة على العُرف. في ذلك العام انبث الدعاة عن تعاليم رسمية، كإسكات لدعوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل انتشارها».[1]

كما أوعز الإمام أيضا لخطباء المساجد بمهاجمة الهيئة ورجالها، وإن تلميحًا في خطبهم، داعين أصحابها بالمخذولين الذين يدعون إلى قيام ما هو قائم، وتحصيل ما هو حاصل..!

وبهذا فوّت الإمام الفرصة على الجمعية «الهيئة»، لأنه يتبنى رسميًا نفس ما دعت إليه، كما ذكر البردوني.

نهاية التجربة مع الإمام يحيى

عن هذه التجربة التي تبدو قصيرة، بين الزبيري والإمام يحيى يقول الزبيري: «بذلك انتهت تجربتي مع الإمام يحيى بالذات، بعد أن أدركت

(1) ــ نفسه، 193. كان البردوني يستخدم لفظ الجمعية، بينما مسماها الرسمي هكذا: هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

بعمقٍ وبيقين أنه يعادي كل تطور، وكل إصلاح، وأنه لا ينفع معه رفق ولا لِين، ولا استعطاف ولا ثناء، إذا كان المطلوب منه أن يحقق إصلاحًا، ولو على الأسس الدينية. لقد كانت تجربة خصبة عميقة، كسبنا منها الأساس الأول للثورة، وهو اليقين باستحالة تغيير الإمام يحيى عن غير طريق القوة. ولم يكن هذا اليقين الثوري ليحصل إلا بعد المرور على كل هذه التجارب، وأهمها في رأيي استعطاف الشعر بكل ما فيه من تأثير عاطفي شديد.[1]

وعمومًا، خرج من سجن الأهنوم بحجة، ثم لم يلبث بصنعاء إلا أياما قليلة، انطلق بعدها مباشرة إلى تعز، حيث التقى رفيق دربه نعمان لأول مرة في قصر السيف أحمد، منذ افتراقهما في القاهرة.

مع السيف أحمد.. تجربة جديدة

مع مطلع الأربعينيات كان صراع السيوف، أولاد الإمام يحيى قد أطل بقرونه، وأغلبهم يطمحون للعرش بعد وفاة أبيهم الذي بدأت علامات الشيخوخة تزحف عليه، وأبرز هؤلاء: الحسين بن الإمام يحيى، وكان عالما، وقارئا نهمًا، ومنفتحا إلى حد ما، قياسا بأخويه: أحمد أو الحسن، غارقًا في أفكاره وكتبه، لا يكاد يغادر منزله. وكان متوجسًا من أخيه أحمد، ولي العهد وكبير الإخوة كلهم، لا يأمن مكره، فعمد إلى عقد معاهدة مع الأمير عبدالله الوزير «الإمام لاحقا» والأمير علي الوزير، «والأخير خصم أحمد»، والأمير علي بن حمود شرف الدين الذي كان يرى نفسه سليل الملك قبل بيت حميدالدين، وجميعهم غير راضين عن أحمد، وضد أن يرتقي العرش، واتفق هؤلاء جميعا على ترشيح عبدالله الوزير إمامًا بعد الإمام يحيى وقد بدت علامة الشيخوخة زاحفة عليه؛ الأمر الذي أجبر أحمد أن يكون له فريقا موازيا من المثقفين المستنيرين والخطباء الشباب، لمواجهة هذا الحلف،

(1) ــ الأعمال الشعرية الكاملة، محمد محمود الزبيري، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 2004م، 46.

حد توهمه، ولم يكن الشباب هؤلاء على وئام مع هؤلاء، فقرب منه كلا من نعمان والزبيري والموشكي والحضراني، وغيرهم من المثقفين والأدباء والفقهاء المستنيرين، إلا أنّ السحرَ انقلب على السّاحر فيما بعد. هذا أولا.

ثانيا: كان الزبيري تحديدًا، وبعض رفاقه المستنيرين من شباب صنعاء، على صراع مع والده يحيى، ولم تكن قد تبينت ملامح حقيقة الصراع بعد، وكان أحمد حينها في تعز، نائبا لوالده الإمام، بعد عزل علي الوزير عن تعز، وهو بطبعه ــ قبل تطبعه ــ نسخة ظلامية من والده، ومن أفكاره الماضوية وعقليته المنغلقة. وخلال فترة صراع الزبيري ورفاقه مع أبيه أراد أن يعرفَ ما برؤوس هؤلاء «العصريين»[1] من أفكار وخواطر عن قرب، فأدناهم منه، وقد أدنى منه قبل ذلك الأستاذ نعمان، منذ عودته من القاهرة، وتعيينه مسؤولا عن معارف تعز. حيث وصل إليه الزبيري من صنعاء، بعد خروجه من سجن الأهنوم مؤملا عليه ما يؤمل، فأنشد بين يديه قصيدة، مدحه فيها، ومنها:

إليك وإلا يا ترى أين نذهب؟ فلم يبق إلا أنت في الأرض كوكب

خلال هذه الفترة، ما بين ٤٢ إلى ٤٣م، اقتربوا جميعًا «العصريين» من السيف أحمد، فتساجلوا فنون الشعر، وتناقشوا مسائل الفقه، وتبادلوا الأفكار، وما بين فترة وفترة ينضم إليهم «عصريٌّ» جديد، وكعادة الساسة، فإنهم يقربون خصومهم منهم قبل أن يبطشوا بهم، لمعرفتهم عن قرب، وليستكنهوا ما تنفثه فلتات لسانهم من «اللاوعي» أحيانا أثناء الحديث معهم.

بعد أن عرفهم لم يلبث ولي العهد أحمد أن كشف عن وجهه الحقيقي، خلاف ما حاول أن يظهرَ به أمامهم من قبل. وبعد ذلك قلب لهم ظهر المِجن، كما يُقال[2]. غير أنه بقدر ما عرفهم عن قرب واسْتكنَه ما يدور في أذهانهم، كان أن عرفوه هم أيضًا عن قرب، وأدركوا حقيقته، فكانت المعادلة أنّ كل طرف

---

(1) ــ اللقب الذي كان يُطلق على الأحرار المثقفين المناوئين للإمامة، وبعد ثورة 1948م أضيف لهم لقب «المدستورين». أي أهل الدستور..!

(2) ــ المجن: التُرس، وهو كناية عن التحول من الصداقة إلى العداوة. ومن شعر الأحوص، واصفًا محبوبته:

قلبتْ لي ظهرَ المجنِّ فأمستْ قدْ أطاعتْ مقالة الأعداءِ

قد عرف حقيقة الطرف الآخر، وكما حددَ منهم موقفًا صارمًا، تعاملوا معه بذات المعاملة، فحددوا منه أيضا موقفهم التاريخي. وهكذا تتوالد الحقائق وتتكشف الخفايا.

ذكر الأستاذ نعمان أن السيف أحمد غضب ذات يوم غضبًا شديدًا، وحوله نعمان والزبيري وآخرون، فسأل: أنت يا فلان، أتقرأ الأدب؟ فأجابه: لا يا مولاي، أنا لا أقرأ الأدب. ثم سأل الزبيري، والزبيري شاعر وأديب: أتقرأ الأدب؟ فتحيّر وصمت، فسأل شخصًا اسمه «لقبه» السّراجي: أتقرأ الأدب؟ فرد قائلا: اقطعوا رقبتي بالحذاء لو قرأته..! يقول الأستاذ نعمان: فالتفت إليّ، وقال: وأنت ما الذي تدرسّه[1] في المدارس؟ أدب طه حسين؟؟ قلت له: كلا. نحن نعطيهم محفوظاتٍ من الشعر. قال: ولكن محفوظات أدبية. قلت له: محفوظات من الشعر تتحدث عن فضائل الإمام، ومن هذه الأبيات الشعرية:

العرشُ عرشُك لا سواك ولن ترى نـــدًا إلى آفـــاق عرشك يرمق[2]

وكان بجانبي كتاب لطه حسين، أهدي للإمام بواسطتي. فقال: وقالوا إن من الأدب كتابًا لطه حسين؟ قلت: أبدًا، وطويت الكتاب تحت إبطي دون أن أقدمه للإمام. ورجعتُ إلى البيت، فلحق بي الزبيري، وقال لي: لم يبق لنا مجال. نحن معرضون للسجن، فليس لنا إلا أن نشدّ الرحال.. وقررنا الهجرة معًا، أنا والزبيري، فهربنا من تعز.[3]

وبعدها صرخ ولي العهد بقولته المشهورة: «والله لأضربنّ رقابَهم بسيفي هذا، ولأخضبن يدي بدماء هؤلاء العصريين، حتى ألقى الله وهو راضٍ عني».[4] وأضاف الشامي عن الإمام أحمد في تلك اللحظة قوله: ما كنت أدري أننا نربي الملحدين..![5]

---

(1) ــ كان الأستاذ نعمان مدير معارف تعز حينها.

(2) ــ البيت للزبيري، وكان ضمن قصيدة مدح بها ولي العهد أحمد.

(3) ــ مذكرات الأستاذ نعمان، 135. غادروا تعز إلى عدن، بمساعدة رجل الأعمال الشهير، المتعاون مع الأحرار، الشيخ جازم الحروي، وسنتكلم عنه لاحقا. وكان هذا في العام 1943م. وانظر أيضا: لمحات من تاريخ حركة الأحرار، 175.

(4) ــ لمحات من تاريخ حركة الأحرار، 176. وانظر أيضا: رياح التغيير في اليمن، أحمد بن محمد الشامي، ط:1، 1984م، 115.

(5) ــ رياح التغيير في اليمن، أحمد محمد الشامي، 115. ذكر الدكتور عبدالعزيز المقالح في تقديمه للأعمال=

وهـؤلاء الملحـدون الذيـن يقصدهـم ولي العهـد، السـيف أحمـد هـم: الزبـيري ونعـمان وزيـد الموشـكي وربـما أحمـد محمـد الشـامي، كـما أشـار، وآخريـن مـن رجـالات العلـم والإصـلاح الذيـن طالبـوه بتغيـير طريقتـه في الحكـم والتعامـل مـع المواطنـين بالإنسـانية.

والحقيقـة أن موقفـه هـذا يشـبه موقـف فرعـون نفسـه حـين خـرج إلى القـوم، متظاهـرا بالخـوف عـلى الديـن مـن موسـى: (إني أخـاف أن يبـدل دينكـم أو أن يُظهـر في الأرض الفسـاد). وهـذا هـو ديـدنُ الطغـاة ومنطقهـم في كل زمـان ومـكان.

والواقـع أن هـذا التهديـد قـد أخـاف جميـع الأحـرار وأفزعهـم، ومـن ثـم قـرروا الافـتراق عنـه، ومـن هـؤلاء الزبـيري والنعـمان اللـذان قـررا السّـفرَ إلى عـدن، هروبًـا مـن بطـش السـيف أحمـد، وكان الزبـيري أكثـر إصرارًا عـلى ذلـك، لتجربتـه المريـرة مـع سـجن نافـع بحجـة قبـل ذلـك، ولا يطيـقُ تحمـل تجربـة أخـرى؛ ثـم إنّ للشـاعر حاسـة مرهفـة وشـعورًا رقيقـا، ينفـر ممـا يـراه جارحًـا للكرامـة أو خادشًـا للـذوق أكثـرَ مـن غـيره. والحقيقـة أن تخويفهـم قـد حـرك فيهـم كوامـن العـزة ونخـوة البطولـة، فثـاروا وثـأروا لكرامتهـم، بعـد موقفـه هـذا؛ لأن العصـا الغليظـة تـذل العبيـد؛ لكنهـا تسـتفز الأحـرار كـما يُقـال.

نهاية التجربة مع ولي العهد أحمد

كـما تحـدّث الزبـيري عـن محاولتـه الأولى مـع الإمـام يحيـى، والتـي انتهـت بسـجن الأهنـوم، هـا هـو يقـول عـن تجربتـه الثانيـة مـع ولي العهـد أحمـد: «وانتهـت تجربتُنـا مـع السـيف أحمـد، ولي العهـد إلى النهايـة التـي انتهـت إليهـا تجربتنـا مـع أبيـه الإمـام يحيـى، وبذلـك تمّـت عنـاصر اليقـين الثـوري الـذي يفـرضُ علينـا أن ننفـض أيدينـا مـن كل أمـل في الوصـول إلى تغيـير الأوضـاع تغيـيرًا سـلميًا بأيـدي الحـكام. وقـد

=الشـعرية للزبيـري أن بيـت حميـد الديـن كانـوا يعتبـرون كتـاب النظـرات للمنفلوطـي خطـرًا عـلى الإسـلام، وثـورة عـلى كل مـا هـو جامـد ومعتـاد.

أسلمتنا هذه التجربة إلى أمرين لا ثالث لهما: فإما أن نرضخَ وندفن رؤوسنا في المقبرة الموحشة التي دُفن فيها الشعبُ، وندخلُ فيما دخل فيه الأكثرون، فنأكل الجيف، ونمتص الدماء، ونعيش كما تعيش الدود في القبور، أو نثور. وآثرنا الأشق الأصعب، ولكنه الأشرف..».[1]

ويضيف، مفصّلا تجربته مع ولي العهد أحمد: «ولقد وجدنا في هذا الرجل العجيب فعلا ما يخدع وما يغش، وما يذهل، وتعاظمت في أنظارنا ظواهر تصرفاته ومطامح شخصيته وألغاز تصريحاته الرمزية التي توحي بالتذمر من رجعية أبيه وفساد حكمه. لقد استطاع هذا الرجلُ الممثل الداهية أن يجعل البلادَ تعيشُ من ألاعيبه في مسرحية مبرمة فصولها، محكمة أدوارها، فهو يغضب من أبيه ويثور، ويبكي أحيانا، ويتوعد أحيانا، وإنه ليتأوّه على سجناء الشباب حتى كأنه أخٌ لهم حميم، وكان يقوم بدور إطلاق سراحهم وتأمين ساحتهم، ومطارحتهم الأفكار والأشعار في مجالسه في تواضع وانطلاق وتحرر. كنتُ فعلا في سن النوازع الروحية معجبًا بشخصيته، مأخوذا بها، وكنا ننتظر أن تكون تجربتنا معه ناجحة، وأن يكون هو العوضُ للشعب عن خيبة الأمل في أبيه، وأن يكونَ هو المرحلة الآمنة التي يتطور فيها مصيرُ بلادنا في سُهولة وأمنٍ من الأخطار..إلخ.[2]

ومع إعلان فشل هذه التجربة مع الإمام يحيى، ثم مع ولي عهده أحمد، إلا أن هذه الفترة بما استحر فيها من جدل فكري وعراك ثقافي لفتت أنظار الناس وبدأوا يتساءلون بداعي الفضول، عن حقيقة الصراع، فانقسموا ما بين مؤيد ومعارض، وعلى هذا الانقسام، ومن بين ثناياه انقدحت شرارة الضوء الأول، أو قل كانت الطوبة الأولى في محطة النضال الزبيرية، والمحطة الثانية أو الثالثة إلى المحطات التي سبقتها، فلم تذهب تلك الجهود سدى، بما في ذلك القصيدة التي مدح بها الإمام يحيى وهو في السجن يستعطفه للخروج، والتي مثلت إدانة للإمام على صلفه وتعنته، وعكست صورة

(1) ـ الأعمال الشعرية الكاملة، الزبيري، 63.

(2) ـ نفسه، 53.

عـن الوضـع بشـكل عـام، تكلـم عنهـا لاحقـا الأسـتاذ نعـمان حـين قـال: ليـس في اليمـن غـير نوعـين مـن الأدب: أدبٌ في مـدح الإمـام، وأدبٌ في رجـاء عفـوه.

8ـ في طريق اليقين 1

حزب الأحرار

تتناسلُ الأحداثُ والوقائعُ من سابقاتها كما يتناسل البشر من بعضهم بعضًا، في سلسلة تبتدئ ولا تنتهي، فكل حدثٍ آتٍ مما قبله، وممهّدٌ لما بعده، وإن تبدى أنه منقطع عنه، أو نقيض له، لأن النقائض في حقيقتها الوجه الآخر لما يُفهم أنه نقيض. فالخصوم يشبهون بعضهم بعضا، والأعداء كانوا كومة واحدة قبل أن ينشطروا. وهكذا تسير حركة التاريخ وأحداث الحياة في تفاعل بين النقائض التي تفضي إلى ثالث؛ إمّا مشابه يحملُ صبغة النقيض، أو نقيض يحمل سمات التشابه.

كان حزبُ الأحرارِ بعدن امتدادًا لما قبله من محطات النضالِ في القرن العشرين، التي ابتدأت همساتٍ خجولة، فدعواتٍ عالية، ثم صيحات صارخة في وجه النظام الإمامي، والذي لا يصح أن نسميَه نظامًا إلا تجوزًا فقط؛ إذ لا علاقة له بالنظام، ولا بالحكم، عدا الحكم الطغياني الغشوم؛ خاصة وقد تفرد الطاغية يحيى حميد الدين وأبناؤه بالحكم، متجاوزين بعض الأسر التي كانت تشاركهم الحكم، وكانت بعضها لا تقل طغيانية عنها، بحكم الفكرة التي يرتكز عليها الجميع، فكلهم في الطغيان شرق، والفرقُ بينهم كالفرق بين حماري العبادي.[1]

في العام ١٩٤٣م غادر نعمان والزبيري تعز نحو عدن، فرارًا بجلديهما. وقد تمكن اليأسُ من قلبيهما، ألا أمل يُرتجى من السيف أحمد الذي كان يتظاهر أمامهما ورفاقهما الأحرار بالإصلاح والتغيير؛ بل كان يتظاهرُ بانتقاد نظام والده أحيانا، فيما هو ــ في الواقع ــ نسخة أخرى منه في الطغيان والهمجية، وقريبا منه في الانغلاق. ومن شابَه أباه فما ظلم. والأمر لا يعدو ما قاله الشاعر:

---

(1) ــ مثل يضرب في التساوي بين الشرين. أما العبادي صاحب الحمارين، فقد سئل: أي حماريك شر؟ فقال: هذا، ثم هذا. وأشار إلى الاثنين معًا..!

هذي العصَا من تلكم العُصيّة فهـــــل تلدُ الحيّةُ إلا حية

والحقيقة لم تكن تلك الغضبة «الأحمدية» إلا الإعلان الأخير للانفصال النهائي بين الأحرار، والحكم الإمامي الغاشم، عدا ما كان من أمر النعمان من المصالحة بعد خروجه من سجن نافع، والتي لم تدم كثيرا، وعاد سيرته الأولى مع رفاقه حتى تكلل نضالهم بثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢م.

يقول الزبيري عن تجربته المُرّة هذه مع السيف أحمد: «كنا نرى في هذا الرجل بطلا، في وقت كنا نحن وشعبنا في أشد العجز عن خلق الأبطال وصنع البطولات. كان وليُّ العهد أحمد رمزَ الأمل ومناط الرجاء في القضاء على أسباب الفساد المعروف عن حاشية الإمام يحيى، وكان رجالُ هذه الحاشية يرتعدون من المستقبل كلما تذكروا «أحمد». لقد أرسل عصابة من رجاله وحرسه فأحرقوا قصر أحد رجال الحاشية، بعد أن اشتد تذمر الناس منه».[1]

وصل نعمان فالزبيري إلى عدن،[2] وكانت شهرتهما تسبقها من قبل، وأحدث خروجهما إلى عدن ضجة كبيرة، سواء لدى ولي العهد أحمد، أو لدى أبناء الشطر الشمالي في عدن. وبهذه المناسبة نظم الزبيري قصيدته المعروفة:

خرجنا من السجن شُمّ الأنوف كما تخـــرجُ الأسْدُ من غابها

وفي خروجهما قال الشاعر عبدالله عبدالوهاب نعمان:

صقران عافا الذلَّ إذ فطنـــا لما بهما يُـراد من الهـوانِ فطارا

طيرًا إلى خلف البسيطة حيث لا تجدان «قاهرة» ولا «ممطارا»

والقاهرة وممطار من حصون تعز الإمامية يومها.

في عدن التقيا إخوانَهم المشردين هناك من الشطر الشمالي، وهم في أبأسِ حال، والذين كانوا يعملون في مهنٍ وضيعة، أغلبُها في خدمةِ الأوروبيين

(1) ــ لمحات من تاريخ حركة الأحرار، 168. وانظرها في ديوان الزبيري.

(2) ــ منعت قوات الأمن البريطانية في الحدود الشطرية الزبيري في نقطة التفتيش في كرش، وسمحت لنعمان بالمرور، فبقي الزبيري في كرش، وحين وصل نعمان إلى عدن، استطاع إدخاله بواسطة الشيخ عبدالله علي الحكيمي.

المقيمين بعدن حينها، وبعضُهم عاطلٌ لا يجد عملا يسد به رمقه. ومع بداية استقرارهما بعدن لحقهما زيد الموشكي، وأحمد محمد الشامي، أو «دُبِّر أمر وصول الموشكي والشامي» حسبما يرى محمد أحمد نعمان «الابن» واللذَين ساهما في تأسيس حزب الأحرار اليمني هناك، في يونيو ١٩٤٤م، بعد أن تواصلوا مع المهاجرين اليمنيين في شرق افريقيا وفي مصر الذين باركوا هذا العمل. وتم إشهار التأسيس باحتفائية خاصة في نادي الإصلاح العربي، ونشروا الخبر في جريدة «فتاة الجزيرة» التي كان يرأسها محمد علي لقمان، وفي الحفل ألقى الزبيري واحدة من أشهر قصائده الثورية، نظمها بالمناسبة، وهي:

سجل مكانك في التاريخ يا قلم فها هنا تُبعث الأجيال والأمم

ودعا المؤسسون الحاضرين لدعم الحزب ماديا، والاشتراك فيه، فانهالت التبرعات عليهم، من الحاضرين، ومن المهاجرين في بلاد الحبشة، وغيرهم، رجالا ونساء، بل لقد تبرع أحد المواطنين «عبده إسماعيل جاوي» بمنزله ليكون مقرا للحزب، مجانا بلا مقابل. كما تطوع الحاج عبدالله عثمان الذبحاني بسيارته الأجرة التي يعمل عليها، وينفق من دخلها على أسرته، وجعلها تحت تصرف الأستاذين نعمان والزبيري أثناء تنقلاتهما.[1]

وكان أنصارُ الحزب والمشتركون فيه والمساهمون في تمويله يتكونون من عُمّالٍ و «مَداكنة»[2] مغتربين ومقيمين في عدن، وجميعهم محدودو الدخل ورأس المال أيضا.[3]

ووفقًا لرواية الشامي: انتُخبَ الأستاذ أحمد نعمان رئيسًا للحزب، والسيد زيد الموشكي نائبًا، والأستاذ الزبيري مديرًا، وأنا «أحمد الشامي» سكرتيرًا عاما، والحاج عبدالله عثمان أمينًا للصندوق.[4]

---

(1) ـ لمحات من تاريخ حركة الأحرار، 207.

(2) ـ من الألفاظ الشعبية، نسبة إلى دُكان، وهم التجار الصغار.

(3) ـ نفسه، 207.

(4) ـ رياح التغيير في اليمن، 135.

وبدأ الحزب يمارسُ نشاطه، وكان أولُ ذلك النشاط رسالة مطولة إلى الإمام يحيى، مذيلة بأربعة أسماء: أحمد محمد الشامي، أحمد محمد نعمان، محمد محمود الزبيري، زيد الموشكي. داعين فيها إلى الإصلاح وتجاوز حالة الجمود والانغلاق، والالتفات لأحوال الناس الذين يقعون تحت طائلة الحاشية والجند.

وواضح من مضمونِ الرسالة التي تضمنها كتاب علي محمد عبده فإنّ قيادةَ حزبِ الأحرارِ اليمني لم تكن قد أعلنت خروجها النهائي على الإمام، أو عدم الاعتراف بشرعيته، وخاطبته بالحسنى واللين في القول، داعية إياه إلى إصلاح النظام فقط. أي أنّ المعارضة حتى هذا الوقت كانت سياسية لا ثورية؛ لأنّ المعارضة السياسية تعترفُ بشرعيةِ الحكم القائم، وتعارض فساده، فيما المعارضة الثورية لا تعترف به، وتسعى لإسقاطه. وقد ردّ عليهم الإمام يحيى بما مضمونه أنّ أغلبَ ما ورد في رسالتهم إليه غير صحيح، مؤرخة بـ ١٢ شعبان ١٣٦٢هـ. والذي يوافق: ١٣/ ٨/ ١٩٤٣م.[1]

ورفعوا إليه مذكرات أخرى، فلم يرد عليها، كما فعل مع الأولى، بل لقد أخذته العزةُ بالإثم، هو ونجله أحمد باعتقال المشتبه من الأحرار في صنعاء وتعز، كما تم اعتقال بعض أقارب الأحرار اللاجئين في عدن، منهم أحد عشر معتقلا من أقارب الأستاذ نعمان. فاعتقل الإمام يحيى بصنعاء كلا من: القاضي عبدالسلام صبرة، والشيخ جازم الحروي، والقاضي إسماعيل الأكوع، والقاضي يحيى السياغي، وأخويه: حمود السياغي ومحمد السياغي، وقد رُبطوا بسلاسل حديدية من يدي سجين وعنقه إلى يدي وعنق سجين آخر، وسيقوا على حالتهم تلك من صنعاء إلى سجن تعز، مصحوبين بمعاملة قاسية.[2] وفي إب ضُمت إليهم جماعة أخرى من المحسوبين على جمعية الإصلاح التي انكشف سرها في نفس الفترة، وكان منهم: القاضي عبدالرحمن الإرياني والشيخ حسن الدعيس وآخرون. ذكرها القاضي مفصلة في مذكراته.

(1) ـ جاء رد الإمام يحيى هكذا: إلى الزبيري والموشكي ومن إليهما.

(2) ـ لمحات من تاريخ حركة الأحرار، 222.

وفي هـذا المشـهد الأليـم، خاطـب الشـاعر عبـدالله عبدالوهـاب نعـمان رفاقـه هـؤلاء قائـلا:

سيروا فما الأغلالُ في أعناقكم إلا لمجدكم العظيم شعار

في هـذه الفـترة كان حـزبُ الأحـرار يواصـلُ نشـاطه بعـدن، بوتـيرة متسـارعة، وبصـورةٍ ملحوظـة، وقـد انضمـت إليه شـخصياتٌ جديـدة من المثقفين والمشـايخ، ومـن عامـة النـاس، كـما وجـد الدعـم المـالي مـن المغتربـين، فتخـوف ولي العهـد أحمـد مـن هـذا النشـاط، وظـل يبعـث بالرسـائل إلى نعـمان والزبـيري، يستميلهم بالرجـوع إليـه، كـما ذكـر نعـمان، فـردوا عليـه: حـين تتغـير الأوضـاع، ويكـون لليمـن دسـتور ومجلـس شـورى، وحينـما توجـد حكومـة مسـؤولة سـنعود.[1]

أصبح حـزبُ الأحـرارِ ملءَ سـمع اليمـن وبصرهـا، شـمالا وجنوبًـا، وصـارت لـه أدبياتُـه السّياسـيّة وبرامجـه الثقافيـة، وعـلى رأسـه نعـمان «خطيـب اليمـن» والزبـيري، «شـاعر اليمـن»، وهـما اللقبـان اللـذان خلعهـما عليهـما ولي العهـد أحمـد بتعـز. وكانـا مؤثّرَيـن بقـوة بـين رفاقهـما، لصدقهـما ونزاهتهـما ولسـحر بيـان كل منهـما. فالزبـيري شـاعرٌ، يـكادُ يحـرك الصّخـرَ الأصـمّ بشـعره، موهـوبٌ بالفطـرة، ونعـمان خطيـبٌ مُفـوّه وصاحـبُ لغـة وبيـان، صنعتهـا مـدارس زبيـد وصقلتهـا الأزهـر. وكان الاثنـان في قمـة النشـاط، وفي ذروة العطـاء الشـبابي؛ لاسـيما بعـد عودتهـما مـن مـصر التـي فتحـت آفاقهـما أكثـر. وبمقابـل ذلـك فـإنّ الإمـامَ يحيى في عقـده الثامـن كهـلا، فيـما وليُّ عهـدِه وأفـرادُ حاشـيته يبطشـون بالنـاس وينكلـون، فاكتملـت المعادلـة مـن جانبيهـا.

يقـول الزبـيري عـن نفسـه: كنـتُ أحـسُّ إحساسًـا أسـطوريًا بـأني قـادرٌ بـالأدب وحـده عـلى أن أقـوض ألـف عـام مـن الفسـاد والظلـم والطغيـان. لسـتُ أدري أذلـك مـن تخريـف الخيـال الشـاعري الجامـح؟ أم هـو ومضـة مـن ومضـات الذخـر الصـوفي السـجين في أعماقـي؟[2]

في هـذه الأثنـاء ــ والحـرب العالميـة الثانيـة مشـتعلة، بـين مـا عـرف حينهـا بـدول

(1) ــ مذكرات الأستاذ نعمان، 138.

(2) ــ الأعمال الشعرية الكاملة، محمد محمود الزبيري، 42.

الحلفاء من جهة، وتتزعمها بريطانيا وفرنسا، ودول المحور من جهة ثانية، وعلى رأسها ألمانيا، إيطاليا، واليابان.[1] ــ استغل الإمامُ يحيى ووليُّ عهده السيف أحمد الفرصَةَ فبعث إليهم عامل قضاء الحجرية القاضي حسين الحلالي، وعامل لواء البيضاء، القاضي محمد عبدالله الشامي، للضغط على الإنجليز بتوقيف وحل نشاط حزب الأحرار بعدن، ما لم فسيعمل على تأييد دول المحور. كما أوعز لهما التواصل أيضا مع قيادة حزب الأحرار، وتحديدًا نعمان والزبيري، خاصة وبين الجميع علاقة صداقة، فنجحت ضغوط الإمام على السلطات البريطانية، وفشلت مع نعمان والزبيري. فمنعت السلطاتُ البريطانية نشاطَ حزب الأحرار بعدن، وأغلقت المقر، ومن ثم بحث نعمان والزبيري والموشكي والشّامي وغيرهم عن عملٍ فلم يجدوا غير مدرسة بازرعة الخيريّة، معلمين فيها، ومع ذلك لم تدم وظيفتهم هناك، فقد كان مدير المدرسة علي محمد باحميش من المؤيدين لحكم الإمام وولي عهده، فضايقهم وفصلهم؛ بل وفصلَ بعضَ طلبة المدرسة المؤيدين لهم.[2]

تم توقيف نشاط الأحرار بعدن، بعد حوالي ستة أشهر على إعلانه، أي آخر العام نفسه الذي تأسس فيه، ضمن صفقات الساسة، بعيدا عن مصالح الأمة والشعب؛ لكن همة هؤلاء الأحرار لم تتوقف، وعزيمتهم لم تلنْ، ولم تمثل لهم فترة التوقيف هذه إلا استراحة محارب قصيرة، انتقلوا بعدها إلى طريق جديد من طريق اليقين الثوري، ضمن محطةٍ من محطاتِ النضال الطويل، كما سنرى في الفُصُولِ القادمة.

(1) ــ في جانب الحلفاء: 50 دولة، منها 18 دولة خاضت معارك الحرب. في جانب المحور: 9 دول، منها 7 دول خاضت المعارك.

(2) ــ لمحات من تاريخ حركة الأحرار، 237.

9ـ جمعية الإصلاح

تأسست جمعية الإصلاح مطلع العام ١٩٤٤م، أسّسها القاضي محمد الأكوع والقاضي عبدالرحمن الإرياني، وكان الأكوع رئيسها. وضمت إلى جانبهما كلا من: الشاعر محمد أحمد صبرة والشيخ محمد منصور الصنعاني والقاضي عبدالكريم العنسي والأستاذ عبده محمد باسلامة، وأيضا القاضي محمد بن يحيى الإرياني والقاضي أحمد المعلمي، والشيخ حسن بن محمد الدعيس، الملقب بالفيلسوف، والشيخ حسن البعداني، والشيخ منصور البعداني، والشيخ محمد حزام خالد، والشيخ محمد الشعيبي، وغيرهم.[1]

يقول القاضي الإرياني: وقد وضعنا للجمعية نظامًا وبرنامجَ عمل، وفرضنا ضريبة شهرية وتبرعاتٍ على الأعضاء المنظمين. وجاء من صنعاء القاضي يحيى بن أحمد السياغي والسيد الحر محمد بن أحمد المطاع، واطلعا على برنامج الجمعية، وحضرا بعض جلساتها. وبعد وضع نظام الجمعية وبرنامج عملها والتزام كل عضو بما كلف به تفرق الجمع إلى ما أوكل لكل واحد.[2]

ولأنَّ مثلَ هذه التجمعات والتكتلات من المحظورات في عرف الإمام وأنجاله حينها، فقد كانت الجمعية سرية؛ لكن حين اتسعت دائرة الانتساب إليها خرج السر وفشا، وعرف الحسن بن الإمام يحيى أخبار الجمعية من خلال جواسيسه، وهو من الأمراء المتشددين والأكثر إغراقا في التخلف من كل إخوانه، فكان أن أمرَ بمداهمة المنزل المجتمعين فيه، والذي يتم فيه إيداع الوثائق، ثم اعتقال الموجودين فيه، وإيداعهم السجن، مكبلين بالحديد، وذهبوا لتفتيشِ بيت رئيس الجمعيّة القاضي الأكوع، وفيه عثروا على الوثائق، ومنها نظام الجَمعيّة وعدد من المنشورات التي مثلت قرينة لإدانتهم.[3]

وتمت بعد ذلك مطاردة من تبقى من الأعضاء واعتقالهم، كالقاضي الإرياني، ثم إرسالهم إلى ولي العهد أحمد في تعز، مع آخرين معتقلين تم

(1) ـ انظر مذكرات الرئيس القاضي عبدالرحمن بن يحيى الإرياني، سابق، ص: 117.

(2) نفسه، 117.

(3) ـ نفسه، 118. وعادة ما كانت الاجتماعات بمنزل الأستاذ عبده محمد باسلامة.

إرسالهم من صنعاء، مشيا على الأقدام، ومكبلين بالأغلال، في سلسلة واحدة، وعددهم حوالي ثلاثين شخصا في منظر يبعث على الإشفاق.

وظلوا في سجن ولي العهد أحمد في تعز حتى ٨ ديسمبر ١٩٤٤م، ومنها تم حشرهم في سيارات شحن كبيرة كالنعاج إلى سجن نافع بحجة.[1]

ويذكر القاضي الشماحي أن الجمعية قد أرسلت برنامجها إلى الزبيري، وكان حينها يقيم في عدن، فتولى مطالعته وتوسيعه، وسماه «برنامج الإصلاح» وطبعه، وأرسل منه كميات كثيرة إلى القاضي محمد الأكوع، رئيس المنظمة، ومن أهدافها هو إزالة حكم الإمام يحيى وأبنائه، وهذا هو الهدف الحقيقي الذي تلتقي حوله المنظمات الثلاث:

١ـ هيئة النضال، برئاسة المطاع، في صنعاء.

٢ـ حزب الأحرار بعدن، بقيادة نعمان والزبيري

٣ـ جمعية الإصلاح في إب.[2]

مضيفا: وهذه المنظمات الثلاث، وإن اختلفت في بعض الخطط ومواد النظام فإنها وبقية قوى المقاومة يتفقون جميعا في هدف واحد هو نسف حكم الإمام يحيى وأسرته. حول هذا الهدف كان لقاء كل الفئات بعقيدة لا تقبلُ جدلا ولا مناظرة. إنها أصبحت عند الجميع كالشهادتين، محور الإيمان..[3]

كما ذكر أيضًا أنَّ أعمالَ الجمعيّة قد امتدت خارج إب، إلى كل من ذمار ومعبر وصنعاء، ثم تعز بعد ذلك؛ حيث قام مندوب الجمعية القاضي إسماعيل الأكوع بحمل منشوراتها وبرامجها إلى هذه المدن، ويقابل الشخصيات البارزة مثل: المطاع وعبدالسلام صبرة ومحمد بن حسين عبدالقادر، إلا أنه قد قبض عليه بمعبر أثناء عودته، وقبل أن يتم القبض عليه استطاع حرق الوثائق التي كانت بحوزته، حتى لا تؤكد التهمة الإمامية عليه.[4]

---

(1) ــ نفسه، 119. وكان من ضمن المتعقلين الذي تم إرسالهم إلى حجة بهذه الطريقة شيخ طاعن في السن يزيد عن ثمانين عاما، اسمه محمد حسان، من تعز، صوفيا يزوره الناس، فرآه السيف أحمد خطرا عليه. مات في السجن في حجة بعد أشهر من وصوله إليها،

(2) ــ اليمن الإنسان والحضارة، الشماحي، 210. وانظر أيضا التاريخ العام لليمن، الحداد، سابق، 114/3.

(3) ــ نفسه، 216.

(4) ــ نفسه، 212.

10ـ في طريـــق اليقين 2

الجمعيّـة اليمانيّـة الكـبرى

إنّ تعـدّدَ المحطـات وتنـوعَ القنـواتِ التي تعـارضُ أي حكـم سياسي أو تناوئُه دليـلٌ قاطـعٌ عـلى صلافـة هـذا الحكـم وجمـوده وتخلفـه، لا عـلى فشـل المعارضـين.

وتَعـدُّد محطـات المعارضـة للنظـام الإمامـي وتنـوُّع قنواتهـا فـوق أن تعـد، منـذ البواكـير الأولى لـورود الإمامـة نفسـها إلى اليمـن؛ ذلـك لأنّ الإمامـة مرتكـزةٌ عـلى فكـرةٍ دينيـة كهنوتيـة محرفـة، هـي في جوهرهـا نظريـة سياسـية موغلـة في تخلفهـا ورجعيتهـا، وهـذا هـو سرُّ صراع اليمنيـين معهـا عـبر الزمـن.

ومـن يتتبـع أسـاليبَ المعارضـة السياسـية وطرائقهـا مـع هـذا الكيـان يكتشـف أنَّ جميعَهـا لم تفلـح معـه، عـلى حكمتهـا وعقلانيّتهـا ومرونتهـا، ولم تفلـح معـه إلا القـوة فقط.

مثلـت الجمعيـة اليمانيـة الكـبرى المحطـةَ الثانيـة في طريـقِ اليقـين الثـوري الـذي اختطـه المناضلـون الأحـرار، وفقًـا لإشـارة الشـهيد محمـد محمـود الزبـيري، عقـب محطـة «حـزب الأحـرار» الـذي حـرك الميـاه الراكـدة، وألهـبَ المشـاعرَ، ولفـتَ أنظـار النـاس إلى حقيقـة الكهانـة الإماميـة التـي يمارسـونها ضـد الشـعب زورًا وبهتانـا، وأسـس لمـا بعـده.

عـلى أيـة حـال.. بعـد عـودة الكثـير مـن قيـادة وأعضـاء حـزب الأحـرار إلى شـمال الوطـن، بقـيَ نعـمان والزبـيري، ومعهـما الأديـب والشـاعر عبـدالله عبدالوهـاب نعـمان «الفضـول» في عـدن، رغـم شـظف العيـش ونفـاد مـا يملكـون جميعًـا مـن نقـودٍ تمكنهـم مـن البقـاء هنـاك، حتـى فكـرا أيضـا بالعـودة، لـولا اتصـال رجـل الأعـمال اليمنـي في الحبشـة أحمـد عبـده نـاشر ومعـه صديقـه عبدالغفـار زيـد الأصبحي بالزبـيري ونعـمان، طالبَـين منهـما البقـاء ومواصلـة النشـاط، ومتكفلَـين بتوفـير نفقاتهـما الضروريـة، حسـب روايـة المناضـل محمـد عبدالواسـع سـلام «الخويـل»، وأرسـل لهـما مبلغـا ثلاثمئـة روبيـة، يسـتطيعون البقـاء عليهـا لمـدة ثلاثـة أشـهر. وهـو مـا تـم بعـد ذلـك.

المهم.. في ٤ يناير ١٩٤٦م، وعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، ورفع الأحكام العرفية الطارئة في عدن، عادَ الأستاذان: نعمان والزبيري نشاطهما من جديد، مستصدرين من السلطات البريطانية ترخيصًا بتأسيس حزب سياسي، في صورة جمعية، وأيضا ترخيصًا بإصدار صحيفة خاصة بالحزب. وهو ما تم فعلا بعد أيام قليلة؛ إذ أسّسُوا «الجمعية اليمانية الكبرى» برئاسة الأستاذ الزبيري، وسكرتارية الأستاذ نعمان. كما حصلوا على ترخيص بإصدار صحيفة «صوت اليمن» برئاسة الزبيري، وإدارة الأستاذ نعمان.

ويتضح من دلالة المسمى «الجمعية اليمانية الكبرى» أنها تشملُ اليمن كله، شماله وجنوبه، اليمن الكبرى، وهي إحدى اللمحات الذكية التي قصدها كلٌ من الزبيري ونعمان على ما يبدو؛ كون اليمن واحدة، وكون القضية اليمنية واحدة: احتلال في الجنوب وطغيان في الشمال.

أهداف الجمعية

بحسب ما ذكره الأستاذ عبده حسين سليمان أدهل، كانت أهداف الجمعية، وفقا لمن نشره محمد علي لقمان، هي:

١ـ تأسيس حكومة دستورية برلمانية

٢ـ رفع منار الجيش اليمني وزيادة مقدراته[1]

٣ـ إلغاء الخطاط والتنافيذ[2]

---

(1) ـ يبدو المقصود هنا غامضًا بعض الشيء، ولعله يقصد رفع أجور الجيش.

(2) ـ الخِطاط: تعبير محلي، ويعني أن يدفع الإمام قبيلة ما للهجوم على أخرى، لا لتقضي على شوكتها فحسب؛ بل ولتقيم لديها إقامة كاملة، حتى تعلن الأخيرة طاعتها للإمام، أو حتى تدفع ما لديها من متأخرات مالية. وكان المقصود من وراء الخِطاط هو إخضاع الأهالي «المُخط عليهم»، إذ كان من واجبهم أن يفسحوا في منازلهم، ليقيم هؤلاء الجنود أو الأتباع، وأيضا كان على الأهالي «المُخط عليهم» أن يقدموا لهؤلاء الضيوف ما لديهم من الغذاء والشراب، كذلك القات طوال مدة إقامتهم، وكان هذا كله يؤدي إلى إفقار «المخطط عليهم»، وبالتالي إلى إذعانهم إلى ما يريده الإمام. انظر: **وثائق يمنية دراسة وثائقية تاريخية، د. سيد مصطفى سالم، ط:2، 1985م، 105.** وقد يكون هذا الخِطاط لأيام وقد يكون لشهور، حسب القضية ودرجة العامل أو العمال، مع ما يصاحب ذلك من الأذى المادي والمعنوي للناس. والتنافيذ الأوامر القهرية الصادرة على الرعية لأتفه الأسباب، والتي يتحمل تكاليف أعبائها المواطن بحسب المسافة التي يقطعها الجندي، أو لقبه الوظيفي، أو مكانته من العامل أو الإمام.

٤ـ منع العمال ورجال الحكومة من الاشتغال بالتجارة[1]
٥ـ حرية القول والعمل
٦ـ الاهتمام بالصحة وبناء المستشفيات
٧ـ رفع شأن الموظفين
٨ـ بقاء المشايخ والعقلاء والعلماء في مراكزهم.[2]

الجمعية.. واحدية النشاط الوطني

لم يكن نشاط الجمعية محصورا على المناضلين الأحرار من أبناء الشطر الشمالي من الوطن فحسب؛ بل لقد اشتركت عناصر جنوبية كثيرة في نشاط الأحرار، بما في ذلك آل لقمان الذين تأثروا بالزبيري، وصارت صحفهم تتحدث عن التخلص من الاستبداد في الشمال والاستعمار في الجنوب. وكان من الجنوبيين الذين تعاونوا مع الأحرار أسرة آل "الأدهل" وآل الجفري وآل خليفة، وآخرون تأثروا بحركة الأحرار الشماليين، رغم كونها في عدن، لأنها أكثر نشاطا.[3]

العودة من الصفر

على أية حال.. عادَ الزبيري ونعمان نشاطهما من جديد، ومن نقطةِ الصفر أيضا، ولما لم يستطيعا إصدار صحيفة صوت اليمن التي استخرجا لها التصريح، كانا ينشران أخبار نشاطهما في صحيفة «الرابطة العربية» التي كانت تصدر من مصر، برئاسة عبدالغني الرافعي[4]، ثم جريدة الصداقة التي كان يديرُها الشهيد محمد صالح المسمري ويحيى زبارة وسلام فارع. ويبدو

(1) ـ المقصود بالعمال هنا: عمال النواحي والقضوات.
(2) ـ الاستقلال الضائع الملف المنسي لأحزان اليمن الجنوبية، عبده حسين سليمان أدهل، دار العهد للطباعة والنشر، ط:2، 1993م، 172.
(3) ـ نفسه، 171.
(4) ـ عبدالغني الرافعي، صحفي مصري. والرابطة العربية صحيفة كانت تصدر في مصر.

أنّ الإمامَ يحيى وولي عهده أحمد كانا يتابعان هذا النشاط بكل تفاصيله، فانزعجا له من جديد، وأرادا تكرار التجربة السابقة مع الإنجليز في عدن، إلا أنّ الأمورَ قد تغيرت، ولم يعد بيد الإمام ما يضغط به على الإنجليز، فبعث القاضي راغب ــ الذي كان بمثابة وزير خارجية الإمام يحيى، وهو من الأتراك الذين بقوا في اليمن ــ إلى عدن، وذلك لإقناع الإنجليز بسحب التصريح عنهم، فرد عليه حاكم عدن الإنجليزي يومها ردا قاسيا، بالقول: «نحن لا نستطيع أن نلغيَ شيئا يقره القانون، ولا نستطيع تغيير القانون البريطاني لمنع الحريّات، بالإضافة إلى أن معاملة اليمنيين في اليمن معاملة سيئة، فقد وصل إلى عدن حتى الآن ٢٥ ألف لاجئ، غير مَن هم أصحاب أعمال، ويبلغون حوالي مئة ألف، قدموا من اليمن. فما هذا؟ لماذا لا تحسّنون الأحوال في اليمن؟!»[1]

ولما عاد كسيرًا حسيرًا، دون تحقيق أي إنجازٍ يُذكر، زار عدن وليُّ العهد بنفسه بعد ذلك، واستقبله كثير من المغتربين من أبناء الشمال هناك، يعرضون شكاواهم عليه، بسبب تعسفات عماله وجنوده تجاه أهلهم في الأرياف، وأثناء إقامته بعدن اختفى الأستاذان في منزل أحد أصدقائهما من طائفة البهرة، بعد نصيحة أحد أصدقائهما من مرافقي الإمام. ومن عجائب ولي العهد أحمد ــ وعجائبه كثيرة ــ أن زار مدرسة بازرعة التي كان يدرس فيها بعض الطلبة اليمنيين، وطلب من مديرِ المدرسة فصل الطالبين: محمد أنعم غالب ومحمد أحمد نعمان، وكانا يدرسان فيها، وذلك لموقفهما السياسي المعارض له.![2]

ويكشف لنا هذا التصرف الهزلي عن مدى العقلية الطفولية التي كان يحملها أحيانا. كيف وهو ولي عهد اليمن، وعمليا بمثابة الإمام، ومع هذا يذهب إلى مدرسة في دولة هي حينها في حكم الدولة الأجنبية، طالبًا فصل طالبين من المدرسة..!

وخلال تلك الزيارة قدم الأحرار بعدن خمسة مطالب باسم الجمعية

(1) ــ مذكرات الأستاذ نعمان، 139.

(2) ــ لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، 254.

اليمانية الكبرى، كشرط لعودتهما التي يصر عليها، وإذا لم يكن لديه القدرة على تنفيذها في ذلك الوقت، فعليه أن يتعهد بتنفيذها حين يخلف أباه، فرفض ولي العهد قبول هذه المطالب العامة، قائلا: «الشعبُ شعبي، والبلادُ بلادي، فإذا كان لهما مطالب خاصة يتقدما بها».[1]

وهذه هي المطالبة الخمسة العامة التي تقدمت بها الجمعية اليمانية الكبرى:

١ــ تأسيس مجلس شورى للدولة، يتكون من علماء البلاد وأعيانها وأولي الرأي فيها، وتكون مهمته الإشراف على أعمال الوزارة المسؤولة، ودراسة المشروعات اللازمة لرقي البلاد وإنهاضها، ووضع المقترحات، وإصدار الأنظمة.

٢ــ تُشكل وزارة من رجال البلاد الأكفاء، يكون لها منهج إصلاحي شامل، وسياسة مرسومة تقوم على أساس إنهاض البلاد، ثقافيا وصحيا وأخلاقيا واقتصاديا وسياسيا، وتكون مسؤولة أمام مجلس الشورى، وأمام ملك البلاد "جلالة الإمام" كما هو الحال في العربيات الشقيقات.

٣ــ احتفاظ سيوف الإسلام بمكانتهم كأمراء، وابتعادهم عن تولي المناصب في الدولة، وإعفاؤهم عن المسؤولية، حفظًا لكرامتهم.

٤ــ استصدار منشور ملكي من جلالةِ الإمام بشأن تأسيس الوزارة المسؤولة، وتشكيل مجلس الشورى، وضرورة المبادرة في تنفيذ السياسة الإصلاحية، تمشيًا مع تطورات العصر، وعلى ضوء مبادئ الجامعة العربية.

٥ــ الموافقة على تشكيل لجنة مراقبة من المواطنين، يكون مهمتها مراقبة تنفيذ المطالب السالفة، على أن يكون مقرها محايدا، مثل عدن أو القاهرة.[2]

وفي محاولة بائسة حاول الإمام يحيى وولي عهده أحمد صناعة جمعية مناوئة لها

(1) ــ نفسه، 256.

(2) ــ نفسه، 256. وانظر أيضا اليمن تحت حكم الإمام أحمد، د. أحمد عبيد بن دغر، 223.

في عدن نفسها، تنادي بالإصلاح السياسي، في ظاهرها المعارضة، وفي باطنها محاولة استقطاب الشخصيات المهمة في صف الزبيري ونعمان، وصرفها عن الهدف النبيل والهم الوطني، وعن رجال المعارضة الحقيقية، كما يفعل بعض السياسيين ف تفريخ بعض الأحزاب والتيارات، هذه الجمعية اسمها «جمعية الشباب اليمني الجديد» ولهم صحيفة خاصة، مناوئة لصحيفة الجمعية، اسمها صحيفة «سبأ». ويبدو أن الإمام وولي عهده قد تعمدا اختيار اسم تاريخي، له بريق جذاب، يستهوي ذوي النزعة الوطنية، من الشمال والجنوب على حد سواء، ويستميل المثقفين. كان من أبرز رموزها الشيخ عزيز حمود الزنداني ومحمد علي طه الهتاري ومحمد باحميش ومحمد عبده صالح الشرجبي وعمر عوض بامطرف وأحمد عبدالله عشيش، وآخرون.[1]

وقد تكلم البردوني عن هذه الصحيفة ودلالة التسمية، قائلا: ولعل نشر صحيفة بعنوان سبأ التي بدأ صدورها في عدن عام ٤٦م، باسم الشباب، ثم انتقلت إلى تعز أحرّ إثارة للحس اليمني. فما كان يجرؤ أحدٌ أن يتحدثَ عن سبأ ومعين إلى جانب المنصور والمتوكل والقاسم، غير أن الزمن تغير، وحاولت السلطة امتلاك قيادِه قبل أن تسبقَها طلائعُ الشعب إليه، إلى حد أن الإمام أحمد سمى الطائرات بأسامي يمنية: بلقيس، شبام، ظفار، بالإضافة إلى الباخرة معين، ولكن السلطة الإمامية نظرت إلى القشرة الخارجية للواقع، دون أن تسبر أغوار الشعب..[2]

شراء مطبعة

في هذه الأثناء لحق المناضل جازم الحروي برفاقه الأحرار إلى عدن، بعد أن هدم الإمام بيته، وقد اتهمه بتهريب نعمان والزبيري إلى الخارج، خاصة وقد وقعت بين يدي ولي العهد قصيدة مدحٍ بخط الزبيري في جازم الحروي،

(1) – انظر: اليمن تحت حكم الإمام أحمد، د. أحمد عبيد بن دغر، 229.

(2) – اليمن الجمهوري، 377.

وفيها يشيد بمناقبه، وبكرمه عليه، ومنها:

ألا فليعشْ في مهجة الشعب جازمُ تُغذي بها أيامهـا والعزائمُ
فتًى راعني بالبـذل حتى ظننتُه ملاكا طهورًا أنجبتْه الغمائم

ووفقا للأستاذ نعمان، فقد استفزت القصيدةُ وليَّ العهد أحمد، خاصة البيت الذي يقول:

فبالله قل لي كيف جئتَ مهذبًا نبيلا وما بالحي إلا السّوائم

أي أنه لا يوجد في اليمن من الرجال الكرام غير جازم.[1]

واستطاع كلٌ من: جازم الحروي في عدن، والتاجر أحمد عبده ناشر في الحبشة، ومحمد صالح المسمري في القاهرة شراء مطبعةٍ خاصة بالجمعية من مصر، وكانت قد استخدمت من قبل، واسمها مطبعة نهضة مصر، وفي الرسالة التي نشرتها جريدة فتاة الجزيرة العدد ٣٣٤، ١١ أغسطس ١٩٤٦م، مذيلة باسم الجمعية اليمانية الكبرى سمتها مطبعة النهضة اليمانية. ويحمل هذا الخبر الذي يُعتبر بمثابة بيان روح التحدي والإصرار الذي استعاده الأحرار، كما ينطوي على بعض التشفي من ولي العهد الذي رجع من عدن بخفي حنين، ولم يستطع إقناع السلطات البريطانية هناك بتوقيف نشاطهم، كما حدث سابقا.

وكانت قيمة هذه المطبعة قد تم جمعها بالتبرع من اليمنيين في الخارج، بواسطة الشيخ المناضل جازم الحروي، الذي انضم إلى صفوف الأحرار خلال هذه الفترة.[2]

يقول نعمان: «وصل جازم بالمطبعة بنفسه إلى عدن وركبها. تحيّرنا فيمن يطبع. أتى برجلٍ من أديس أبابا. يمني يُجيدُ الطباعة.. فأتينا بهذا الرجل إلى

(1) ــ مذكرات الأستاذ نعمان، 141.

(2) ــ من عجيب أمر هذه المطبعة أنه بعد فشل ثورة 48م وتفرق الثوار الأحرار في الأقطار، بقيت المطبعة في عدن، وعلم الإمام أحمد بذلك، فأبدى رغبته للشيخ البيحاني ــ الوسيط بينه وبين الأحرار ــ بشراء هذه المطبعة، ونقل الشيخ البيحاني الفكرة إلى الثوار، فوافقوا على بيعها للإمام، وفعلا اشتراها منهم بمبلغ رمزي، ونقلها إلى تعز، وكان يطبع بها صحيفته الخاصة التي أسسها بعد انتصاره، وسماها «النصر» والتي تحولت فيما بعد إلى صحيفة «الجمهورية» بعد الثورة.

البيت في الليل، وكان يرصف الحروف في البيت، وفي الليل يطبع. وتدرب على يده مجموعة من اليمنيين، وحالا أجادوا الطباعة".[1]

صحيفة صوت اليمن

اهتم الأحرار بإيصال صوت النضال إلى المواطن اليمني أينما كان، وكذا معرفة مظالم الناس ونشرها، ففكروا في إصدار صحيفة خاصة بالجمعية، وترك الاعتماد على صحف الغير، فكانت صحيفة «صوت اليمن» الصادرة عن الجمعية، والتي صدر العددُ الأول منها بتاريخ ٣١ أكتوبر ١٩٤٦م. ووفقًا للأستاذ نعمان: « صدر العدد الأول من «صوت اليمن» والعدد الثاني، وإذا بضجّة هائلة في اليمن من أقصاها إلى أقصاها..».[2] وكان ومن أبرز كتاب الصحيفة آنذاك: الزبيري ونعمان وعبدالله عبدالوهاب نعمان، والشيخ محمد بن سالم البيحاني.

يقول عنها عبدالغني مطهر: «وصدرت فعلا جريدة صوت اليمن فكان لها وقع الصاعقة على السيف أحمد، وكان لها الفضل في انتشار الوعي الوطني داخل اليمن وفي المهجر».[3]

وكأي بداية لأي فكرة أو مشروع لا بدّ من معاناة البدء، وقد عانى الأحرار في بداية الأمر، جراء بعض الإجراءات النظامية لسلطات الاحتلال آنذاك. ففي يوم صدور العدد الأول من جريدة صوت اليمن لم تسمح السلطات بعدن لـ عبدالله طاهر، الخبير برصف حروف المطابع وتشغيلها الذي أرسله أحمد عبده ناشر من الحبشة، لتدريب العمّال. لم تسمح له السلطات

---

(1) ــ نفسه، 142. بحسب علي محمد عبده فإن الذي عمل على تركيب المطبعة لأول مرة ليلة وصولها سعيد الدمشقي، والذي ذكر المناضل عبدالغني مطهر في مذكراته أنه استدعي من صنعاء لهذا الغرض، واسم الخبير اليمني الذي وصل لاحقا من لدن أحمد عبده ناشر عبدالله طاهر، وعمال المطبعة: عبدالله عبدالوهاب نعمان، وعبدالرحمن أحمد قاسم، وحسين عبدالحق، ومحمد عبدالله الفسيل.

(2) ــ نفسه، 142.

(3) ــ يوم ولد اليمن مجده ذكريات عن ثورة 26 سبتمبر، عبدالغني مطهر، د، د. 19.

بالاستقرار في عدن بادئ الأمر، مع أنه من أبناء اليمن، هاجر إلى الحبشة. فاستقر في دار سعد، خارج مستعمرة عدن، فكان جازم الحروي ينقل له المقالات والحروف إلى دار سعد؛ حيث كان يقوم برصف الحروف، ويعود جازم لنقلها إلى المطبعة في عدن، وكان أحيانا يُخفي عبدالله طاهر في سيارته، وينقله إلى عدن، إلى أن تم رفع الحظر عليه من دخول عدن.[1]

وهكذا كانت البداية، بمعاناتها ومرارتها، وكان التحدي والإصرار من قبل الأبطال الذين أسسوا لليمن الجمهوري. فكانت صحيفة «صوت اليمن» الشرارة التي ألهبت السهل والجبل، والضوء الذي انقدحت أنواره على الجميع.

صحفٌ أخرى

وفقًا لشهادة الرئيس عبدالله السلال، أول رئيس للجمهورية بعد الثورة، في إشارته لصحيفة صوت اليمن، وبعض الصحف الأخرى، قال: واتفق صدورها في وقتٍ كان الأستاذان الشهيد أحمد الحورش والأستاذ محي الدين العنسي قد وصلا إلى مصر بعد فرارهما إثر إطلاق سراحهما من السجنِ ومعهما الأستاذ محمد المسمري ويحيى زبارة ويحيى الوادعي. وقد بدأوا العمل الوطني هناك بالاتصال بجماعة الإخوان المسلمين بزعامة الشهيد حسن البنا، وكان الهدف الرئيس هو بث الوعي وتحرير المقالات في الصحف التي كانت تفضح نظام الإمامة المتخلف والمتحجر، وتشرح العزلة الرهيبة والسجن الكبير الذي كان يعيش فيه الشعب اليمني، ومن هذه الجرائد جريدة الشباب التي كان يتولى تحريرها محمد علي الظاهر، ومجلة الرابطة العربية، ثم أصدروا بعد ذلك جريدة الصداقة التي كانت تصل ومعها جريدة صوت اليمن التي كانت تصدر في عدن، وتصل من البيضاء بواسطة المجاهد الكبير

(1) ـ لمحات، 264.

محمد حسن غالب، إلى أخيه مجاهد حسن غالب، في وقتٍ تنامى فيه الوعيُ الوطنيُّ عند قِطاع كبير من العسكريين والمدنيين.[1]

أيضا كانت جريدة «السلام» التي أسسها الشيخ عبدالله الحكيمي في كارديف ببريطانيا آخر الأربعينيات صوتًا من صوت الأحرار التي تبنت قضيتهم، وللعرب عموما هناك؛ كونها من أوائل الصحف العربية التي تأسست في بريطانيا، كما شكلت أيضًا رافدًا جديدا من روافدهم الثقافية خلال تلك الفترة؛ لاسيما وقد كان الشيخ الحكيمي ذا ثقافة عالية وفكر مستنير، ينعكس ذلك في كتابه «دين الله واحد».

انضمام السيف إبراهيم بن الإمام يحيى

ذكر الجاحظ في الحيوان أنه لا يستطيع حيوانٌ أو حشرة ما مُسَاكنة الحيّة في جُحرها عدا الوزغة فقط. ربما لأنها من جنسها، من الخبائث الضّارة، والتي تُقتلُ في الحل والحرم.

كذلك الشّأنُ مع الطاغية المستبد، يصعب مساكنته أو معايشته من قبل من له أدنى إحساس بالحرية والكرامة والذوق السليم، ولو كان أقرب المقربين له. تنفر منه حتى الكائنات والحيوانات، ناهيك عن بني البشر؛ لأنه مجرد مسخ، مقطوع الصلة بالإنسانية، أينما اتجه لا يرى إلا ذاته، يرى نفسه هو الحق، والحق هو، وما عداه لا وزن له ولا قدر؛ لهذا قرر الطاغية الفرعون: ما (علمت لكم من إله غيري). مؤكدا: (ما أريكم إلا ما أرى)، وكم في الناس من فراعين كثر عبر كل زمان، وفي كل مكان.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإمامة عبر تاريخها عبارة عن ظاهرة انشطارية في بنيتها القيادية، ومن يستقرئ تاريخها منذ البداية وحتى اليوم، يجد أنه ما من إمامٍ إلا وخرجَ على مَن قبله، وخرج عليه مَن بعده، وقد يخرج على الإمام

(1) ــ وثائق أولى عن الثورة اليمنية، المشير عبدالله السلال، القاضي عبدالرحمن الإرياني، القاضي عبدالسلام صبرة، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط:2، 1992م، 17.

الواحد أكثر من خارج، كل يدعي لنفسه الأفضلية، ويرى لذاته الأولوية في الحكم، ولطالما خرج الابن على أبيه، وخرج الأخ على أخيه، وهكذا فالنظرية الهادوية نظرية فوضوية، يبتدئ كل حاكم فيها حياته بالسيف والدم، وينتهي بالسيف والدم، وما بين سيف البداية وسيف النهاية مئات السيوف المشرعة والدماء المُسالة. وقد ناقشنا ذلك بتفصيل في كتابنا: الهادوية بين النظرية السياسية والعقيدة الإلهية. وأيضا في كتابنا: سيكولوجيا النظرية الهادوية في اليمن قراءة في البنية النفسية للنظرية، مستعرضين قائمة الخارجين بالقوة على من قبلهم.[1]

على أية حال.. لم يستطع بعضُ أبناء الطاغية يحيى حميدالدين مساكنة والدهم أو معايشته، لطغيانه واستبداده، ولجموده وتخلفه، فندُّوا منه ونفروا بعد أن عارضه بعضهم سرًا، وآخرون جهرًا.[2]

ومن أولاد الطاغية يحيى حميدالدين الذين ضاقوا بطغيان والده وبطشه نجله السيف إبراهيم[3]، والذي التحق بالأحرار في عدن، وقدر غادر صنعاء إلى الحبشة للعلاج هناك، ويُقال: أنه أراد الذهاب إلى مكة المكرمة للإقامة فيها، فمر على الحبشة، وهناك ــ كما يذكر علي محمد عبده ــ قرر الانضمام إلى حركة الأحرار، بعد أن سلمه أحمد عبده ناشر رسالة كان قد بعث بها إليه الزبيري ونعمان، يدعوانه للانضمام إليهم، فسلمها ناشر لسكرتيره المرافق له أحمد البراق، ثم دخل على الأمير، فاطلع على الرسالة، ورد: «أنا مستعدٌ أنضم إلى الجمعية اليمنية الكبرى، ولكن لا لإصدار صوت اليمن، وغيرها من النشرات؛ بل للقيام بحركةٍ، لأحررَ الشعبَ اليمني من الطغيان، بعد أن أصبح الإمام آلة بيد أولاده، وبمقدوري تجهيز مئة ألف مقاتل، فقط أريد من رجال الجمعية المال والسلاح».[4]

---

(1) ــ انظر سيكولوجيا النظرية الهادوية في اليمن قراءة في البنية النفسية للنظرية، د. ثابت الأحمدي، مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام، ط:1، يناير، 2021م، 28 فما بعدها.

(2) ــ ممن خرج على الطاغية يحيى من أبنائه أيضا: ابنه إسماعيل، وعلي، وقد حاول إسماعيل التسلل إلى عدن بصحبة الشيخ صالح المقالح إلا أنه تم القبض عليه وإعادته إلى صنعاء.

(3) ــ كان لقبه السابق سيف الإسلام، وحين انضم للثوار، سحب والده عنه اللقب، فخلع عليه الأحرار لقب «سيف الحَق» بدلا عن سيف الإسلام، اللقب الرسمي لأولاد الإمام.

(4) ــ لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، 268. ذكر الكاتب حميد شحرة في كتابه «مصرع الابتسامة»=

فرد عليه أحمد عبده ناشر: «اطمئن، وأؤكد لك أنك متى تزعمتَ الحركة فإنّ السلاحَ والمالَ سيوجدان، المهم أولا انضمامك إلى الحركة وتزعمها».[1]

تم التواصل مع الأحرار إلى عدن والترتيب لاستقباله، ورتب له الأحرار سكنا، كما اشتروا له سيارة خاصة به، فوصل عدن في يوم الأربعاء ٢٧ نوفمبر، ١٩٤٦م، ومن عدن بعث رسالة لأخيه السيف أحمد، قال فيها: «أخي أحمد أمير لواء تعز، حفظه الله، وبعد: فإنَّ الحاضرَ يرى ما لا يراه الغائب، وقَدْ رأيت المناظرَ التي توجب غضبَ الله علينا، رأيتُ اليمانيين المشردين العُراة الجائعين في كل شَارعٍ ومحلٍ في أسمرة وأديس أبابا وعدن وغيرها، ورأيتُ اليمانيين الذين يشكونَ أشدَّ أنواع الظلم الذي نزل بهم من أولي الأمر في اليَمن، فتركوا بلادهم فرارًا من الظلم الصَّارخ الذي أصابهم، وسمعتُ ما أذهلني، ولستُ بحاجةٍ إلى شَرح قضايا اليَمنِ التي تعلمونها ــ والله ــ وتتغافلون عنها، غير أنه يجبُ عليَّ أن أحيطكم علمًا أنَّ موقفَكم وموقفنا وموقف الحكومة محاطٌ بالخطر، ولذلك فأنا لا أسْتطيع الرجوعَ إلى اليَمن بعدما تجلت لي الحقيقةُ الناصعَة، بيد أني أنصحُكم نصيحة أخ لكم أن تبدّلوا خطتكم القاسيَة، وأحكامَكم التي جلبت السخطَ وحبَّ الانتقام في النفوس. ومتى أعلنتم ذلك، وقبلتم مطالب الشعب، المتمثلة في أحراره، متى أعلنتم ذلك ملكتم النفوس، وانقاد لكم الشعبُ الذي أصبح يغلي كالمرجل من أقصاه إلى أقصاه، وأنا ليس لي أي عدو، ولا أطمع في منصبٍ أو مال؛ بل غاية ما أتمناه هو إنقاذُ هذا الشّعبِ المنقاد الذي أطاعنا طاعة عمياء، وسلمنا

=أن انضمام سيف الحق إبراهيم للأحرار في عدن عام 1946م لم يكن إلا محاولة منه لإنقاذ أسرته الحاكمة، وليس خروجًا عليها.

(1) ــ نفسه، 268. يذكر المؤلف أن الأمير إبراهيم قبل أن يغادر الحبشة تكفل اثنان من الأحرار هنالك، وهما: أحمد عبده ناشر، وعبدالقوي مدهش الخرباش للأستاذ أحمد محمد نعمان بأنهما سيتحملان مسؤولية الإنفاق على الأمير إبراهيم بعدن، وتحمل تكاليف معيشته اليومية، وهو مبلغ تسعمئة روبية شهريا، تقاسماها فيما بينهما، وكانت تصرف بواسطة أمين مال الجمعية عبدالعزيز الحروي؛ إذ كانت فواتير إقامته ومأكله في فندق «إحسان» تُدفعُ أولا بأول، وعندما انتقل للطابق الذي خصص لإقامته في دار الجمعية استمرت مخصصاته الشهرية تُدفع له بانتظام، دون أن يكون لديه أي علم أو معرفة بمن يدفع له ذلك، أو كيف دبرت له أموره المالية.

زمامه فلم نحسن قيادته. هذا الشعب الذي أذللناه أصبح في حالة توجبُ عطف العالم العربي والإسلامي عليه. هذا ما أراه، وهذه نصيحة أخٍ مخلص، وقد أخبرتُ الصّنو حسين الويسي بما فيه الكفاية، والسّلام عليكم».

أخوكم: إبراهيم، عدن، في ٢ محرم سنة ١٣٦٦هـ. [1]

بعد هذا يقول الأستاذ نعمان: «نزل السيد أحمد الشامي ــ وهو صديقنا ــ من عند ولي العهد أحمد، لكي يستدرج إبراهيم من بيننا، ويعيده إلى اليمن[2]، وكانت هذه أول ضربة توجه إلى الأحرار لو نجح. كان له تأثيرٌ على سيف الحق، وكان نقيًا. كان يتحلى بالبساطة أحيانا، ويؤثّرون عليه، ولكنه كان قويًا في هذا الموقف».[3]

ويسردُ لنا الأستاذ نعمان واحدة من أبدعِ قصص البراعة السياسية التي عُرف بها في أحرج اللحظات. يقول عن السَيف إبراهيم مع جواسيس ولي العهد الذين أتوا إلى عدن عقب انضمامه للأحرار، وقد بدأوا في التأثير عليه: «تفاهمَ معهم على أن يسددوا ما عليه من ديون، وما عليه للفندق، ولأحدِ التجار، ويأتوه بأمان من عند أخيه أحمد بألا يناله أيُّ مكروه. رحبوا بهذه الفكرة، ودفعوا للفندق في حين كنا نحن قد أعددنا له سكنًا مستقلا، وتفاهمنا معه على أن يرتب حاله. وعند الخروج للعودة معهم سينتقل إلى المكتب. ذهبتُ أنا أشتكي إلى بعض الأشخاص، أشتكي سيف الحق إبراهيم، وكنا كلفنا الزبيري بأن يقوم بهذا الدور، ولكن الزبيري قال: أنا لا أطيق ذلك. قلت له: الحربُ خدعة، ونحن في حرب. قال: اخدع بالنيابة عني. فذهبتُ إلى أحدِ الأشخاص من أنصارِ الإمام أحمد، والذين يريدون من إبراهيم أن يعود، وقلت لهم: هذا لا خير فيه. غدرَ بنا، وصنع بنا كذا. قلت ذلك، ليثبت لهم أن الأمير إبراهيم في أيديهم. وذهبتُ إلى إبراهيم، وأخبرته بالحقيقة، وأنني رتبتُ كذا، فسددوا أولا حساب الفندق، وتحملوا عشرة آلاف روبية لتاجرٍ

(1) ـ من الأنين إلى الثورة، د. عبدالعزيز المقالح، دار العودة، بيروت، ط:1، 1988م، 59.

(2) ــ يقصد بذلك اليمن الشمالي، وكانت هي التسمية السائدة حينها.

(3) ــ مذكرات أحمد محمد نعمان، 145.

كان الأمير إبراهيم مدينا له؛ لأننا كنا نتحمل نفقاتٍ كبيرة للأمير إبراهيم، ونريد أن نسددها. فهذه مساعدات خاصة، والناس قد يضيقون إذا لم نقتصد، فتحمّل ذلك التاجر الذي شكوت له من إبراهيم[1] النفقات، وخرجوا وهو معهم. فقال لهم: أريدُ أن أمرّ لأودع الزبيري ونعمان؛ لأنهم يطالبونني بمبالغ، سأستقلُّ معهم السيارة. خرجنا نحن، وهو معنا في السيارة، وهم خارجون بعده بسيارة إلى الطريق في اتجاه تعز. وقد أبرقوا إلى ولي العهد بأنه سيصل في تلك الليلة. رجعنا إلى دار النهضة، وكنا قد استأجرناها بعشرين ألف روبية، قسمٌ منه للأمير إبراهيم، وقسمٌ للأعضاء، وقسم للمكاتب. وقد نشرت الصحف هذه القصة».[2]

وهكذا أضاع نعمان بدهائه الحيلةَ على جواسيس ولي العهد، واستبقى الأمير إبراهيم معه، رغم الخطة التي كانوا قد أبرموها؛ مواصلين العمل في الجمعية بروح التحدي، ومواصلين تواصلاتهم مع المناضلين في بلاد المهجر.

وأدى انضمام إبراهيم إلى الحركة ببعض الأسر الصامتة على مساوئ الحكم اليحيوي أن تتنبه إلى هذا العامل الجديد الذي اقتحم الوضع السياسي، فقد خشوا أن يكون هذا حائلا بينهم وبينهم تحقيق مطامعهم وتطلعاتهم إلى السلطة بعد الإمام يحيى. وتحت هذا الدافع تجمعت الشخصيات الهاشمية الكبيرة الموجودة بصنعاء، وسعت إلى علاقة مع قادة الحركة، كان من نتائجها قيام تحالف واسع، ضم الأحرار وزعماء هذه الأسر، وبعض زعماء القبائل، وبعض قادة الجيش استهدف الإطاحة بالإمام يحيى.[3]

والحقيقة أن انضمام السيف إبراهيم إلى الأحرار كان إضافة مهمة للثوار

---

(1) ــ يشير محرر مذكرات النعمان علي محمد زيد إلى ذلك الشخص، بقوله: «لعله الجبلي، وكيل الإمام». وهو التاجر سالم الجبلي، الذي أشار إليه الشاعر مطهر الإرياني في قصيدته الشهيرة "البالة" بقوله: والتاجر المحظوظ والطاغية.

(2) ــ مذكرات أحمد محمد نعمان، 146.

(3) ــ اليمن تحت حكم الإمام أحمد، د. أحمد عبيد بن دغر، 226.

الأحـرار؛ إذ مثّـل شرخًـا كبـيرا في جـدار البيـت الحاكـم، وقـوة معنويـة دافعـة للأحـرار، وهـو مـا جعـل أخـاه أحمـد يبـذل أقـصى جهـوده لاسـتعادته إلى بيـت الطاعـة، إلا أنـه صمـم عـلى البقـاء مـع رجـالات المعارضـة الأحـرار.

نعمان.. نزاهة مالية ونباهة سياسية

ونستخلص مما سبق ثلاثة مواقف وطنية تاريخية تُحسب للأستاذ نعمان، بدرجة رئيسية، ثم لرفيق دربه الزبيري:

الأول: الدور الأخوي الصادق والمخلص بين الأستاذين الكبيرين اللذَين لم يكونا يبحثان عن المناصب، بقدر ما كانا يبحثان عن العمل للقضية الوطنية الجامعة، ففي حزب الأحرار سابقا كان الرئيس هو الأستاذ نعمان، وكان المدير الأستاذ الزبيري، وفي الجمعية «المحطة التالية له» كان الرئيس هو الزبيري، قبل أن تؤول رئاستها إلى السيف إبراهيم، وهذا هو التكامل المثالي الذي لعباه بروح الصدق والإخاء والانتماء لشرف القضية، رغم أنّ المالَ الذي دعم الحزب، ثم الجمعية خلال هذه الفترة كان أغلبه ــ إن لم يكن كله ـ عن طريق الأستاذ نعمان، بواسطة معارفه التجار في عدن والحبشة، والصومال وجيبوتي، لثقتهم المطلقة به، وبحسب المناضل محمد عبدالواسع الأصبحي «الخويل»: لم يكن المغتربون يثقون إلا بالأستاذ النعمان، ولم يكونوا يرسلون تبرعاتهم إلا له، سواءً أكانوا من لواء إب أو من لواء تعز أو من صنعاء». ومع ذلك لم يسْعَ ليكونَ هو المتصدرُ دومًا، بما له من فضلٍ على رفاقه، وعلى القضية بشكل عام. تأتي هذه العلاقة الوطيدة والمشاعر الحميمة بين الرجلين رغم المكائد التي كادها البعضُ لهما، والوشاياتِ التي حرصوا عليها للتفريق بينهما، ورغم الاتهامات التي طالتهما معًا أيضا، كما ذكر الأستاذ نعمان، وكما أشار إلى ذلك الزبيري أيضا. وقد ذكر الزبيري أن ترخيص صحيفة «صوت اليمن» الذي استخرجه في القاهرة قد ظل في الرف حوالي سنة كاملة، إذ لم يجد من يتبنى إصدارها ولا نفقاتها، وحين لحقه الأستاذ نعمان إلى هناك صدرت الصحيفة بعد وصوله بستة أيام.[1]

(1) ــ نعمان الصانع الأول لقضية الأحرار، محمد محمود الزبيري، الاتحاد اليمني، د. ت، 21. وانظر أيضا: يوم ولد اليمن مجده، عبدالغني مطهر، 19.

الثاني: مقدار النزاهة المالية الكبيرة التي تميز بها الاثنان، على الرغم من أن المال بين أيديهما؛ لكنه مال عام، لصالح القضية، لا لصالح الأشخاص؛ إذ يقول الأستاذ نعمان: قد أتضورُ جوعًا، لكيلا أنفق أي مبلغ إلا في سبيل القضية، في طباعة، في نشر، في برقيات، في مذكرات، لمن يعمل «في مقابل عمله»، وأنا مع أولادي نعيش في عدن كأبأس المخلوقين. وكان الزبيري يعرفُ الحقيقة ويشاركنا هذا.[1]

هذا الكلام ليس من قبيل الادعاء الذي يدعيه البعضُ لأنفسهم؛ بل حقيقة صادقة، فقد عُرف نعمان بقوة الترشيد المالي، سواء على نفسه من ماله الخاص، أم على الغير، ولهذا حاز كل هذه الثقة الكبيرة بين اليمنيين في عدن، وفي المهجر، لنزاهته المالية قبل مكانته الاجتماعية؛ كونه من أسرة مشيخ، هي مرجعية قضاء الحجرية كاملا. كان بوسعه أن يثرى، وأن يستحوذ على جزء من تلك الأموال على الأقل؛ لكنه لم يفعل، منحازًا إلى المبدأ الأخلاقي، لا إلى المصلحة الذاتية.

الثالث: حصافة الأستاذ نعمان ونباهته وحذره الشديد، وهي ميزة السياسي النبيه؛ إذ ظل طوال هذه السنوات محتفظا بسرية التبرعات التي تصل لصالح القضية، ولم يُطلع عليها أحدًا غير الزبيري فقط، لثقته المطلقة به، رغم المطالبات المستمرة التي تتناوشُه بالكشف عن مصدر الأموال التي يتحصل عليها، لمعرفته أن ثمة ذئابًا في ثياب الحُملان، وأنه إذا كان البعضُ صادقًا في هذه المطالبة، فثمة آخرون متربصون، يكيدون له ولرفيقه وللرجال المخلصين أيضا المكائد، ويبحثون عن كل شاردة وواردة، ليبلغوا بها ولي العهد، متظاهرين بالوطنية وبموالاة الأحرار، فظل وفيًا، محافظا على السر، متحمّلا الأذى والاتهام من الأصدقاء قبل الأعداء. أضف إلى ذلك ما كان من الدروس السابقة من الأخطاء التي كان قد وقعت فيها هيئة النضال وجمعية الإصلاح، وكلتاهما تعرضتا لعيون الجواسيس وآذانهم، كما أن رجالها

(1) ـ مذكرات أحمد محمد نعمان، 143.

قد ألقي عليهم القبض، وأودعوا سجون الإمام، بسبب عدم نباهة قيادة الجماعتين. والعاقل من اتعظ بغيره، كما يُقال.[1]

الجمعية والاتصال بالخارج

واستمر الحال على هذه الوتيرة، وقد أصبحت الجمعية قوة سياسية، لها ميزانها في حسابات الطاغية يحيى وولي عهده أحمد، وأيضا لدى بقية النخبة الارستقراطية والسياسية، كما لها حسابها أيضا لدى المهتمين في الخارج، مثل حركة الإخوان المسلمين المصرية التي ارتبطت بالجمعية، في النصف الثاني من العام ١٩٤٧م، وشكلت لها قوة جديدة، حيث عمل العضو البارز في الإخوان المسلمين آنذاك الفضيل الورتلاني «جزائري الجنسية» على زيارتهم إلى عدن في أغسطس من نفس العام، ووضعوا بعضَ الأسسِ الجديدة التي تبدو من وحي خبرات الفضيل الورتلاني، ابن التنظيم الماهر بشؤون العمل التنظيمي والسياسي؛ لاسيما وقد كان شُعلة من النشاطِ المتوهج، لا يعرف الكللَ ولا الملَل، خطيبًا، واعظًا، تاجرًا ورجلَ علاقات، نقلَ قضية الأحرار إلى أروقة تنظيمه في القاهرة، كما أشار العنوانُ الرئيس في العدد ٥١ من «صوت اليمن» هكذا: المرشد العام للإخوان المسلمين يحمل لواء القضية اليمانية في العالم العربي. كما عمل ــ وفقا للصائدي ــ منذ مجيئة على تنشيط حركة المعارضة، والإعداد لإدخال تعديلات في شكل الحكم عندما يتوفى الإمام.[2]

يقول عنه المؤرخ الشماحي، في زيارته الأخيرة لليمن: ويأتي الأستاذ الجزائري، الفضيل الورتلاني موفدًا من الإمام حسن البنا، وروحُ الثورة مستوليةٌ عليه، فيمر بعدن ويضاعف حماس قادة حزب الأحرار وأعضاء

(1) ــ تم تحويل التبرعات والهبات لاحقا باسم الزبيري رسميا، بعد جدل طويل تزعمه الفسيل، ثم أحمد البراق الذي تأثر به، كما نشرت ذلك صحيفة صوت اليمن في عددها رقم 20، بتاريخ 25 ابريل، 1947م. ومع هذا الإعلان إلا أن البعض ظل يرسل تبرعاته باسم الأستاذ نعمان، لثقتهم به.

(2) ــ حركة المعارضة اليمنية في عهد الإمام يحيى بن محمد حميدالدين، الدكتور أحمد قايد الصائدي، سابق،145 فما بعدها.

الحزب[1]، ذلك الحماس الزاحف مع الفضيل إلى كل مكان حلّ به. فهو بتعز يهزُّ الملك المظفر، وبإب يحرك الملك المكرم والوالدة السيدة أروى، وبصنعاء يُلهب شبابها وطلاب مدارسها وضباطها بسعير ثوري. حوّل الجو في صنعاء وعدن إلى أتونٍ من وقد التفكير الموجه الصحيح.[2]

مضيفا: وفي صنعاء قام الفضيل بنشاطه الثوري، يرافقه المؤرخ المصري أحمد فخري، ويساعده الشامي، فيجتذبان إليهما السيد العالم حسين بن محمد الكبسي. ويتصل الثلاثة بالمطاع وغيره، ويندفع الفضيل في إقامة الندوات وإلقاء المحاضرات في المدارس والمساجد والحفلات، فتسري روحه إلى الشباب والضباط وطلاب المدارس..[3]

لقد كان مؤسس حركة الإخوان المسلمين حسن البنا مهتمًا باليمن أكثر من أي دولة، وكانت اليمن أول دولة يتأسس فيها فرع للتنظيم في نفس العام الذي تأسست فيه الجماعة في مصر، سنة ١٩٢٨م من خلال أمير القصر السعيد، العلامة محمد زبارة، ثم بقية العناصر التي تلاحقت بعد ذلك، كالمؤرخ الشماحي والعلامة حسين الكبسي، وزير خارجية الإمام، فالعنسي، فالحورش، فالمسمري فالزبيري، وغيرهم. وقد أشار إلى بداية العلاقة بيانٌ خاص صدر عن الجماعة عقب ثورة ١٩٤٨م. بل لقد كانت هناك علاقة شخصية بين البنا، مؤسس الجماعة وسيف الإسلام محمد البدر، نجل يحيى حميدالدين، ناهيك عن المراسلات الخاصة بينه وبين يحيى حميدالدين، ونجله أحمد. كما كانت له معايير أخرى في اهتمامه باليمن، ذكرها الكاتب حميد شحرة في كتابه «مصرع الابتسامة».

ويبدو أن اهتمامات سيف الإسلام محمد البدر، نجل يحيى حميدالدين بنشر كتب السنة الإحيائية من تأثيرات جماعة الإخوان؛ حيث قام بنشر كتب

(1) ـ يقصد هنا الجمعية اليمانية الكبرى الذين كانوا هم أنفسهم حزب الأحرار سابقا.

(2) ـ اليمن الإنسان والحضارة، 222.

(3) ـ نفسه، 223.

الشوكاني والجلال والمقبلي والوزير وابن الأمير، حتى اعتبره رموز السنة في اليمن نصيرهم.[1]

وهكذا استغل الأحرار علاقاتهم بغيرهم، سواء في الداخل أم في الخارج، وتوظيفها لما يخدم قضيتهم الوطنية، رغم أنّ بعضَ الأحرار لم يكن لهم أي علاقة تنظيمية بالإخوان المسلمين كالأستاذ نعمان، إلا أنّ ذلك لم يمنعه من التعاطي معهم ما دام التواصلُ معهم سيخدم قضيته الجوهريّة التي يناضلُ من أجلها.

وأكبر من ذلك ــ وبعد تزعُّم سيف الحق إبراهيم للجمعية اليمانية الكبرى ــ قرر الأحرارُ اليمنيون تفويض الأستاذ البنا، ليكون الناطق باسم حركتهم في جامعة الدول العربية والمحافل الدولية الأخرى، ووجه الأحرار هذا التفويض إلى الأستاذ حسن البنا، وإلى أمين عام الجامعة العربية آنذاك عبدالرحمن عزام. ورحب البنا بهذا التفويض، مشيرا في سياق رسالته إلى الأحرار إلى أن اهتمامه بقضية اليمن اهتمامه بأقرب الأوطان إليهم وأحبها إلى نفوسهم.. إلخ.[2]

وبهذا الموقف أصبحت جماعة الإخوان المسلمين المصرية طرفًا في الصراع إلى جانب الأحرار، خاصة وقد أصبح مؤسسُ الجماعة ومرشدُها الناطقَ الرسمي باسمها في الجامعة العربية، وناشرًا لأخبارها أولا بأول في صحيفة الجماعة هناك، حتى تكلل هذا بالاشتراك في الثورة كما سنرى. وقد أشار البردوني في كتابه «الثقافة والثورة في اليمن» أن الإمام يحيى كان أقلَّ خوفًا من الشيوعية بالقياس إلى جماعة الإخوان.[3] وهو ما يعني أنّ عناصر الإخوان في اليمن مع حلفائهم في تلك الفترة قد أصبحوا أبرزَ القوى المنظّمة على الساحة، وأنهم الأقدر على الإطاحة بعرشه، لأن السلطات المستبدة تخشى الجماعات التنظيمية الطامحة إلى السُّلطة. وكان خوف يحيى وولي عهده من

(1) ــ انظر: اليمن الجمهوري، 169.

(2) ــ انظر: مصرع الابتسامة، حميد شحرة، 53.

(3) ــ انظر: الثقافة والثورة في اليمن 26.

الجمعية يتزايد بعد إعلان أهدافها وبرنامجها، وبعد المراسلات بينها وبين الإمام الرافض لإحداث أي تغيير، وبعد أن ارتبطت بالخارج وبدأ يقوى عودُها، على غير توقع من يحيى وأحمد.

وقد ذكر الدكتور أحمد قايد الصائدي أن علاقة الإخوان المسلمين بحركة المعارضة اليمنية ودعمهم لها، لم يقتصرا على تقديم النصح والتوجيه، وإنما تجاوز ذلك إلى دعم مادي، مكنَ هذه الحركة من النشاط الإعلامي، فأصدرت صُحفًا ومنشورات علنية، كما فتحوا ـ أي الإخوان المسلمين ـ صُحفَهم لشنِّ حملات دعائية ضد الحكم القائم في اليمن.[1]

والحقيقة أنّ عقليّة الطاغية يحيى حميدالدين عصية على التغيير، وعلى إحداث أي لمسة تطور، لاعتقاده أن أي تطور نحو الأفضل سيطيح بعرشه، وما درى أن التغيير سيحصل حتما لا محالة، سواء بفعله هو، أو بفعل غيره. ولو كان يحمل قدرًا من النباهة والذكاء لكان أسبق الجماعة إلى ميدان التغيير، وإن في حده الأدنى.

(1) ـ انظر: حركة المعارضة اليمنية، 146.

11ـ ثورة 48م.. اليقين الثوري

تمثلُ ثورة ١٩٤٨م نهايةَ اليقينِ الثّوري الأول إذا ما استعرنا التعبير الأدبي الصُّوفي الذي أشارَ إليه أبو الأحرار الشهيد محمد محمود الزبيري، رحمه الله، وهو يشرحُ تجربتَه مع الطاغية يحيى حميدالدين بقوله: «لقد كانت تجربة خصبة عميقة، كسبنا منها الأساس الأول للثورة، وهو اليقين باستحالة تغيير الإمام يحيى عن غير طريق القوة. ولم يكن هذا اليقينُ الثوري ليحصل إلا بعد المرور على كل هذه التجارب..».[1]

حقا.. إنها نهاية الشّوطِ الأول، من المحطاتِ النضاليّة لسببين:

الأول: انتهاء حكم إمام طاغية، يُعتبر أطولَ من حكم اليمن خلال القرن العشرين، صريعًا على يد الشعب، بثورةٍ أخفقت؛ لكنها لم تفشل. كما سنوضح ذلك لاحقا.

الثاني: بنهاية ثورة ٤٨م الدستورية، بدأ فصلٌ جديد، وثقافة مغايرةٌ، تنتمي للمستقبل أكثرَ من ارتباطها بالماضي، وإن كان النظام الإمامي لا يزال مستمرًا؛ لكنّ حدثَ ٤٨م هزّ المسلماتِ الخرافيّة التي روّجها الطاغية، وبدأت تستجدُّ أسئلة جديدة، خاصة بعد قيام ثورة يوليو المصرية في يوليو ١٩٥٢م. أي أنّ ثقافةَ الثورةِ تحولت إلى ثورةٍ ثقافيّة خلالَ عقد الخمسينيات حتى قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر العظيم، ١٩٦٢م، فكان الانفجارُ الكبيرُ الذي بدّدَ ظُلمة ألف عام من الدجلِ والزيفِ والكهنوت.

توصل الأحرارُ مع الطاغيةَ العجوز إلى طريقٍ مسدود، فكان اليقينُ الثوريُّ الذي لا بدّ منه، متمثلا في الانتقال إلى حكم دستوري، عقب وفاة الإمام الذي كان مشارفًا على الهلاك، حُكم يلبي وإن الحد الأدنى من مطالب الشعب، ويحقق لهم حياة كريمة، كبقيّة شُعوبِ الأرض التي انتقلت خلالَ القرن العشرين نقلة نوعية، فعرفت مؤسساتِ التعليم وخدماتِ الصحة

(1) ـ الأعمال الكاملة، محمد محمود الزبيري، 46.

والكهرباء والمياه، ونشأت فيها مؤسسات الدولة العصرية الحديثة، كما تحقق الرفاهُ الاجتماعي ومقومات العيش الكريم، عدا الشّطرَ الشّمالي من اليمن، فإنه كان إلى حقبةِ القرونِ الوسطى أقربَ منها إلى القرن العشرين.[1] وذلك بفعلِ سياسةِ الكهنوت المتخلفة التي جثت عليه طويلا، وغيّرت ملامحَ وجهه الحضَاري الأصيل، رغم عراقة هذا الشعب الحضارية.

على أية حال.. حسم الثوارُ الأحرارُ أمرهم في صنعاء، وصَاغوا الميثاقَ المقدس، المرجعية الدستورية لثورة ٤٨م، والتي تسمت بموجبه بثورة الدستور، والمكون من ٣٩ مادة، وملحقٍ من أربع مواد أخرى، وتوافقوا على عبدالله بن أحمد الوزير إمامًا دستوريًا، وأرسلوا منه نسخًا إلى الزبيري ونعمان في عدن. وكانت بصماتُ الفضيل الورتلاني فيه واضحة. وقد كتبت مسودته الأولى في مصر؛ بل لقد اطلع عليها حسن البنا، وفقًا لشهادة أحمد محمد الشامي،[2] ولا شك أن نسخة منه قد تسربت إلى ولي العهد أحمد في تعز، بل وأخبار الحسم الثوري كاملة بتفاصيلها، لاحقا التي تبنها الوزير بعد تسرب برنامج الأحرار، من خلال عيون ولي العهد أحمد، المحسوبين على الأحرار والمندسين في أوساطهم. ولحساباتٍ تتعلق بطموحه وتطلعاته للحكم، فقد تركها تسيرُ حيث أراد الثوار، لثقته بنفسه من اقتطاف النتيجة النهائية، كما رد على رسالة لأحمد محمد الشامي، الذي كان يوافيه بتفاصيل أخبار صنعاء،[3] وهو ما كان فعلا. فلقد كان على علم بكل تحركات الفضيل الورتلاني وأنشطته وخططه ــ والورتلاني مهندس ثورة الدستور، حسب

(1) ــ سمعتُ من الدكتور عبدالكريم الإرياني، رحمه الله في كلمة له ونحن في نادي ضباط الشرطة بصنعاء، قال: حين قامت ثورة 26 سبتمبر، كنت طالبا في الولايات المتحدة الأمريكية، فكتبت الصحف الأمريكية خبرا هكذا: قامت ثورة في بلاد تسمى اليمن، تجري حثيثا نحو القرن الثالث عشر الميلادي..

(2) ــ انظر رياح التغيير في اليمن، 213. وقد ذكر الشامي أيضا أن الزبيري ونعمان والبراق «سكرتير السيف إبراهيم» قد حذروا الورتلاني من أن يطلع الشامي على الميثاق المقدس، لأنه من المخلصين لولي العهد، ولا يكتم عنه شيئا.

(3) ــ أشار الشماحي إلى أن ذلك باتفاق مع الثوار الأحرار، من أجل وصول أحمد إلى صنعاء، ومن ثم القضاء عليه مع أبيه، لكنه لم يفعل. وربما كان المخبر «مزدوجًا». وذكر المؤرخ الأكوع أن الشامي كان مُعتمدَ أحمد لما يرفعه إليه في صنعاء.

تعبير أحمد محمد الشامي ــ ومع هذا لم يتخذ بشأنه أي إجراء، لا في صنعاء، ولا في تعز، وبوسعه أن يسجنه، أو ينذره بمغادرة البلاد؛ علما أن من أقنع الورتلاني بضرورة قتل الإمام والتخلص منه هو الإمام الدستوري عبدالله الوزير، وإلا فقد كان من المنتظرين لموت الإمام، كغيره من رجالات الجمعية اليمانية الكبرى.[1]

شائعة موت الإمام

في واحدة من مكائده الشيطانية ضد الأحرار، عمل ولي العهد أحمد على تسريب خبر موت الإمام يحيى يوم ١٥ يناير ١٩٤٨م،[2] وتعمّد إيصال المعلومة إلى أوساط الأحرار بعدن؛ أي قبل قتله بأكثر من شهر، والذين استبشروا بهذا الخبر السّار، ومن ثم نشروا برنامجهم كاملا في صحيفتهم «صوت اليمن»، كما نشروا معه الميثاقَ المقدس وأسماء إمامهم وحكومتهم الجديدة كاملة، وأبرقوا بذلك إلى مصر، وعنهم تناقل الخبر وكالات الأنباء الخارجية، حتى صحيفة «الإخوان المسلمون» الصادرة عن الإخوان وقعت في الفخ، بناءً على برقية السيف إبراهيم، وجعلت العنوان الرئيس فيها عن موت الإمام..![3] علما أن الميثاق المقدس وأسماء الإمام الجديد وأعضاء الحكومة إنما تم تجهيزها من قبل لفترة ما بعد موت الإمام الذي كان ينتظره الجميع، وليس لما قبله.

ويكشف لنا هذا التهور والاستعجال في نشر الخبر مدى سذاجة رجالات المعارضة من الثوار الأحرار الذين تعاملوا مع قضية مصيرية، بناء على وشاية من مصدر مجهول، وبوسعهم التأني والتأكد حتى يتثبتوا من صحة الخبر لساعات فقط.[4]

---

(1) ــ في مراسلة بين الإمام أحمد وحسن البنا لاحقا، أنكر البنا صلة الفضيل الورتلاني بجماعة الإخوان المسلمين تنظيميا.

(2) ــ انظر: لمحات من تاريخ حركة الأحرار، 292. وقد ذكر البعض أنه عندما أذيع النبأ الكاذب بمقتل الإمام يحيى أدرك أحمد بُطلان التقارير التي كان يرفعُها إليه الشامي، الأمر الذي حمله على أن يحنق أشد الحنق منه. انظر: ثورة اليمن الدستورية، 87.

(3) ــ ثمة تفسيرات عدة لمصدر هذه الإشاعة، إلا أن هذه أرجحها، لتعاضد الشواهد العملية بعد ذلك على صحتها.

(4) ــ ذكر علي محمد عبده أن الأستاذ نعمان كان من المعارضين لسرعة نشر الخبر، إلا أن زملاءه في الجمعية اليمانية الكبرى قرروا بالأغلبية نشر الخبر.

لقد كان ولي العهد أحمد يعتقد أن انتهاء حياة والده قتلا ستسهل له الوصول إلى العرش، أكثر مما لو انتهى بالموت الطبيعي، لتنازع أكثر من جهة خلافته، سواء من إخوانه، أم من بقية الأسر الأخرى الطامعة بالحكم والطامحة إليه، كبيت الوزير وبيت شرف الدين وغيرهم، ولاستجرار عاطفة الناس بقتل الإمام في عقده الثامن كهلا، وهو ما كان فعلا؛ وتؤكد على ذلك شواهد كثيرة، لعل أبرزها مطالبة والده له عقب انكشاف خطة الأحرار بسرعة وصوله من تعز إلى صنعاء للإطاحة بالمؤامرة، إلا أنه كان يتباطأ مع كل دعوةٍ يكررُها والدُه لسرعةِ الحضور؛ منتظرًا سرعةَ الإجهاز عليه من قبل الثوار، والذين لم يكن أمامهم إلا تلك الخطوة الجريئة، إنقاذا لأنفسهم منه، فقد خطط يحيى لاستئصالهم، وخططوا هم للإجهاز عليه، وخاصة عبدالله الوزير ومعه أيضا الورتلاني وجمال جميل، فيما كان أحمد ينتظر استباق أحد الطرفين على الآخر، ليصل صنعاء ثائرا، كما فعل معاوية بن أبي سفيان مع مقتل عثمان. وتحقق له ما خطط له تماما؛ لاسيما وعيونه مبثوثة في أوساطهم. زد على ذلك ما تبناه بعض الأحرار بعد انكشاف خطتهم، حين ذهبوا إليه إلى تعز، وعرضوا الأمر عليه، ليحلّ محل عبدالله الوزير، ويكون هو الإمام الدستوري الجديد، شريطة العمل بالميثاق المقدس، إلا أنه رفض ذلك بإصرار، زاعمًا أنه لن يخلعَ قميصًا ألبسه الله، وأنه سينظر في الميثاق فيأخذ ما يراه هو مناسبًا، ويترك الباقي، وليس مجبرا على أي شيء.[1] وهذا ما يزيدُ الحقيقة تأكيدًا، من أنه كان متابعًا لنشاط الأحرار من الداخل، ومطلعًا على كل تفاصيلهم، فكيف يصل صنعاء، ويجتمع مع والده، وقد خطط الثوار لقتلهما معًا، فعلى الأقل يُقتل والده العجوز، وينجو هو، فيكون له ـ كما كان يرى ـ شرعية الثأر من الجميع، ومن ثم شرعية الوصول إلى الحكم والتفرد به وحده، ليس من الثوار فحسب؛ بل حتى من إخوانه المنافسين والطامحين. وهذا منه منتهى الأنانية والدهاء معا، كما يقول المؤرخ محمد علي الأكوع.

(1) ـ انظر: رياح التغيير في اليمن، 219. و مصرع الابتسامة، 153.

والـذي يقـول عنـه: «وقـد التقيـت في جنيـف في سـويسرا ١٩٩٢م، صدفـة بأخيـه الأمـير السـابق عبدالرحمـن بـن الإمـام يحيـى، فسـألته عـن صحـة مـا ذهـب إليـه الشـماحي،[1] فأيّـده بشـدة، ولمـا جادلتـه مسـتبعدًا أن يرتـضي ابـن لمقتـل أبيـه لأي سـبب، فقـال محتـدا: أخـي أحمـد في سـبيل أطماعـه لا يـتردد عـن ارتـكاب أي شيء، ولمـا زدتُ معـه الحـوار، قـال لي، غاضبـا: أحمـد هـو أخـي، وليـس أخـوك، وأنـا أدرى بـه.[2]

يقـول عبـدالله بـن عـلي الوزيـر في كتابـه: «رسـالة مـن على سريـر المـوت»: وليس عنـدي شـك في أن الفضـل في قيـام الثـورة الدسـتورية بعـد أن اتضحـت الأوراق، وانكشـف المسـتور يعـودُ إلى عبـدالله بـن عـلي الوزيـر، رضي مـن رضي مـن حركته، أو غضـب مـن غضـب عليـه بسـببها، فهـذا حـقٌ معلـومٌ للتاريـخ، ولـولاه لتغـدى بهـم ولي العهـد والإمـام قبـل أن يتعشـوا بالإمـام، علـمًا بـأن الجميـع لم يسـتهدف قتـل الإمـام قـط، وإنـما كانـوا ينتظـرون وفاتـه، ليقومـوا بدورهـم، ولكـن افتضـاح الأمـر بنـشر الميثـاق، وأسـماء رجـال الدسـتور أدى إلى أن يتغـدوا هـم بالإمـام، قبـل أن يتعشـى بهـم ولي العهـد ووالـده عـلى نحـو مـا هـو معـروف.[3]

(1) ـ ذهب الشماحي إلى أن ولي العهد أحمد كان ينتظر مقتل على والده على يد الثوار، وأنه كان مطلعا على خططهم.

(2) ـ أحداث ثورة 55م، محمد علي الأكوع، 19.

(3) ــ انظـر: رسـالة مـن علـى سـرير المـوت، عبـدالله بـن علـي الوزيـر، مركـز التـراث والبحـوث اليمنـي، صنعـاء، ط:1، 2020م، 21. وقـد نقـل المـؤرخ محمـد علـي الأكـوع عـن الدكتـور علـي محمـد زيـد حيـن سـأله لمـاذا لا ينتقـم الإمـام مـن آل الوزيـر، وقـد كانـت تهانـي الـدول والأشـخاص تصـل إلـى يـد الإمـام، فـرد عليـه أنـه أعجـز مـن أن يفعـل ذلـك.

يوم حِزيز.. نهاية طاغية

في صبيحة يوم الثلاثاء، الموافق ١٧ شباط فبراير ١٩٤٨م، خرج الإمامُ يحيى لتفقدِ أمواله في منطقة حزيز، جنوب صنعاء، وهي الرحلة الثانية فقط التي خرج فيها من صنعاء، كما ذكر المؤرخ محمد علي الأكوع،[1] إلى جانب رحلته إلى حمام دمت قبلها بسنوات للاستشفاء، في الوقت الذي كان الثوارُ بكامل استعدادهم لتنفيذ مهمتهم التاريخية، أو قل لتنفيذ الواجب التاريخي؛ لأنَّ القضاءَ على حُكم بيت حميدالدين كان عند الثوار الأحرار كالشهادتين، محور الإيمان، من قالها واعتنقها فهو حر ثائر، ومن تردد فيها فهو جامد، أو عميل خائن، كما ذكر المؤرخ الشماحي.

في صبح ذلك اليوم كانت المسؤولياتُ قد توزعت على رجالاتِ الثورة، فيما عيونُهم ترقبُ موكبَ الإمام المتجه جنوبًا، يصحبه رئيس وزرائه عبدالله العمري، فاقتفاه للتو البطلُ اليماني الكبير علي ناصر القردعي ورفاقه، على سيارة يقودها السائق محمد ريحان، وفي منعطف ضيق كمنوا له، منتظرين عودته، وما أن عاد بسيارته حتى أمطروه ومرافقيه بوابلٍ من الرصاص، خرّ على إثرها صريعًا يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد طول حياةً، هي حياة الدجل والكهانة والطغيان التي ورثها عن آبائه.

والشيخ علي بن ناصر بن مسعد القردعي المرادي شيخ قبلي وشاعر من مارب، وإليه تنسب الروايات الشعبية خبر مباشرة قتل الطاغية يحيى ببندقيته، فأرداه صريعًا، وقد قُتل ضمن من قُتل من أحرار الثورة الدستورية عقب تغلب أحمد حميدالدين عليها. كما قُتل أيضا السائق محمد ريحان في تعز، مع كل من: عبدالله صالح الحسيني، وولده محمد عبدالله الحسيني، وعلي العُتمي. وهؤلاء جميعهم ممن حضروا مسرح عملية قتل الطاغية يحيى أثناء عودته من حزيز.[2]

---

(1) ـ انظر أحداث ثورة 55م، 23.

(2) ـ يذكر الأكوع في كتابه المذكور أن عدد المباشرين للقتل كانوا اثني عشر فردا، صبوا على السيارة أكثر=

يقول المؤرخ محمد علي الأكوع، متحدثًا عن أحرار ٤٨، وآل الوزير تحديدا: وتقرر أن ينتدبوا أشخاصًا أبطالا، ليغتالوا الإمام يحيى من أغلب قبائل اليمن، فآل القردعي من مراد، وآل الحسيني من بني حشيش، خولان بكيل، وآل هارون من بني الحارث، ومحمد عوير من سحار الشام، وأحمد العنجبة من الحضيرة، سنحان، وعلى العتمي من حمير والذيب من همدان وسنهوب..[1]

وأضاف في سياق حديثه عن الطاغية يحيى: أن لواء من الأتراك قد التجأوا إليه من عدن، أول حكمه، فأرسل إليهم كمينا من القبائل، فقضوا عليهم في نفس الموقع الذي اغتيل فيه تقريبا.[2]

وكان القردعي من المعارضين للإمامة بقوة، مُهاجمًا الطاغية يحيى، شعرًا ونثرًا، فمثّلَ شعلة لا تنطفئ خلالَ فترةِ حياته ضد كهنوت الإمامة، عامدًا إلى حل المشكلات القبليّة التي تذكيها الإمامة دائما، ما أوغر عليه صدرَ الإمام يحيى، فسجنه سنتين، تمكن بعدها من الفرار بقيوده مع أحد رفاقه من آل حميقان، فقال في ذلك شعرًا:

وانا أحمدك يا الذي سهلت مخراجي ... من قصر فيه الرسم والبوب والصناج

فيه خمسة أبواب ما فياتهن شاجي ... غير مبهمات القيود السود والأرتاج

وحين تأكد هؤلاء من موت الطاغية عادوا إلى صنعاء، يزفون البُشرى

=من خمسمئة رصاصة حتى مات الجميع، وإذا بالحسيني أحد المباشرين يجد الإمام يحيى على قيد الحياة، وذلك لتضاؤل حجمه وانخفاضه عن مستوى خط الرصاص، فأجهز عليه. ويبدو الرقم المذكور قد بني على الروايات الشعبية التي تميل للمبالغة أحيانا، لأن إطلاق 500 رصاصة من بندقية أو بندقيات عادية، ليست رشاشة أمر ليس بالسهل، لأن كل طلقة تحتاج لعملية خاصة لوحدها من البندقية العادية، خلافا للبندقيات الرشاشة التي نعرفها اليوم. ثم إن الرواية تعارض نفسها بنفسها، فهل من المعقول أن تطلق أكثر من 500 طلقة على السيارة ولم يصب منها الإمام بواحدة؟!! أما تقية بنت الإمام يحيى فقد روت هذه الجزئية من الخبر بطريقة أخرى، حيث ذكرت أن الإمام قد استقبل جسده أكثر من مئة عيار ناري، واستقر في جسده حوالي خمسين طلقة منها. انظر يتيمة الأحزان، تقية بنت الإمام يحيى حميدالدين، د. د، 2008م، 74.

(1) ـ أحداث ثورة 55م، سابق، 19.

(2) ـ نفسه، 25.

لرفاقهم[1]، غير أنّ الخبَر قد تسرب إلى سيف الإسلام الحسين، نجل الإمام نفسه، قبل أن تعرفَ قيادة الثورة ذلك، ومن بين ذلك جمال جميل الذي كان بمثابة القائد العسكري للثورة، والذي أبلى بلاء حسنا، ولعب دورًا بطوليًا نادرًا، كما سنشيرُ لذلك بعد قليل مفصلا، ويُقال أنّ الإمام عبدالله الوزير هو الذي أبلغ الحسين ابن الإمام يحيى بخبر مقتل أبيه، وأنه قد تولى الحكمَ بدلا عنه. وأيًا يكن الأمرُ فقد أبرقَ الحسينُ لأخيه أحمد في تعز فورًا، يخبره بمقتل أبيه، ويبدو أنّ أحمد كان ينتظر ذلك الخبر بفارغ الصبر، والذي لا يُستبعد أن يكون قد تسربت خطتُه من قبل، فأمرَ أحمد بإغلاق البرق في تعز، وبدأ بإعداد العدة للدور الجديد.

وقد فرّ القردعي من حزيز باتجاه خولان، لكن القبائل الموالية للطاغية الصَّريع اعترضته، وقتلته، بعد قتال مستميت من قبله هو وابن عمه محمد صالح القردعي، فأسر الطاغية أحمد بعد ذلك أخاه أحمد بن ناصر القردعي، وأودعه السجن في حجة، ورثى أخاه بقصيدة، وصلت إلى الطاغية أحمد، فأمر أحمد بقتله على إثر ذلك، «ولم يستطع أحدٌ من الجنود إخراجه إلى ساحة الإعدام بحجة، فقتلوه رميًا بالرصاص في زنزانته».[2]، وقتل الطاغية أحمد أيضًا الشيخ علي طالب القردعي في سجن حجة في نفس الفترة.

(1) ــ كان كل من: عبدالله السلال وأحمد المروني وحسين عنبة قد اقتفوا القردعي وجماعته إلى مكان قريب من الاغتيال، لمتابعة العملية، وحين رأوا بعض العائدين من أتباع الإمام يعودون مفزوعين تبين لهم أنها قد تمت.

(2) ــ ثورة اليمن الدستورية، 153.

مغادرة أحمد حميدالدين لتعز نحو حجة

عقب وصول خبر مقتل والده، أغلق البرق، ثم بدأ يتجهز للسفر، بالاتجاه نحو الحديدة، فحجّة، مستعطفًا القبائل وعامة الناس، شعرا ونثرًا، بمقتل والده الكهل، حتى وصل إلى حجة، ومنها حشد القبائل باتجاه صنعاء، لقمع الثورة، والانقلاب عليها.

قبل ذلك كانت قيادة الثورة الدستورية قد تحفظت على أربعة من أولاد الطاغية يحيى، وهم: يحيى وإسماعيل وقاسم وعلي، داخل قصر غمدان، في الأيام الأولى للثورة، ثم لم تلبث أن تراخت في متابعتهم داخل القصر الذي تُدارُ منه الثورة والدولة الجديدة، ولم يراقبهم؛ بل لقد كانوا في حرية كاملة يسرحون ويمرحون داخل القصر، ويتواصلون مع الناس بصورة طبيعية، وكأن الظرف ليس ظرف ثورة وحرب ومكيدة، الأمر الذي أطمع هؤلاء الأربعة في التواصل مع أخيهم أحمد، ومع بقية القبائل، وخاصة يحيى بن يحيى الذي كان المخطط الأكبر والمحرك الرئيس لهم «فاتصل ببعض مرتب القصر، وبالموالين لآل حميدالدين في صنعاء، كما اتصل بأخيه ولي العهد أحمد الذي خطط المؤامرة، وأمدها بالأموال، وبمن يعتمد عليه من الرجال إلى صنعاء، مع رسائله إلى مرتب القصر المهددة والمرغبة، فتمهدت لأولاد الإمام يحيى الأربعة الطريق إلى القيام بانقلاب على الإمام الوزير في داخل القصر، ولم يأت يوم الجمعة، ثاني جمادى الأول إلا وكل من في قصر غمدان من نظام وشرطة ورسَم مرتبط بهم».[1]

وكم كان الرئيس جمال جميل وأحمد المطاع والشاب الثائر حسين المقبلي، وغيرهم يحذرون الإمام عبدالله الوزير من تراخيه هذا، ومن خطر بقاء أولاد الإمام يحيى الأربعة طليقين بلا رقابة، كما حذروه من ثلمات أخرى

(1) ـ اليمن الإنسان والحضارة، 274.

كثيرة، إلا أنه كان يطمئنهم على الدوام، وأن كل الأمور تحت رقابته، متوهمًا أن القبائل الجاهلة لن تثور عليها إذا ما وجدت قائدًا يستجيشُ عواطفها ويستثيرُ أطماعَهم الجوعى للنهب والسّلب، فدخلها ربع مليون قبيلي كالجراد المنتشر، تحركهم غرائزهم الطامعة وطباعهم المتوارثة في النهب والسلب التي توارثوها كابرًا عن كابر، ضمن سياسةِ الإمامة التاريخية التي طالما سلطت قبيلة على قبيلة، وأسرة على أسرة، وجماعة على جماعة. وهذه المرة ها هي تبيحُ مدينة صنعاء بأموالها ومتاجرها وخيراتها لهؤلاء الوحوش الكاسرة.

الانقلاب على الثورة واستباحة صنعاء

هجم الجنود أتباع يحيى بن يحيى على ابن الوزير، الإمام الدستوري الجديد داخل قصر غمدان بصنعاء وأسروه، ثم أشعلوا التنصيرة من شرفات القصر المنيع، إعلانا للنصر على الوزير والأحرار، وتبعتها مئات الشعلات داخل مدينة صنعاء، في إشارة إلى الموالاة للإمام الجديد يحيى حميدالدين.[1] واستمر الهجوم والنهب والسلب على صنعاء سبعة أيام متتالية. نهبوا فيها حتى نوافذ البيوت وأبوابها، وفرش المساجد، فضلا عن المتاجر والبيوت.

وقد أورد العزي صالح السنيدار في مذكراتِه من قصص النَّهب والسَّلب ما لا تصلحُ إلا أن تكونَ من قصصِ الخيال السَّينمائيَّة؛ منها أن أحدَ جيرانه قد سَطا على منزله ونهبَ كلَّ ما فيه مع آخرين، بما في ذلك أن قَام بقلع نوافذ الغُرف، وقَدْ قَال عنها صَاحِب المذكرات: «وبعد ثورة سبتمبر كنت أمرُّ من أمَام بيته الذي بناه في شُعوب، وأرى نوافذَ بيتي مركبة في بيته دُون خجل، ولا رعايةٍ لما قدمنا له من معروف..»[2]

أمَّا حين فرَّ بجلده عقب فَشلِ الثَّورَة الدسْتُورية، فقد تعرضَ لنهبِ ما يملكُ من مال؛ حتى الملابس التي كانت عليه نهبَها بعضُ القَبَائل من قُطاع الطرق، وحينَ واصلَ المسيرَ وهو في حالٍ يُرثى لها، وجدَ عصابةَ تَقَطُّع أخرى، ولم يعد يملكُ ما ينهبونه، فلاحظ عليه النهَّابةُ أن بين فِيْه أربعةَ أسْنانٍ ذهبيَّة، فوجهوا إليه بنادقهم، وأمروه بقلعِ أسْنانه الذهبيَّة الأربعَة، وتسليمها لهم، فحاول ولم يقدر، وعندها أقدم أحدُ المتقطعين لقلعها ونهبها، وبينما هو يحاول ذلك فاجأتْهُم أصواتُ الأولاد الذين يصيحون به بأنه من الهاربين، فأمسكوا به وأعادوه إلى بيتِ العاقل..»![3]

---

(1) ــ كان أول قرار أصدره الطاغية الجديد عقب اعتلائه العرش عام 1948م هو إطلاق اسم المملكة المتوكلية اليمنية على اسم دولته، ليؤكد بذلك أحقيته شخصيا بالعرش، وأحقية أسرته في وراثة العرش اليمني، وليضع حدا قاطعا لكل الأسر الهادوية الهاشمية المنافسة لآل حميدالدين في الحكم.

(2) - الطريق إلى الحرية، مذكرات العزي صالح السنيدار، ط:2، 1998م.159.

(3) - نفسه، 165.

ذكر قصة مروعة حين أباح الإمَام أحمد نهب صَنعاء لأتباعه، عقب مقتل أبيه، سمعها الإرياني نفسه من القاضي أحمد السياغي شاهد عيان القصة، «كان قد دخل صَنعاء مع القبائل الداخلين أنه وكان في طريقه إلى قصر غمدان رأى امرأة حاملا، خرجت لبعض شأنها، ورآها بعض القبائل فظن أنها تخفي حُليا أو مجوهرات تحت ثيابها وتتظاهر أنها حامل لتنجو بها معها، وبدلا من أن يمد القبيلي يده ليحس ما عَلَيْها ويتعرف على ما تحت ثيابها سل جنبيته «خنجره» وطعن المرأة الحبلى، فبقر بطنها وسقط الجنين إلى بين رجليها على الطريق وماتت المرأة وطفلها. ومر الرجل الجلف القاسي وكأن شيئا لم يكن فاشمأز ضمير القاضي السياغي، وأمر من معه من الجنود بالقبض على القاتل وأودعه في سجن القلعة؛ ولكنه شكا أمره إلى سيف الإِسْلام العباس الذي كان على رأس القبائل الذين دخلوا صنعاء، واستباحوا واستحلوا ما فيها، وكان الإمَام أحمد قد أباحها للقبائل قبل دخولهم، وكانت أطماعهم من أعظم حوافزهم إلى أن يأتوا صَنعاء من كل صوب وأوب، فأمر العباس بإطلاق القاتل لأنهم قد أباحوا صَنعاء وما فيها ومن فيها للقبائل، وذهبت المرأة وطفلها ضحية طمع القبيلي وظلم الحاكم..».[1]

(1) ـ مذكرات القاضي الإرياني، 144

إعدام الأحرار

تم القبض على الأحرار، بل والمشتبه به، وإيداعهم السجون، تمهيدا لقتلهم بأوامر الطاغية الجديدة الذي نصّب نفسه ملكا، بدلا عن أبيه. ومن لم يُعدم منهم كان السجن نصيبه، وأي سجنٍ هو سجن الإمامة حينها، أوكار ودهاليز لا تصلح للحيوانات، تفتقر إلى أدنى الخدمات الإنسانية.

أكثر من أربعين قائدًا من قيادات الثورة أعدموا، بالأوامر المباشرة من الطاغية أحمد، هم خيرة رجالات اليمن ونخبتها المتميزة، ولم يفلت من حد السيف أو ظلمة السجن إلا القلة القليلة منهم. ومن هؤلاء الذين أعدموا الإمام عبدالله الوزير وزيد الموشكي ومحي الدين العنسي وعبدالوهاب نعمان والمطاع والمسمري، وعلي عبدالله الوزير والكبسي وغيرهم، بعد معاناة شديدة مما لحق بهم، فكان القتل أرحم. «وكانت تلك الإعدامات غير عادلة، وغير شرعية، وبدون ادعاء، ولا إجابة، ولا دفاع، ولا استئناف؛ حيث كان الإنسان أرخص من الخروف في حكم أولئك الأئمة. وكان أول الشهداء الإمام عبدالله الوزير، والأستاذ أحمد البراق، والثائر زيد الموشكي، ومحمد الوزير ــ بضم الميم ــ والنقيب حسين صالح الشايف. وأرسلت رؤوسهم إلى صنعاء من حجة، وعُرضت في نوافذ وزارة الصحة، أمانة العاصمة، بميدان التحرير، بعد عبث نساء الإمام برأس عبدالله الوزير كالكُرة».[1]

ومع هذا فقد سجلوا كلمات خالدة في ساحات الإعدام، انتهوا أجسادًا؛ لكنهم تخلدوا أرواحًا، وبقيت تلك الكلمات، وستظل كذلك خالدةً أبد الآبدين.

---

(1) ــ ثورة 55م الأكوع، 82. وقد كتب منطوق الحكم يحيى محمد عباس الشهاري، «عم الدكتور محمد عبدالملك المتوكل» وأحمد محمد زبارة «أحد أقارب الإمام» بأمرٍ من الطاغية الجديد أحمد حميدالدين، بدون ادعاءات ولا مرافعات ولا حيثيات، وطُلبا من القاضي عبدالله علي اليدومي، التوقيع عليه إلى جانبهما فرفض اليدومي؛ بل ونقض الحكم، بلزوم التحري شرعًا قبل الجزم بالإعدامات. وكان القاضي اليدومي مضرب المثل في الاستقامة والنزاهة.

كلمات للتاريخ

يقتضي الحديث عن شهداء الدستور التوقف عند آخر كلمات تفوهوا بها، وهم يساقون إلى الإعدام، لنستلهم منها الثبات على المبادئ، والانتصار للوطن حتى آخر لحظة في حياة أي إنسان. هذه كلمات قالها بعض شهداء ١٩٤٨م وهم يواجهون السّياف بشجاعة وبسالة، فكانت حروفها مسطرة بأحرف من نور في سجل الخلود:

الشهيد محيي الدين العنسي

أحد أبرز شهداء ثورة ١٩٤٨م كان من ضمن البعثة العسكرية اليمنية المتخرجة في العراق، استمر يقاتل بعد إخفاق الثورة حتى اليوم الثاني وحيداً.

غلط السجّان فنادى أخاه أحمد بن قاسم إلى ساحة الإعدام، وكان الأخوان في زنزانة واحدة. وما كاد أحمد يلبي نداء السجّان حتى هبّ محيي الدين يصحح غلط السجان، ويقول له: إن المقصود هو محيي الدين، وليس أحمد، وأنا محيي الدين، وبينما كان السجان يتأكد من الأمر، وهو فعلاً باسم محيي الدين كان الأخوان البطلان يتجاذبان الشهادة في موقف من أروع مواقف البطولة والتضحية والفداء.

وحين خرج محيي الدين إلى ساحة الإعدام كان يردد هذين البيتين من الشعر، متمثلاً بهما، وهما من شعر إبراهيم الحضراني:

كم تعذبتُ في سبيل بلادي وتعرضتُ للمنون مرارًا
وأنا اليوم في سبيل بلادي أبذل الروح طائعًا مختارًا

الشهيد زيد الموشكي

كان آخر ما قاله وهو في طريقه إلى ساحة الإعدام: «لئن أبقى الله بيت حميد الدين فلن يعبد بعد».

الشهيد أحمد المطاع

لما نودي به إلى ساحة الإعدام وكان مكتفًا مكبلاً، وجد الأميرين مطهر بن يحيى ومحمد بن أحمد يحيى في انتظاره، فبصق في وجهيهما وقال: «لا تزال هذه الشجرة الخبيثة تلاحقني حتى هذه اللحظات المقدّسة».

الشهيد عبدالوهاب نعمان

كان آخر ما فاهت به شفتاه قول الله تعالى: «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضيّة فادخلي في عبادي وادخلي جنتي».

الشهيد حسن صالح شايف

لما أراد السّياف أن يعصب عينيه برباط، حتى لا يرى السيف، انتهره ببسالة وعنفوان، وقال له: «ابعد الرباط؛ إنما الموت في هذه السّاحة للرجال».

الشهيد صالح المسمري

لما رأى رؤوس رفاقه تتدحرج في ساحة الإعدام بعث إلى الإمام أحمد برقية من سجن حجة، قال له فيها: «ما هكذا يا سعد تورد الإبل». فردّ عليه الإمام ببيت من شعر:

ليس بيني وبين قيس عتـــاب غير طعن الكلى وضرب الرقاب

فأجابه متحديًا: «إن كنت شهماً فعجل، فوالله إنّ باطن الأرض خيرٌ من ظهرها «وسيرى الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

الشهيد العلامة حسين الكبسي

كان آخر ما قاله:

ولست أبالي حين أُقتَل مسلمًا على أي جنب كان في الله مصرعي

الشيخ محسن علي هارون، شيخ بني حارث:

حين دُعيَ إلى ساحة الإعدام شدّ أحدُ الحراس الحبلَ على ساعديه بقوة، فقال له الشيخ ساخرًا: «لا قدك تحت الميزاب لا تقل يح» وأضاف: «خوفي عليكم يا أولادي لأنكم ما تزالون شبابًا ستلاقون الأمرّين من حكم الطغاة؛ أما أنا فقد أحسن الله خاتمتي بالشهادة بعد أن انتقمتُ من أكبر جرثومة عرفها التاريخ».

الشهيد علي عبدالله الوزير

كان يتلو سورة الكهف، فلما ضربت عنقه سكت لسانه.

الشهيدان: محمد بن حسن بن قائد أبو راس وعبدالله بن حسن بن قائد أبو راس

حين دنا السياف من أحدهما ليضرب عنقه، التفت إلى أخيه، فبادله الابتسامات الأخيرة، وقال له: «إلى اللقاء في الجنة يا أخي».

عزيز يعني

كان هو الوحيد الذي يملك حذاءً في السجن، وكان الأحرارُ يتداولونه للخروج إلى دورة المياه التي هي أشبه ما تكون بمستنقع. حين دُعي إلى ساحةِ الإعدام أوصى رفاقه بالصبر والثبات، كما أوصى لهم بحذائه. وفي عاصفة من الضحك والبكاء عانقهم وتوجّه إلى قدره المشرّف في شجاعة وثبات، وخاطب حرس السجن وهم يشدون يديه إلى قفاه يستوصيهم برفاقه خيرًا.

محمد قائد الحسيني

وكان من أبطال بني حشيش المعدودين، حين عُثر عليه، وسيق إلى صنعاء، ليمكث فيها ثلاثة أيام قبل إعدامه كان يردد الزامل ذاته الذي كان يردده مع زملائه وهم في طريقهم إلى «حزيز» لقتل يحيى، والزامل هو:

سيد تكبر الله أكبر لا بد ما نهجم جباه
نضرب على كبده بمعبر ونلحق الذائب وراه[1]

(1) ــ انظر: صحيفة الجمهورية، بتاريخ 16/1/ 2008م، مذكرات محمد عبدالواسع الأصبحي. وأيضا موقع «يمرس» على الرابط: https://www.yemeress.com/algomhoriah/2054231

الشهيد جمال جميل

«لقد حبلناها، وستلد»..

نخصصُ السطورَ القادمة للحديث عن الشهيد جمال جميل، وفاءً لابن العراق الحر، وتقديرًا لدوره النضالي الكبير الذي سطره بإباء وشموخ، وكان بوسعه أن يُجامل ويداهن، ويثرى، لكنه انحاز للمبدأ على المصلحة، ولسواد الناس على طغاتهم.

جمال جميل.. القائد العسكري للانقلاب

يقال: الرجال مواقف، وفي الشدائد لا يثبت إلا الأبطال. وقد كان الرئيسُ جمال جميل[1] ــ القائد العسكري للانقلاب ــ رمزًا من رموز البطولاتِ التاريخية التي ثبتت في أحلك اللحظات، وسجلت مواقفَ بطوليّة للتاريخ.

يقتضي الحديثُ عن الدورِ البُطولي الرائد الذي لعبه الشهيد جمال جميل في الثورة الدستورية العودة إلى بداية وصوله إلى اليمن، ضمن كوكبةٍ من القادة العسكريين الذين درّبوا الجيش الذي ورث الإمام يحيى تقاليدَه العسكرية من الأتراك، ثم بدأ يقضي عليه، حتى أحس بالحاجة له ثانية.

---

(1) ــ جمال جميل الجبوري، من مواليد الموصل بالعراق، ضابط وقائد عسكري عراقي، من خريجي الكلية الحربية بالعراق، تعين مرافقًا لرئيس أركان الجيش العراقي بكر صدقي، وشارك في الحركة التي تزعّمها بكر صدقي ضد نوري السعيد رئيس الوزراء العراقي التي انتهت بمقتل بكر صدقي، واعتقال أتباعهِ والحكم عليهم بالإعدام، ومنهم جمال جميل، غير أنّ هذا الحكم أُلغي، لاعتبارات عشائرية. تعيّن بعد خروجهِ من السجن في القوات النهرية، التي كانت تجوب نهري دجلة والفرات. جاء إلى اليمن ضمن بعثة عسكرية عراقية لتعليم وتدريب الجيش اليمني في فبراير 1939م، برئاسة إسماعيل صفوت. عمل من خلال موقعه على إدخال المدفعية في الجيش اليمني، وفتح دورات للضباط، وتحديث أساليب التدريب، حتى تشكّل فوج مدفعي نموذجي، كما عمل على زيادة مرتبات أفراد وضباط الجيش؛ محاولة منه للقضاء على ظاهرة الرشوة التي انتشرت في أوساط الجيش آنذاك. وفي عام 1943م عادت البعثة العراقية إلى العراق إلا أنَّ جمال جميل تأخر عن العودة، وفضّل البقاء في اليمن، وأقام علاقاتٍ واسعة في المجتمع من حوله، سواء داخل الجيش أو لدى الأسر الكبيرة، وكان يشارك الناس أفراحهم وأتراحهم، حتى أصبح أحد وجهاء مدينة صنعاء وأعلامها.

يروي المؤرخ الشماحي طرفًا من الثبات الأسطوري العظيم الذي سجله الشهيد جمال جميل يوم مقتل الطاغية يحيى حميدالدين، قائلا: باحتلال قصر غمدان تفرغ الرئيس جمال جميل لمنازلة الحسين وإخوته وأعوانهم بصنعاء، وحفظ الأمن الذي بدأ حبله يضطرب في مخافر الجيش «والعرضيين»، فقد أسرع جمال إلى العرضي العسكري، إلى سريّتين من شباب الجيش، كانتا تحت الاستعداد لأمر هام غير معلوم، إلا لأفراد منهما، فوضع سرية في المناطق العسكرية الحساسة، واحتل حسن العمري الإذاعة، وزحف جمال بسريةٍ يصاحبه السلال وعنبة والسعيدي[1] وغيرهم إلى قصري الإمام: داري السعادة والشكر، وضرب عليهما وعلى الحسين نطاقًا مُحكمًا، وكان في إمكان الحسين أن يضرب الحاضرين من أسوار القصرين بالبنادق والمدافع، ويوقع فيهم مجزرة، لأنهم كانوا خارج القصرين، وأكثرهم غير مستورين، ولو فعل الحسين ذلك لدخل معهم ومع الوزير في حرب بصنعاء، قد تكون له أو عليه؛ لكن الحسين ليس برجل حرب، فقد خرج إلى باب دار السعادة، محاولا أن يكيد جمال جميل بالمنطق، ليوقعه في الأسر، فطلب من جمال أن يتقدم إليه لدراسة الموقف كأنه في جامعة أثينا مع سقراط، لا في أتون ثورة لا تعرف إلا فلسفة المدفع والبندق. وقد أجابه جمال ــ وهو القائد العسكري وفوّت خدعة الحسين ــ أنه لم يبق هناك للدراسة مجال، فالشعب قد ثار وعرف طريقه، واختار عبدالله الوزير إماما، فعلى الحسين أن يذهب بأمان إلى مجلس الشعب المعقود بقصر غمدان برئاسة الوزير، فغضب الحسين، ولم يتوارَ ويغلق الباب؛ بل أمر في سذاجة بإطلاق الرصاص على جمال، فسبقه جمال بإشارة خاطفة أطلقت الرصاص من عدة جوانب، فإذا بالحسين وأخيه المحسن صريعين. وكانا بجانبهما أخوهما يحيى لم يُصب، إلا أنه تظاهر أنه من الصرعاء، واضطجع بجانب أخويه المقتولين، وتمكن يحيى من الاستلال في غمرة الهرج، يريد قصر غمدان، فقبض عليه..[2]

(1) ــ عبدالله السلال الذي صار أول رئيس للجمهورية بعد ثورة 62م، وعنبه: حسين عنبة، والسعيدي: النقيب محمد ملهي السعيدي، قُتل في أحد شوارع صنعاء يوم فشل الثورة من قبل أحد أتباع الطاغية أحمد.

(2) ــ اليمن الإنسان والحضارة، 245.

مضيفا: فقد ترك جمال القصرين محاصرين، وانصرف لتنظيم الإدارة بصنعاء، وتنفيذ الخطط الثورية.[1]

وظل جمال جميل شعلة متوقدة من الهمة العالية والنشاط، مواصلا الليل بالنهار، متنقلا بين الأحياء، ومتفقدًا للجيش، يشحذ الهمم ويوجه الجند، ويحضر اجتماعات القيادة السياسية مع الإمام الجديد عبدالله الوزير الذي خذله، كما خذل الشعب في تراخيه وتساهله الساذج في قضية مصيرية، كان ينبغي أن يكون على قدر كبير من المسؤولية وقيادة الأمة، فالجماهير بطبيعتها ميالة إلى القائد القوي، وإن كان ظالمًا، نافرة من القائد الضعيف، وإن كان عادلا. ثم إنه لا ينفع مع القيادة إلا الحزم والعزم، وخاصة في اللحظات الحاسمة، لا التراخي والإهمال الذي يخلف الكوارث.

استشهـــــاده

في مارس من نفس العام، أي بعد فشل الثورة بأيام، أمر الطاغية أحمد بإعدام القائد العسكري للانقلاب الرئيس جمال جميل المدفعي. وفي ذلك اليوم المشؤوم أمر الطاغية الحسن بن يحيى بإخراج تلاميذ الرئيس من طلبة المدرسة الحربية من المعتقل تحت حراسة شديدة، ليشهدوا مصرعَ مُربيهم العظيم، مبالغة منه في التهكم والتحدي، ولما كانوا محيطين به في ساحة الإعدام قال لهم الحسن: أما الآن فاحرسوه، قاصدا تهديدهم وزعزعة ثقتهم بأنفسهم، ولكن المربي التفت إلى أبنائه، قائلا لهم: لا تفزعوا يا أولادي ولا يُرهبكم مصرعي، عيشوا لمبادئكم وقضية وطنكم، ومُوتوا من أجلها، فالموتُ في سبيل الواجب شرفٌ وخلود. وإني أحمد الله الذي ختم كفاحي الطويل بالشهادة، وسألقاه راضيا مطمئنا، وإنه لا فرق في سبيل الواجب أن أموتَ في بغداد أو صنعاء، وإنكم عَزائي الوحيد في الحياة، فأنتم الذي ستحملون

(1) ـ نفسه، 245.

مشعلَ الحرية وراية الكفاح من أجل أجيالكم القادمة، وكفانا فخرًا وعزًا أننا قد فتحنا لكم نافذة النور، وأزلنا من طريقكم أعظمَ وأشرسَ طاغية عرفه التاريخ. وبينما هو مسترسلٌ في كلامه إذ وثب عليه الأمير إسماعيل، وهو على ظهر جواده، وضربه بعصاه في وجهه، حتى سالت دماه، فالتفت الرئيس القادم، قائلا له: هذا فعلُ الأنذال يا وغد. أين كنت يومها حيث كنت تبكي بكاء الأرامل؟ أمّا اليوم وأنا في الوثائق[1] فإنك تستطيعُ أن تفعل ما شئت، وإن كل قطرة دم تسيل مني على هذا التراب الغالي ستزرعه بالشوك وأسنة الحراب في طريقكم. وأراد الحسن أن يقطع الحوار، مستعجلا، فأمر بضرب عنقه، قائلا: كفى، ها أنت ذا تُساق إلى حتف أنفك، ذليلا فاشلا. فقال له القائد كلمته التاريخية الأخيرة: لقد حبلناها وستلد. ثم أمر الحسن بن يحيى، فضربت عنقه، فمات وهو صائم.[2] وكانت ترتيبه بين الشهداء الذين طالهم سيف الطاغية أحمد الثامن والثلاثين من جملة من طالهم سيف الطاغية وبندقيته وسمه. إذ قتل أغلبهم بالسيف، فيما قتل آخرين بالسم، كأخيه السيف إبراهيم، وقتل آخرين بالرصاص داخل الزنازن وخارجها.

وقد رثاه الشاعر إبراهيم الحضراني، رفيق دربه في النضال، والذي كان يومها يقبع في سجن حجة بقصيدة تم تهريبها من السجن، وتناقلها الناس، وشاعت بقوة بين الخاصة والعامة. ومنها:

حتامَ يا وطني أراك تُضامُ ... وعلى أديمك تُعبدُ الأصنام؟
وإلامَ يرتفع الطغامُ ويعتلي ... عرش التبابع معشرٌ أقزامُ
وإلامَ يأتي بالرزيئة والأسى ... عامٌ ويذهب بالفجيعة عامُ
أجمال ذكرك إذ يعود، يعود لي ... بين الجوانح زفرةٌ وضرامُ
خرجوا يقودون «الرئيس»[3] كأنه ... ملِكٌ وهم حول الرئيس سوامُ[4]

(1) ـ الوثائق: جمع وثاق، وهو ما يُربط به.
(2) ـ ثورة اليمن الدستورية، 150.
(3) ـ يقصد به جمال جميل، والرئيس رتبة عسكرية حينها توازي اليوم نقيب
(4) ـ سوام، وسوائم: الماشية من المعز والبقر والإبل، ترعى في البر.

وسطا على الضرغام كلبٌ أجربٌ إذ صار تحت إساره الضرغامُ
هلا برزت إليه إسماعيل إذ لا الكفُّ موثقةٌ ولا الأقدامُ

وكان لمقتله بسيف الطاغية أحمد أثرٌ كبير في أوساط من عرفه من أصدقائه وتلاميذه الذين تأثروا به، لمكانته عندهم، فقد كان مضرب المثل في الشهامة والكرم والنشاط الذي عُرف به، وربما لم يتأثروا لمقتل عبدالله الوزير كما تأثروا لمقتل جمال جميل، ابن العراق الشقيق الذي بذل روحه ودمه من أجل اليمن راضيًا مَرضيًا.

كما رثى أيضا الشهيد عبدالوهاب نعمان، بقصيدة، منها:

وابلغ القيل بأن الحمى ما أخلف الظن ولا خيبا
إن الدم المسفوح في حجة قد سمّد الأرض وقد خصبا
صنعاء للزوار مفتوحة والماء في ذبحان والكهرباء.

ورثى حاله في سجن حجة بعد ثورة ٤٨م، شعرًا بقوله:

ففي أمة منكوبة كان مولدي إليها نفى الله الشقاء والتوانيا
نشأتُ وما صدرٌ إليه يضمني يتيما بأحضان الشقا مترامیا
وكم طفتُ في طول البلاد وعرضها وقد أثقلوا بالقيد عنقي وساقيا
سلوا «حجة» عني محا الله سجنها وإن شاء بعد السجن دكَّ المبانيا
تعشقت فيها الموتَ بل صرتُ عاشقا وفيها تخيلتُ القبور غوانيا

وفي رثاء ثورة ٤٨م الدستورية، نظم الزبيري واحدة من أروع قصائده، بعنوان رثاء شعب، وهو متشرد في باكستان قال فيها:

ما كنتُ أحسِبُ أني سوفَ أبكيهِ وأنّ شِعْري إلى الدنيا سينعيهِ
وأنني سوف أبقى بعد نكبتهِ حيّاً أُمزّق روحي في مراثيه
وأنّ من كنتُ أرجوهم لنجدتهِ يومَ الكريهةِ كانوا من أعاديهِ
ألقى بأبطاله في شرّ مهلكةٍ لأنهم حقّقوا أغلى أمانيهِ
قد عاش دهراً طويلاً في دياجرهِ حتى انمحى كلُّ نورٍ في مآقيهِ

فصـــار لا الليـــلُ يُؤذيـــه بظلمتـــهِ ... ولا الصباحُ إذا مـــا لاح يهـــديهِ
فـــإن سلمـــتُ فإني قد وهبـــتُ لهُ ... خلاصةَ العمـــرِ ماضيـــه، وآتيـــهِ
وكنتُ أحرص لو أني أمـــوت لـــهُ ... وحدي فداءً ويبقى كـــلُّ أهليـــهِ
لكنـــّه أَجَـــلٌ يأتي لمـوعـــــــدهِ ... مـــا كـــلُّ من يتمنّـــاه مُـــلاقيهِ
وليـــس لي بعـــده عُمْـــرٌ وإن بقيـــتْ ... أنفـــاسُ روحـــيَ تفديـــه، وترثيـهِ
فلســـتُ أسكُنُ إلا في مقـــابـــرهِ ... ولســـتُ أقتـــاتُ إلا مـــن مآسيهِ
ومـــا أنا منـــهُ إلا زفـــرةٌ بقيـــتْ ... تهيـــم بين رُفـــاتٍ من بـــواقيـــهِ
إذا وقفـــتُ جثـــا دهـــري بكَلْكَلِهِ ... فوقي وجَرّتْ بيافوخـــي دواهيـــهِ
وإن مشيـــتُ بـــه ألقـــتْ غيـــاهبُهُ ... على طـريقي شِبـاكـــاً من أفـــاعيهِ
تكتّلـــتْ قـــوّةُ الدّنْيـــا بأجمعهـــا ... في طعنةٍ مزّقتْ صـــدري وما فيهِ!
أنكبـــةٌ مـــا أُعـــاني أم رؤى حُـــلُمٍ ... سهتْ فأبقتهُ في روحـــــي دواهيه
أعوامُنا في النضـــــال المـــرِّ جاثيـــةٌ ... تبكي النضالَ، وتبكي خطبَ أهليهِ
بالأمـسِ كـــانت على الطغيان شامخةً ... تجلوه عاراً عـــلى الدنيا وتُخـــزيهِ
وارتـــاع منهـــا طغـــاةٌ مـــا لهـا صلةٌ ... بهـــم، ولا كـــان فيهم من تُناويهِ
لكنهم أَنِســـوهـــا شعلـــةً كـــشفتْ ... من كان عُريانَ منهـم في مخـــازيهِ
فأجمعـوا أمـــرَهم للغـدر وانتـدبوا ... لكيـــدنا كـــلَّ مأجـــورٍ، ومشبوهِ
واسْتَكلبـــتْ ضـــدّنا آلافُ ألســـنةٍ ... تسُومُنا كـــلَّ تجـــريحٍ، وتَشْويـــهِ
من كـــلِّ مرتـــزقٍ لـــو نال رشوتَنا ... أنالنـــا كـــلَّ تبجيـــلٍ، وتنـــــويهِ
وكـــلِّ طـــاغيةٍ لـــو نرتضـــي معهُ ... خِيَـــانَةَ الشـــعبِ جـــاءتْنا تهانيهِ
وكـــلِّ أعـــمًى أردنـــا أن نـــردّ لـــهُ ... عينيـــه، فانفجـــرت فينا لياليهِ !
وكـــلِّ بـــوقٍ أصـــمِّ الحسِّ لو نَبَحَتْ ... فيـــه الكـــلابُ لزكّـــاها مُزَكيّـــه
وألبّوا الشعبَ ضدَّ الشعبِ واندرأوا ... عليه من كلّ تضليـــــلٍ وتمويـــهِ
يَاشَعْبَنا نصـــفَ قـــرنٍ في عبـادتهمْ ... لم يقبلـــوا منـــكَ قُربـــاناً تُؤدّيـــهِ
رضيتَهُمْ أنـتَ أرباباً وعـشتَ لهـم ... تُنيلُهـم كـــلَّ تقـــديسٍ، وتَأليـــهِ

لم ترتفع من حَضيض الرقِّ مرتبةٌ ... ولم تذق راحةً مما تقاسيهِ
ولا استطاعت دموعٌ منكَ طائلةٌ ... تطهيرَ طاغيةٍ من سكرة التّيهِ
ولا أصختَ إلينا معشراً وقفوا ... حياتَهم لكَ في نُصحٍ وتوجيهِ
نبني لك الشرفَ العالي فتهدِمُه ... ونَسْحَقُ الصَّنَمَ الطّاغي فتبْنيهِ
نَقْضي على خصمكَ الأفعى فتبعثُهُ ... حيّاً ونُشْعِلُ مصباحاً فتُطْفِيهِ
قَضَيْتَ عُمْرَكَ ملدوغاً، وهأنذا ... أرى بحضنكَ ثُعباناً تُربّيهِ
تشكو لهُ ما تُلاقي وَهْو مُبتعثُ الشْـ ... ـكْوى وأصلُ البَلا فيما تُلاقيهِ
أحْلى أمانيهِ في الدنيا دموعُكَ تُجْـ ... ـريها، ورأسُكَ تحت النّيرِ تُحْييهِ
وجرحُكَ الفاغر الملسوعُ يحقِنُهُ ... سُمّاً، ويعطيه طِبّاً لا يداويهِ
فلا تُضِعْ عُمْرَ الأجيالِ في ضعة الشْـ ... ـكوى فيكفيكَ ماضيه، ويكفيهِ
فما صُراخُكَ في الأبوابِ يعطفُهُ ... ولا سجودُكَ في الأعتاب يُرضيهِ
لا عنقُكَ الراكعُ المذبوحُ يُشْبِعُهُ ... بطشاً، ولا دمُكَ المسفوحُ يُرويهِ
فامْدُدْ يديكَ إلى الأحرارِ متّخذاً ... منهمْ ملاذَكَ من رقٍّ تُعانيهِ
ماتوا لأجلكَ ثم انبثّ من دمهم ... جيلٌ تؤججُهُ الذكرى، وتُذكيهِ
يعيشُ في النكبةِ الكبرى ويجعَلُها ... درساً إلى مُقْبل الأجيالِ يُمليهِ
لا يقبلُ الأرضَ لو تُعطى له ثمناً ... عن نهجه فَي نضالٍ، أو مَباديهِ
قد كان يخلُبُهُ لفظٌ يفُوه به ... طاغٍ، ويخدعُهُ وعدٌ، ويُغْويهِ
وكان يُعْجبه لصٌّ يجودُ لهُ ... بلقمةٍ سَلّها بالأمْسِ من فِيهِ
وكان يحتسِبُ التمساحَ راهِبَهُ الْـ ... ـقِدّيسَ من طولِ دمعٍ كان يجريهِ
وكان يَبذُلُ دنياه لحاكِمِهِ ... لأنه كان بالأُخرى يُمنّيهِ
وكان يرتاعُ من سوطٍ يلوحُ له ... ظنّاً بأن سلامَ الرقّ يُنجيهِ
واليومَ قد شبَّ عن طوقٍ، وأنضجَهُ ... دمٌ، وهزّتْه في عنفٍ معانيهِ
رأى الطغاةُ بزن الخوف يقتلهُ ... وفاتهم أن عنفَ الحقدِ يُحييهِ
قالوا انتهى الشعبُ إنا سوف نقذفهُ ... إلى جهنّمَ تمحوه، وتُلغيهِ

فلينطفئْ كلُّ ومضٍ من مشاعـــــرهِ ... ولينسحقْ كـلُّ نبـــضٍ من أمانيهِ
وليختنقْ صوتُهُ في ضجّة اللـهبِ الْـ ... أَعْمى وتحـــترقِ الأنفـــاسُ في فِيهِ
لِنْشربِ الماءَ دَمّـــاً من مذابحـــــــهِ ... ولنحتـــسِ الخمـــرَ دمعاً من مآقيهِ
ولنفرحِ الفرحـــةَ الكبرى بمـــــأتمِهِ ... ولنضحكِ اليومَ هُزْءاً مـــن بواكيهِ
ولنمتلِـــكْ كلَّ ما قـــد كـان يملكهُ ... فنحـــن أولى به مـــن كـــلّ أهليهِ
وَلْينسَه الناسُ حـــتى لا يقـــولَ فَمٌ ... في الأرض ذلك شعبٌ مات نرثيهِ
ويحَ الخياناتِ، مَن خانت ومن قتلتْ؟ ... عربيدُها الفـــظّ يُرديهـــا وتُرديـهِ
الشعـــبُ أعظمُ بطشاً يومَ صحـوتهِ ... من قاتليـــه، وأدهـــى من دواهيهِ
يغفو لكي تخدعَ الطغيـــانَ غفـــوتُهُ ... وكي يُجَـــنَّ جنونـــاً من مخـــازيهِ
وكي يسيرَ حثيثـــاً صـــوبَ مصرعهِ ... وكي يخـــرَّ وشيـــكاً في مهـــاويهِ
علتْ بروحي همومُ الشعبِ وارتفعتْ ... بها إلى فـــوق مـــا قد كنتُ أبغـيهِ
وخـــوّلتْني الملايـــينُ التي قُتِـــلتْ ... حقَّ القِصاص على الجـلاّد أَمْضِيهِ
عندي لشـــرٍّ طغـــاةِ الأرضِ محكمةٌ ... شِعري بها شرُّ قـــاضٍ في تقـاضيهِ
أدعـــو لها كـــلَّ جبـّارٍ، وأسحبـــهُ ... من عرشه تحت عبءٍ من مسـاويهِ
يحنـي ليَ الصنـــمُ المعبـــود هامتـــهُ ... إذا رفعـــتُ لـــه صـــوتي أُنـــاديهِ
أقصـــى أمانيـــه منّـــي أن أُجنّبـــهُ ... حُكْمـــي، وأدفنـــه في قبر ماضيهِ
وشـــرُّ هـــولٍ يلاقيـــه، ويسمعـــهُ ... صوتُ الملايينِ في شعري تُنـــاجيهِ
وإنْ يرى في يـدي التاريـــخَ أنقلـــهُ ... بكـــلّ ما فيـــه للدنيـــا وأَرويـــهِ
يرى الذي قـــد تُوفّي حُلْـــمَ قافيـــةٍ ... مني فيُمعـــن رعبـــاً في تَوفّيـــهِ!!
وليس يعـــرف أني ســـوف ألحقـــهُ ... في قبـــره ازْدادَ مـــوتاً، أو مَـرائيهِ
أُذيقه المـــوتَ مـــن شعرٍ أُسجّـــرهُ ... أشدُّ من موتِ «عزريلٍ» قـــوافيـهِ
موتٌ تجمّعَ من حقد الشعـوبِ عـلى ... الطُغيانِ فازداد هـولاً في معـــانيهِ
يؤزّه في اللظى غمـــزي، ويُذهـلـــهُ ... عن الجحيم، وما فيـــه، ومَـنْ فيهِ
سأنبش الآهَ من تحت الثـــرى حِمَـــماً ... قد أنضجتْـــه قـــرونٌ من تلظّـــيهِ

وأجمع الدمعَ طُوفانـــاً أُزيـــل بـــهِ حكمَ الشرورِ من الدنيـــا وأنفيـــهِ
أُحارب الظلمَ مهما كـان طابعـــهُ الْـ ـــبَرّاقُ أو كيفما كـــانت أســـاميهِ
جبينُ «جنكيزَ» تحت السـوطِ أجلدهُ ولحمُ «نيرونَ» بالسفّـــود أشـــويهِ
سِيّان من جاء باسم الشعـــبِ يظلمهُ أو جاء من «لندنٍ» بالبـــغي يَبغيهِ!
«حَجّاجُ حَجّةَ» باسم الشعبِ أطردهُ وعُنْقُ «جنبولَ»باسم الشعبِ ألويهِ

كما رثاه أيضا بقصيدة أخرى، بعنوان: نكسة الثورة اليمنية.

أنا راقبتُ دفْنَ فرحتِنا الكبـــرى وشاهدتُ مصرعَ الابتســـامة
ورأيتُ الشعب الذي نزَع القيـــد وأبْقى جذورَه في الإمـامـــــة

وبهذا ينتهي الفصل الأول من فصولِ النضال الذي احتوى على محطاتٍ عدة. تبعه فصلٌ جديدٌ بمحطاتٍ جديدة، حتى تكللت محطتُه الأخيرة بثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م المجيد.

12ـ الاتحـــــاد اليمني

تتغيرُ الأزمان، ومعها تتغير آلياتها ووسائلها، لأن ما كان صالحًا بالأمس لم يعد نافعًا اليوم، وما هو نافع اليوم، لن يصلح للغد. وهكذا هي دورة الزمان وطبيعة الحياة..

انتهى عقد الأربعينيات اليمني مثقلا بمآسيه الدامية وأحزانه المبكية، مخلفًا ندوبًا وشُروخا نفسية عميقة في الذات اليمنية، وخاصة لدى النخبة المستنيرة، ورجالات الصف الأول من المواطنين الأحرار الذين انتهى بهم الحال جميعًا ما بين قتيل أو سجين أو متشرد، وحسن الحظ منهم من ظل لزيم داره تلاحقه الشبهة، وتترقبه العيون.

وأطلَّ عقدُ الخمسينيات من جديد، ولا نكاد نعثر على نشاط ذي شأن لمن تبقى من المناضلين الأحرار في عدن، وأغلبهم من الشباب، ومن الجيل الثاني من المناضلين إن صح التعبير، مثل: علي محمد الأحمدي، ومحمد أحمد شُعلان، وأحمد محمد هادي، وغيرهم، حتى شهر يوليو ١٩٥١م، حين زار عدن رجل الأعمال اليمني في الحبشة عبدالقوي مدهش الخرباش، فاستضافوه ضيافة لائقة به، مع مقيل عام، تساءلوا فيه عمّا يمكنهم أن يقوموا به من نشاطٍ جديد؛ مواصلين الدورَ النّضالي للآباء الذين ابتلعتهم مأساة ٤٨م ما بين قتيل أو سجين أو مشرد، كما أسلفنا، وعلى رأس هؤلاء: نعمان سجينا في حجة، والزبيري شريدًا في باكستان.

في تلك المناسبة اتفقوا على تأسيس كيان جديد، يحمل اسم: «الرابطة اليمنية»، ويبدو أن الفكرة كانت جاهزة من قبل لدى قيادة هذا التكوين الجديد؛ إذ انتخبوا له هيئة تأسيسية وجمعوا من المال ما يمكنهم من استئجار مقر لهم في عدن وسط محاذير وتخوفات؛ كون هؤلاء كلهم، أو أغلبهم من الشمال، وليس لهم حق الإقامة الدائمة في عدن الخاضعة للاحتلال البريطاني، كما أنه ليس من حقهم ممارسة أي نشاط سياسي.

وبعد أخذ ورد اهتدوا إلى فكرة «نادي الاتحاد اليمني» والذي تقدموا به

للسلطات البريطانية على أنه نادٍ ثقافي، اجتماعي، من جملة النوادي القروية المنتشرة في عدن، ولم تكن السلطات البريطانية تمانع منها آنذاك؛ لأن نشاطَها ثقافي لا سياسي، فحصلوا على الإذن الرسمي في ١٢ يوليو ١٩٥٢م.[1]

ومن جديد انطلقوا بقيادة جديدة للنادي الذي أسموه فيما بعد «دار الاتحاد اليمني» واختصارًا «الاتحاد اليمني»، وانتخبوا كلا من:

عبدالقادر أحمد علوان: رئيسًا

علي محمد الأحمدي: أمينا عاما

عبدالرحمن عبدالرب: أمينا للمال

السيد أحمد عبدالله عشيش: نائبًا للرئيس

أحمد محمد هاجي: نائبا للأمين العام

محمد أحمد شعلان: مستشارًا.

إلى جانب مجموعة أخرى كأعضاء، أو هيئة إدارية.

وكانت تجربة جديدة في النضال لفريق، يعتبر امتدادًا للرعيل الرواد المؤسسين لحزب الأحرار والجمعية اليمانية الكبرى، وكان علي محمد الأحمدي ومحمد علي الأسودي يمثلان شوكة الميزان، والمرجعية الأولى للشركاء الجدد الذين لا يجمعهم إلا السخط على النظام الإمامي البغيض فقط، والذين بدأوا نشاطهم المحدود، بالتواصل مع اليمنيين في المهجر، وخاصة في الحبشة، وبالبرامج الثقافية، لا السياسية حتى لا يتم سحب التصريح عليهم إذا ما ثبت أنهم يتخذون من الاتحاد غطاء لأهداف سياسية.

(1) ـ انظر: لمحات من تاريخ حركة الأحرار، سابق 392.

الاتحاد اليمني في القاهرة

قامت ثورة يوليو المصرية، سنة ١٩٥٢م، معلنة العهد الجمهوري، على أنقاض العهد الملكي، وكانت ثورة بيضاء، لم تُرق فيها الدماء؛ قادها محمد نجيب وجمال عبدالناصر، ولعب الأخير الدور الأبرز فيها، وفيما بعدها. وكان الإخوان المسلمون أبرز تيار سياسي فاعل في المساهمة في الثورة؛ الأمر الذي جعلَ من الفضيل الورتلاني يعودُ بعدها مباشرة بأيام، ويلحقه الزبيري أيضًا بأيام في الشهر التالي للثورة. وهناك تم تشكيل «الاتحاد اليمني» برئاسة الزبيري، وعضوية كل من: علي الجنّاتي، الأمين العام، وأحمد الخزان وحسين المقبلي وعلي عاصم. وكان نشاط هؤلاء في أغلبه ثقافي أدبي أكثر منه سياسي، فعلاقة الزبيري نفسه بالإمام أحمد في هذه الفترة هادئة، بل نستطيع القول علاقة يسودها الود، بعد تدخل الشيخ البيحاني قبل ذلك لدى الإمام أحمد، وتوسطه للسماح لعائلة الزبيري اللحاق به، ولعفو الإمام عنه، بعد أن كان قد بعث برسالة لنظيره الباكستاني يطالبه بإعادة الزبيري. وقد حصلت بينهما مراسلات خلال تلك الفترة، ومن يطلع عليها يكتشف طبيعة العلاقة بينهما.

ورغم أنّ اتحاد القاهرة فرع من اتحاد عدن إلا أنهما بديا شبه منفصلين عن بعضهما، عدا ما كان قائما من التعاون بينهما في جانب التعليم، من إرسال الطلب من اتحاد عدن، واستقبالهم في اتحاد القاهرة، ثم تأطيرهم في الاتحاد، وهو نشاط مشترك يعكس الرؤية البعيدة والعميقة لهما معا، لما للتعليم من أهمية تنويرية للشعب.

وقد باشر اتحاد القاهرة أعماله السياسية مباشرة، بعد تأسيسه، فأصدر آخر سنة ١٩٥٢م دستور الدولة الجديدة، والذي يكاد يكون امتدادًا لمنهاج حزب الأحرار والجمعية اليمانية الكبرى والميثاق المقدس، مطالبين فيه بالشورى والإدارة الحديثة والانفتاح على الآخرين، وقد كان بعنوان «آمالنا وأمانينا». ومضمون ذلك الدستور يحول النظام من ملكية مطلقة، إلى ملكية دستورية، وربما أكثر من ذلك.

أما عن اتحاد عدن، فيحدثنا على محمد عبده بقوله: «كان الاتحاد اليمني

يعتمد في إرساله للطلبة سنويًا، لمواصلة دراستهم في مصر على ما يجمعه من أموال خلال رمضان. ففي شهر رمضان كانوا يخرجون ــ وفي مقدمتهم الأستاذ عبدالقادر أحمد علوان، رئيس الاتحاد ــ ويطوفون شوارع عدن وأزقتها، يتنقلون من حانوت إلى آخر، يجمعون من أصحابها ما يجودون به من الزكاة، للإنفاق على الطلبة الذين يُرسلون إلى القاهرة، والذين كان عددهم السنوي يتوقف على ضوء ما يتحصله أعضاء الاتحاد ويجمعونه من نقود في تنقلاتهم.. ولم أجد بين الأعضاء من يضاهي محمد أحمد شعلان في حماسه لذلك، سوى عضو الهيئة الإدارية أحمد يحيى الكحلاني».[1]

وأعقب عبدَالقادر علوان في رئاسة الاتحاد الشيخ عبدالله علي الحكيمي، عقب عودته من بريطانيا، عبر انتخاب في أكتوبر ١٩٥٣م، إلا أن اتحاد عدن، لم يكن بأحسن حالا من اتحاد القاهرة؛ حيث عصفت به الخلافات الداخلية والاتهامات، وخاصة على الحكيمي من أعضاء الاتحاد أنفسهم الذين تحمسوا لترشيحه، ثم تطرفوا في انتقادهم له، حتى توفي في أغسطس ١٩٥٤م. وأعقبه في رئاسة الاتحاد رجل الدين الصوفي أحمد عبدالرقيب، والذي لم يكن من أعضاء الاتحاد سابقًا، إلا أنهم توافقوا عليه لثقتهم به، وقد وجدوا أنفسهم في أتون صراعات واتهامات داخلية، فقدوا الثقة ببعضهم البعض. وخلال هذه الفترة كلها ظل النشاطُ مقتصرا على الجانب التعليمي والتثقيفي فقط؛ ذلك أن من تبقى من قيادة الثوار قد جنحوا لهذه السياسة مع الإمام خلال هذه الفترة، ثم إن سياسة التنوير والتثقيف مهمة أيضًا، ولها أثرها الإيجابي، وإن متأخرًا.

وقد اطلع النظام الإمامي في صنعاء على هذا النشاط، وانزعج من هذه البعثات الطلابية، وخاصة الحسن، المعروف بتحجره وجموده، ووجهوا مفوضيتهم الرسمية بالقاهرة باحتواء الاتحاد، أو إحداث شرخ بينهم، وهو ما كان. وحدث ما حدث هناك من الجدل والخلافات، سواء بين قيادة الاتحاد

(1) ــ نفسه، 398.

المؤسسين، أو بين الطلبة اليمنيين أنفسهم في القاهرة، مواصلين نهجهم السياسي في التفريق بين اليمنيين حتى في الخارج، إلى حد إفلات الأمر من يد الزبيري وفقدانه التحكم في إدارة الطلبة المُنضمِّين للاتحاد، وهو رئيس الاتحاد؛ بل إلى حد اتهامه من قبل رفاقه بالسيطرة على الاتحاد والاستحواذ عليه، وبعضهم تقاعس عن القيام بأي دور فيه، وهو محسوب من قيادته،[1] وهو اتهام نالَ رفيقه نعمان سابقًا في حزب الأحرار والجمعية اليمانية الكبرى، فقال الزبيري في ذلك شعرًا، معاتبًا رفاقه الغاضبين عليه اتهاماتهم المختلفة له، في قصيدة بعنوان: إلى الغاضبين علينا:

أيها الغاضبون من ثقة الشعب ... بنا والمؤلبون علينا
أيها المرهقون يأسًا وغمًا ... وانهماكا في هدم ما قد بنينا
أيها الحاسدون من أجل عبءٍ ... قد ونينا من ثقله وانحنينا
لو حملتم من أمره ما حملنا ... لاشتكيتم من الأسى ما اشتكينا

**

أيها الزاعمون أنا احتكرنا ... دعوة الحق وحدنا وانزوينا
ما احتكرنا نضالنا؛ بل دعونا ... فرفضتم أن تفهموا ما عنينا
هالكم صبرنا على كل خطب ... فوقفتم من ذعركم ومضينا
ساءكم أننا انفردنا بعزمٍ ... وصمود، وأننا ما انثنينا
أنتمو.. ليس نحن..غبتم ليبقى ... شرف الحق كله في يدينا
يعلم الله أننا نتمنى ... لو رجعتم بعد العقوق إلينا
بل وندعو أن تسبقونا وتجنوا ... ثمرات الختام مما ابتدينا

**

أيها الكارهون أن يُقبِل الشعبُ ... علينا بالله ماذا جنينا
عرفتنا آهاته ومآسيه ... فنؤنا بنارها واصطلينا
سقمه يعرف العلاج بأيدينا ... ويدري بوعيه كم شفينا

(1) ــ انظر: نعمان الصانع الأول لقضية الأحرار، محمد محمود الزبيري، الاتحاد اليمني، القاهرة، لجنة الثقافة والنشر، 25.

13ـ انقلاب 1955م

يعزو المؤرخ الشماحي أن انقلاب مارس ٥٥م، بقيادة المقدم أحمد الثلايا،[1] نتاج فكرة خطيرة، تعود انطلاقتها الأولى إلى سجون حجة بين الأحرار الذين خططوا بعد فشل ثورة ٤٨م لمواصلة نضالهم، ولكن هذه المرة عبر إحداث شرخ عائلي داخل الأسرة الحاكمة. واتفقوا أن تكون بدايته الأولى التأسيس لفكرة ولاية العهد للشاب محمد البدر، نجل الإمام أحمد، وهي فكرة لاقت استحسانًا كبيرًا لدى الإمام أحمد، ولدى نجله محمد البدر كثيرًا، فذلك ما كان يريده الإمام، ويطمح إليه الشاب البدر، غير أن تفعيل الفكرة، وإخراجها للعلن تبدو صعبة، إن لم تكن في عداد المستحيل، ذلك لأن النظرية الهادوية من أساسها لا تقررُ هذه الفكرة، نظريًا، وإن كان قد بدأها أحمد من سابق، كما بدأها آخرون من قبلهم. وثانيا: لأن إخوة أحمد له بالمرصاد، فهم مؤمنون بإمامته؛ لكنهم لن يؤمنوا بشرعية نجله من بعده؛ لأن أخاه الحسن يرى نفسه الأولى بها. ليس ذلك فحسب؛ بل لقد كان الحسنُ مقتنعًا أنها خدعة انطلقت من مساجين حجة، ليتخذوا من البدر وسيلة إلى إنهاء حكم الأسرة المتوكلية؛ لأنّ البدرَ في نظر الحسن على حقيقته ساذج، لا يُعقد عليه أمل في حماية عرش، ولا في التفاهم لحماية الملك..[2]

ليس الحسن المتزمت والغارق في تخلفه وتحجره فحسب؛ بل الأخطر من ذلك السيف عبدالله، صاحب العقلية المنفتحة، والمثقف المستنير، والقريب إلى الأحرار، الطامح للعرش بقوة، والذي لو تمكن حقًا لاستعاد عرش العائلة المتهالك، وثبّتَ الإمامة بقوة، وعلى أسسٍ حديثة، وحتما سيُفضي هذا إلى

(1) ــ هو المقدم الشهيد أحمد يحيى الثلايا ثائر، قائد عسكري، ضابط يمني ولد ونشأ في مدينة صنعاء، كان قائدًا للجيش في عهد الامام أحمد حميد الدين، وهو القائد المدبر لانقلاب 1955م، للإطاحة بحكم الإمام أحمد والتي باءت بالفشل، ولم يدم هذا الانقلاب أكثر من أسبوع. تلقى دراسته الأولى في مدرسة دار الأيتام، في مدينة صنعاء، ثم التحق بالجيش، وسافر في بعثة تعليمية إلى العراق، سنة 1936م. وبعد عودته أوكل إليه تدريس نظريات الرمي، والتعليم على أسلحة الرشاش، ثم عُين منظمًا لفوج النمونة «النموذجي»، ثم أميرًا للمفرزة العسكرية في مدينة صعدة، وفي عهد الإمام أحمد عمل معلما للجيش.

(2) ــ اليمن الإنسان والحضارة، 295.

إطالة أمد الإمامة، فله مع الأحرار مواقف إيجابية سابقة منذ فترة أبيه، حين كان وزيرا للمعارف، فهو صاحب البعثة التعليمية للخارج، والتي كان منها: الكرشمي والعيني وحسن مكي، وآخرون. وهو الذي أسس وشجع صدور مجلة «الحكمة اليمانية» التي رأسها الوريث. إنما ربما ضارة نافعة كما يُقال، فلم يسرع باستدعاء الجمهورية وتثبيت أركانها أحد كما فعل الطاغية أحمد نفسه الذي كان أكبرَ عاملٍ من عوامل قيامها بطريقة غير مباشرة، وصدق القائل: أقصى اليمين في خدمة أقصى اليسار. والعكس أيضا صحيح.

لقد هندسَ الأحرارُ خلفَ الأسوار في حجة فكرة ولي العهد، تقربًا منهم إلى الإمام الذي سيسعدُ بهذه الفكرة أولا، وإلى الأمير البدر نجله، الذي كانت علاقته بالأحرار جيدة. وأيضا من أجل شق صف العائلة الإمامية، وإحداث شرخ عائلي كبير؛ إذ أن الحسن أخا الإمام ينتظر دوره في الصف بعد أخيه أحمد، والسيف عبدالله له طموح بالعرش يناطح الجبال، وفجأة يورثها أخوهم لنجله البدر..! وقد سارت الأمور كما أرادوا لها فعلا بعد ذلك.

يقول الأستاذ نعمان: وكان على الأحرار أن يسيروا في الطريق، رغم أن الثورة التهمت معظم الفئة الواعية. كان عليهم أن يسيروا في طريقهم، وهو في سجونهم ومنافيهم. وإذا كان قد استحال عليهم أن يعيدوا تشكيل تنظيماتهم داخل البلاد، فإن أسلوبًا جديدًا في العمل يجب أن يتبع للخروج من الركود الذي مُنيت به الحركة بعد ١٩٤٨م، ومضوا في المعركة بكل ما عندهم من حيلة ووسيلة وتكتيك هدتْهم إليه ظروف اليمن، وإمكانياتها النضالية المحدودة. إنَّ التنافسَ بين العائلة المالكة على السلطة ووراثة العرش يجب أن يتسع، ويجب أن يكون للأحرار دورًا في تعميقه..[1]

ويؤكد هذا القاضي عبدالسلام صبرة، بقوله: وقد أجمعت الآراء على أن أنجح سلاح قد يقضي على هذه الفئة المتسلطة، ويُقلل على الشعب من التضحية والشُّرور هو شق العصا بين الأسرة نفسها، والتي قد يوجد فيها

(1) ـ انهيار الرجعية في اليمن، أحمد محمد نعمان، انظرها في: لمحات من تاريخ حركة الأحرار، 368/1.

عـدد مـن الشـخصيات الطامحـة في الإمامـة وحكـم الشـعب.. وكل واحـد مـن الطامحـين يعتـبر نفسـه هـو الأجـدر عـلى الإمامـة وحكـم الشـعب. كـما أجمعـت الآراء أيضًـا عـلى أن السـلاح الوحيـد والناجـح لتمزيـق هـذه الأسرة والـذي سـيقضي عليهـا مـع مـرور الزمـن نهائيـا هـو ولايـة العهـد. ومـن هنـا بـدأ التركيـز عـلى ولايـة العهـد، وأن يكـون ولي عهـد أحمـد هـو ابنـه البـدر محمـد، والـذي قـد يُعتـبر أفضـل مـن أعمامـه، وقـد باركـت عدالـة السـماء هـذا المخطـط..[1]

وإلى هـذه الفكـرة أشـار القـاضي عبدالرحمـن الإريـاني في مذكراتـه مـن تهجـم أبنـاء الحسـن عليـه في دار الحجـر، ومحاولتهـم خنقـه؛ لكونـه يتدخـلُ في شـؤون الأسرة حـد تعبيرهـم. كـما أشـار إلى أنَّ ولايـة العهـد قـد عملـت عملهـا. وعـلى أيـة حـال تـم إشـهار إعـلان البيعـة لـولي العهـد محمـد البـدر بـن الإمـام أحمـد في حفـل بمدينـة الحديـدة، وقـرأ الأديـب والشـاعر أحمـد محمـد الشـامي قصيدتـه تلـك التـي نظمهـا هنـاك، والتـي ذاعـت شـهرتها لجـودة سـبكها، وفيهـا، مخاطبًـا البـدر:

يحقُّ لشعري اليـــوم أني يتحكـما ... فتصغي له الدنيا وتحتفل السماء
إذا لم تكن أنت الخليفـــــة بعـــده ... وفاءً وشكـــرًا؛ بل قضاءً محتَّمًا
فلا نبضت للشعبِ روحٌ ولا علت ... له رايةٌ حتى يُكبَّ جهنـــــما

(1) ــ القاضـي عبدالسـلام صبـرة، مجلـة اليمـن الجديـد، أكتوبـر، 81، ص: 42. وانظرهـا فـي: لمحـات مـن تاريـخ حركـة الأحـرار. 369/1.

سنوات الغضب الصامت

مرت سنوات ما بعد الثورة الدستورية سنة ١٩٤٨م بغضب شعبي صامت، لا يستطيع التعبير عن نفسه، في ظل سلطة قمعية رهيبة، تعمدها الطاغية أحمد تجاه شعبه، مزهوًا كالطاووس بوهم الانتصار على الأعداء، وبأبهة العرش، غير آبهٍ بمطالب الشعب، ولا بتطور الحياة، مع أن عقد الخمسينيات قد أتى بثقافة جديدة، أكثر انفتاحًا وتطورًا عن عقد الأربعينيات، لكن عقلية الطاغية هي هي لم تتطور أو تتقدم.

كانت مؤسسات الدولة في عهد الإمام الجديد امتدادًا لحالها في عهد الطاغية الأول، ومنها الجيش الذي ينظر لها الإمام مجرد عكفة، لا وزن لهم يجب أن يقضوا حياتهم في خدمة الإمام فقط، يعتاشون على ما تحصلوه بالقهر والإكراه من مزارع المواطنين ومن متاجرهم، فكان من المنطق أن تثور تلك المجاميع، المسماة «جيشًا عسكريًا» كرامة لكيانها ولمسمّاها، طامحة أن تكون كبقية جيوش العالم المعروفة، والحقيقة لا تعدو ما أشار إليه الزبيري في قصيدته التي يتحدث فيها عن أوضاع اليمنيين البائسة بسبب الإمامة، سواء في عهد الطاغية يحيى، أو نجله أحمد:

ماذا دهى قحطان؟ في لحظاتهم ... بؤس وفي كلماتهم آلام
جهل وأمراض وظلم فادح ... ومخافة ومجاعة وإمام
والناس بين مكبل في رجله ... قيد وفي فمه البليغ لجام
أو خائف لم يدر ما ينتابه ... منهم أسجن الدهر؟ أم إعدام؟
والاجتماع جريمة أزلية ... والعلم إثم والكلام حرام
والمرء يهرب من أبيه وأمه ... وكأن وصلهما له إجرام
والجيش يحتل البلاد وماله ... في غير أكواخ الضعيف مقام
يسطو وينهب ما يشاء كأنما ... هو للخليفة معول هدام
والشعب في ظل السيوف ممزق ... الأوصال مضطهد الجناب يضام
وعليه إما أن يغادر أرضه ... هربًا وإلا فالحياة حمام

نثروا بأنحاء البلاد ودمروا عمرانها فكأنهم ألغام
أكلوا لباب الأرض واختصوا بها وذوو الخصاصة واقفون صيام

****

يا قوم هبوا للكفاح وناضلوا إنّ المنامَ عن الذمام حرام
لن يبرح الطغيان ذئبًا ضاريًا ما دام يعرف أنكم أغنام
فتكلموا كيما يصدّق أنكم بشرٌ ويشعر أنه ظلّام
وتحركوا كي لا يظن بأنكم موتى ويحسب أنكم أصنام

نعودُ إلى الحديث عن انقلاب ٣١ مارس ١٩٥٥م، ونستعير هذه السطور مما سطره قلم القاضي عبدالرحمن الإرياني، المدون الحصيف للأحداث واليوميات، وأحد المحسوبين على الانقلاب، ضمن حديث مطول عن هذه المحطة النضالية، وهو مبسوط بكامله في مذكراته، يقول: «في يوم الخميس ٧ شعبان، سنة ١٣٧٤هـ، ٣١ مارس، ١٩٥٥م، فوجئنا في الصباح الباكر بأحدِ المرتبِين[1] بصالة[2]، ليُنهيَ إلينا بأن الجيشَ قد ضربَ حصارًا على القصر والمقام في العرضي، واحتل المباني الحكومية، وفتح مخازن الذخيرة، ووزع السلاح على من لا سلاح له، واستولى على السيارات والمطار، وقطع أسلاك البرق والتلفون، واحتلّ محطة اللاسلكي..».[3]

والحقيقة أنّ هذا الانقلابَ الطارئ، غير المخطط له كان ردةَ فعلٍ غاضبة من قيادة الجيش، وعلى رأسها المقدم الثلايا على أحداثِ الحوبان الشهيرة، حين اختلف الجنودُ مع الأهالي على اقتطاع الأشجار من أجل الحطب، فقتل الجنودُ أحد المواطنين، فثار الناسُ عليهم بعد ذلك، وهاجموهم، الأمر الذي اضطر الجيش إلى مهاجمة الناس إلى بيوتهم وانتهابهم، تأديبًا لهم على تعديهم. فاستغل المقدم الثلايا ــ وهو معلم الجيش يومها ــ هذه الحادثة، وقد كان ينتظر الفرصة المواتية، والمبرر المعقول للانقلاب على الإمام، موضحًا لأفراد

(1) ــ جمع مرتب: بكسر التاء المشددة، وتعني: المقاتل المتأهب للقتال في جبهته.
(2) ــ حيث يوجد قصر الإمام، وهو في شرق مدينة تعز.
(3) ــ مذكرات القاضي الإرياني، 217/1.

الجيش أن الذي حرمَكم من حقوقكم، وصادرها، وألجأكم إلى الاحتطاب هو الإمام نفسه، وعليه فلنذهب جميعًا لمحاصرة قصره، وإرغامه على التنازل لأخيه السيف عبدالله.[1]

لقد كان السّيفُ عبدالله وزيرُ الخارجية، والمكلف بالنظر في شؤون الناس أيضا في الداخل صاحبَ رؤية في الإصلاح والتحديث، معترضا على سياسة أبيه سابقًا، ثم على سياسة أخيه أحمد لاحقًا، وكان على علاقةٍ طيبةٍ بالأحرارِ والمصلحين. ومع ذلك فقد كانَ الشهيد الثلايا يرى وجوبَ التخلصِ من حكم بيت حميدالدين كلهم، بلا استثناء، سواء أحمد أو السيف عبدالله، إنما تكمن العقبة الكبرى في الإمام أحمد، وفي حال التخلص منه يسهل التخلص من السيف عبدالله، الأقل دموية منه. وهو ما كان يصارح به رفاقه ممن يثق بهم.

تعاهد الثلايا مع أفراد جيشه على الصمود والثبات، وأقسموا قسما مغلظا بين يديه، معاهدين إياه: «ما يسير فحمة إلا وقد ساروا رماد»، فرد عليهم: «شمس تطلع، خبر يأتي». أي الخبر القادم مع شروق شمس الغد.

ذهبت جموع الجيش لحصار قصر الإمام الذي يقيم فيه في «صالة» منادين إياه بالتنازل لأخيه السيف عبدالله. وكان الإمام يومها مريضًا، أو متظاهرًا بالمرض، في صبيحة يوم ١/ ٤/ ١٩٥٥م، وحين رأى أن الجيش قد أطبق عليه، وألا مفر من مطلبه تظاهر بالتجاوب واللين معهم، وكتب هذه الصيغة التي تلاعب بها في الوقت الذي لم تدرك فحواها الجموع: «إلى المحبين الكرام، سلمهم الله، لقد كان ما كان مما سبق في علم الله سبحانه، والآن لعل الله سبحانه قد وفق الجميع إلى ما فيه الخير والصّلاح، فإنا حملنا الأخ سيف الإسلام عبدالله حفظه الله الحجّةَ، وكان التنازل على أن يقيم بالأمر ويجريه على شريعة الله سبحانه، ولم يبق ما يوجب الأخذ والرد، وقد كان هذا بحضور

(1) ــ انظر: مذكرات الإرياني 215، و أحداث ثورة 55، ص: 110، و رياح التغيير في اليمن، 471. و من وراء الأسوار مناقشة حول مستقبل اليمن، مجموعة كتاب، دار الكاتب العربي، بيروت، د، ت، 19. و لمحات من تاريخ حركة الأحرار، 10/2. ومحمد أحمد نعمان الفكر والموقف، الأعمال الكاملة، لطفي فؤاد أحمد نعمان، ط:1، مارس، 2001م، 54.

جماعة من العلماء، فليقف كل واحد محله، والأخ سيف الإسلام حفظه الله يخرج إلى محله بالعرضي، للقيام بأعمال الناس، وعليكم جميعًا اعتماد أوامره، ومن خالفَ هذا فعليه حجة الله. والله المعين والموفق، وقد كان منا التحرير إلى الملحقات بوقوف كل واحد محله، وعود من قد خرج بيته، وسيرسلها الأخ الفخري حفظه الله، والسلام عليكم، ٩ شعبان، سنة ٧٤هـ».[1]

وعاد حاملُ الرسالة وقرأها على القوم، فسمعوا لفظة «التنازل» فصفقوا لها وكبروا، وفهموها تنازلا عن الإمامة من الإمام لأخيه عبدالله، مع أن الإمام يقصد التنازل بتسيير الأعمال، وهو غير التنازل عن الإمامة بطبيعة الحال، فتلاعب بألفاظ الخطاب الذي لا تفهمه الجماهير، ثم انصرفوا عن أي إجراء ضده. بينما استطاع الإمام استعادة أنفاسه وترتيب أوراقه من جديد، لينقلب على الانقلاب، ويحكم قبضته من جديد، في الوقت الذي استرخى السيف عبدالله في مقر إقامته بوزارة الخارجية.

ولأن نساء الإمام داخل القصر فقد عمدن إلى قص شعورهن وإرسالها إلى مشايخ القبائل، لاستنهاض عزائمهم وحميتهم لإنقاذ النساء داخل القصر المحاصر، وهي من التقاليد القبلية المعروفة، والتي لا يتخلف عنها إلا جبان، ناقص المروءة، وبحسب الشامي: «فعلت هذه الرسائل فعل السحر لدى شيوخ القبائل.. فاندفعوا بقبائلهم لنجدة الإمام..»[2]، ويبدو أن هذه من تكتيكات الإمام أحمد وخططه الماكرة.

وصلت جموع القبائل المدافعة عنه، في الوقت الذي كان قد استطاع استمالة الشاويش المحجاني، المرابط مع المدفع الوحيد في جبل صبر، والذي أطلق عدة طلقات على جموع الجيش المرابط في العرضي، فأصيب بعض الجنود برهبة وخوف، ما دفعهم إلى الانسلال عن معلمهم الثلايا، والاتجاه نحو الإمام، وحينها خرج الإمام الذي كان مريضا، ويعاني من الروماتيزم راكبا حصانه، ممتشقا سيفه، واتجه إلى مبنى الخارجية، حيث يقيم «الإمام الجديد»..!

(1) ـ مذكرات الإرياني، 224/1.

(2) ـ رياح التغيير، 474.

فأمر أتباعه بالقبض عليه ومن معه. وزاد أن أمر بإحضار أخيه العباس من صنعاء الذي أيد الانقلاب، وفي تعز أقام لهما حفل غداء معًا، ثم أرسلهما إلى حجة، بصحبة جنوده، موجهًا عامله على حجة بإعدامهما هناك. أما الثلايا فقد حاول الفرار نحو عدن، إلا أن الأهالي قبضوا عليه وسلموه للإمام، والذي أخرجه إلى الميدان، وحشد الناس، ووجه له بعض الأسئلة: ألم أحسن إليك؟ ألم أعلمك؟ ألم أبنِ لك بيتا؟ وهو يجيب بنعم. ثم التفت إلى الجماهير، مخاطبًا إياهم: هذا الثلايا أحسنتُ إليه وربيته وعلمته وقربته، ثم جازاني بما تعلمون. فما جزاؤه يا ناس؟

فتعالت أصوات الناس في الميدان: الإعدام، الإعدام، الإعدام.

ويقال: أن الثلايا التفت إلى هذه الجماهير، وقال: لعن الله شعبًا أردتُ له الحياة فأراد لي الموت. وتُروى أيضا بصيغ أخرى مقاربة. مرددًا: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ثم مدّ عنقه، وطار سيف الوشاح برأسه. وهكذا كانت معظم حفلات الإعدام.[1]

وبعد أيّام أُعدم بعض رفاقه أيضا، كما ظلّ آخرون في السجن، وكانت مأساة جديدًة، تُضافُ إلى مأساةِ ثورةِ الدستور، سنة ١٩٤٨م.

وهكذا تبخرت تلك العُهود والمواثيق التي قطعها تلاميذُ الشهيد الثلايا ورفاقه، فخانوه، وتخاذلوا عنه، وأكثر من ذلك حين نادى بعضهم بإعدامه في وجه الإمام، قبيل إعدامه..!

لقد كان انقلاب ٥٥م يشبه ثورة ٤٨م من أحد أوجهه، فهو انقلاب عائلي مدعوم بنخبة ثقافية وسياسية من غير العائلة، هم قوام هذا الانقلاب، وكما انتهى الأمر في ٤٨م بالقضاء على رؤوس العائلة الثائرة، متمثلة في آل الوزير، وقائد الثورة العسكري جمال جميل، والنخبة السياسية من حولهم، فقد انتهى انقلاب مارس ٥٥م بإعدام رأسي الانقلاب العائلي عبدالله والعباس، وقائد الانقلاب العسكري أحمد الثلايا، وبعض العناصر الأخرى أيضا. وقد قال

(1) – انظر: رياح التغيير في اليمن، 448. ومذكرات الإرياني، 233.

البردوني مقيمًا الانقلاب: إنه عائلي مزدوج من عائلات وضباط، على رأسها البيت الإمامي، وعلى عائلية هذا الانقلاب المزدوج فإن له ثنائية شعبية؛ إذ شاركت في صنعه عناصر وطنية نقية القصد، وطنية الغاية..[1]

والبردوني يُجمل نكسة انقلاب ٥٥ في ثلاث نقاط:

١ـ الارتجالية، كاستجابة للحدث الطارئ.

٢ـ انفراده بالحركة عن جملة الجيش في كل المراكز.

٣ـ تحركه لصالح إمام جديد.[2]

وعلى أية حال.. ومهما كان من أمر فشل الانقلاب، وما خلف من كوارث إنسانية دامية ومرعبة، إلا أنَّ هذا الحدثَ قد مثّل ــ في حد ذاته، وعلى فشله ـ واحدةً من المحطات النضالية لليمنيين، وكسرت رهبة الكهنوت الجاثم على الشعب، وكان له ما بعده من الجدل الذي أحدثته ثورة الدستور سابقًا.

وتجدرُ الإشارة هنا إلى أننا لم نتناول الحدث بجميع تفاصيله التي ألفت فيه كتبٌ وأُعدت عنه رسائل أكاديمية؛[3] إنما وقفنا عليه كمحطة نضالية، ضمن المحطات النضالية الأخرى، وعلى ذات النهج بصورة موجزة، بعيدا عن تفاصيل الأحداث التي هي من اختصاصات المؤرخين.

(1) ـ اليمن الجمهوري، عبدالله البردوني، 346.

(2) ـ نفسه، 359.

(3) ــ للمؤرخ اليمني حيدر علي ناجي رسالة ماجستير عن انقلاب 1955م، وهو ضمن مطبوعات صنعاء عاصمة الثقافة العربية.

إرهاصات ما قبل سبتمبر

إنّ قطعَ رأس الشجرة لا يعني موتها، ما دامت جذورُها تحتضنُ تربة أرضها، وإنَّ تواري القمر إيذانٌ ببزوغ الشمس، كما أنّ غروبَ الشمس بداية لظهور القمر، وإن أفلَ نجمٌ تبازغت أنجمٌ أخرى.

ها هنا بعضُ النّجوم انطفأت كي تزيدَ الأنجمُ الأخرى اشتعالْ
موتُ بعض الشعبِ يُحيي كله إنّ بعضَ النقصِ روحُ الاكتمالْ
تفقد الأشجارُ من أغصانها ثم تزدادُ اخضراراً واخضلالْ

تنهزم الجيوشُ، وتفنى الجماعات. تنتهي الدول، وتموت الحكومات؛ لكن إرادةَ الشعوب لا تُقهر، فلقد سيطرت بريطانيا على الهند في لحظة موات؛ لكن حين تململَ ماردُ الشعب عادت بريطانيا من حيث أتت.

وهكذا حال شعب اليمن..

لقد أشبَه انقلابُ ٥٥م ثورةَ ٤٨ من عدة أوجه كما أسلفنا، من بين ذلك الشبه سنوات ما بعد الانقلاب، إذ انتفش ريشُ الطاغية بعد ٥٥م، كما كان بعد ٤٨م، وظن أن دورة الفلك قد تسمّرت أمام وجهه، وأن الزمن قد أناخ رحله بين قدميه، فازداد طغيانا، لكنه لم يكن يعرف سنة الحياة، وقوانين الكون؛ لأنه

ما طار طائر وارتفع إلا كما طار وقع

وكلما كان منحدرُ الهاوية أعلى، كان خطر السقوط أشد. وهكذا كانت دورة الطغيان الإمامي البغيض الذي جثم على صدر الشعب ردحًا من الزمن، فتهاوت أركانه بين عشية وضحاها..

كما خبت جمريةُ النضال، وهمدت روحُ التحدي سنواتٍ بعد ٤٨م، لتنفجر قنبلة مدوية في ٥٥م، كذلك عاد الغضبُ للسكون من جديد، أو قل استجد التفاعل الصامت بينيا، لتنفجر منه شظية كبرى في ٦١م، والتي سبقتها شظايا صغيرة هنا وهناك، ليتكللَ المشهدُ بالانفجار الأعظم في السادس والعشرين من سبتمبر المجيد، كما سنرى.

لم تدم سنواتُ العسل للطاغية بعد ذلك الحدث كثيرا، بدأ الشعب يبحث

في مسارب أخرى عن طرق جديدة للمواجهة والتحدي.

برزت معارضةُ الخارج قوة مؤثرة، من خلال المذياع، ومن خلال البعثات الطلابية، ومن خلال الصحف والمجلات التي لم يستطع الطاغية منعها، كما فعل أبوه من قبل، لأن الزمن استجد بشروطه الجديدة، كالأنهار التي تتفجر من مصبها، ثم تمضي في مساربها، ولا تستطيع أن تعودَ القهقرى، وإذا تم اعتراضُها بحثت لها بنفسها عن مساربَ أخرى تتمشى فيها. وهكذا هي أحداثُ الحياة في تجدد دائم.

كان الوعيُ يزدادُ يومًا بعد يوم، وكان الطغيانُ أيضًا يتغولُ أكثر فأكثر، ولم يكن تغوُّل الطغيان إلا إيذانًا بالترنح، ومقدماتٍ للتلاشي، شَعَرَ الطغاةُ بذلك أم لم يشعروا.

زادت كراهية الناس للإمام أحمد بعد قتل أخويه، عبدالله والعباس، وأيضا بقية الشخصيات الوطنية الأخرى، على خلفية الانقلاب الفاشل، الذي تم القضاء عليه في أيامه الأولى، وكان بوسعه الاكتفاء بسجنهم فقط، وأصبح حتى مَن بجانبه من حاشيته لا يأمنون طيشه وفجوره، فكان عملهم على حذر شديد، محتاطين لأنفسهم العلاقة الطيبة مع الأحرار الصامتين، ولذا فحين لفظ أنفاسه الأخيرة علم الأحرار بذلك، قبل أن يعلم أقرب الناس إليه، من خلال أحد العاملين معه بقصره.

إلى جانب ذلك حاول الطاغية أحمد أن يهدئ من غضب الجيش المتسعّر ضده، فاستورد بعض الأسلحة الحديثة من روسيا، وحاول تأسيس كتائب جديدة موالية له، من ضمنها ما عرف بفوج البدر، لكن مع ذلك كان الجيش يشعر بالإهانة أن يبقى ذلك الكاهن قائدا عاما له، ويخضع لتوجيهاته، وأصبح يرى نفسه مسؤولا عن البلاد، لاسيما بعد تراجع نشاط الأحرار في الداخل، حد التلاشي، زد على ذلك تأثره بالجيش المصري الذي كانت سمعته تطاولُ عنانَ السماء، بعد نجاح ثورة ضباط يوليو، ثم بعد الدور الكبير الذي لعبه الجيش المصري في عدوان ٥٦م، كل هذه عوامل مؤثرة عززت من معنوياتِ الجيش، ولم تفقده الثقة بنفسه.[1]

(1) ــ ذكر تقرير خاص بالسفارة البريطانية، المؤرخ في 23أغسطس1955م أنها قد وصلت إلى قناعة

الصراع البدري الحسني

تكلمنا سابقًا عن حبكة الثوار الأحرار لفكرة ولي العهد التي شرخت البيت الإمامي قسمين، ولم يكن انقلاب ٥٥م إلا نتيجة لذلك الشرخ الذي فطن له الثوار من خلف أسوار السجون.

ومع أن الإمام انتصر في الفصل الأول منه، إلا أنه لم ينجح في الفصل الثاني الذي امتد حتى قيام الثورة، فلقد تشبث البدر بالحلم الجديد، فيما عارضه أعمامه، وخاصة الحسن المغرق في رجعيته وتخلفه، المشهور بالبخل، الملقب بـ «صاحب السُّمون»، والذي كان يُعتبر الرجل الثاني إلى ما قبل تسفيره للخارج، وله أتباع، عُرفوا بالحسنيين، وأغلبهم من مناوئي الإمام أحمد من بعض البيوتات الصّنعانية، كما للبدر أتباع، عُرفوا بالبدريين، وأغلبهم من الثوار ومشايخ القبائل المعارضين، وتمايزَ التياران حتى صَارا جناحين سياسيين بارزين، ولهما حضورُهما القوي على الساحة.[1]

كان الأمير البدر وعمه الحسن حريصين على اجتذاب أكبر قدر ممكن من الأتباع معه، وذلك لتيسير وصولهما إلى العرش حسبما يتوهم كل طرف؛ لكنهما لم يكونا يدركان أنهما بهذا الصراع يُمهدان لزوالهما معًا؛ بل وللإطاحة بعرش العائلة كاملا، ومن ثم التأسيس لنظام جمهوري جديد. كما لم يكن يدرك الطاغية أحمد أن السلاح الذي استورده بعد انقلاب ٥٥م لإرضاء الجيش قد ارتد إلى نحره؛ لأنه صار في قبضة الشعب الذي فجر الثورة وحماها.

باستحالة القيام بأي انقلاب منظم بعد أن تمكن الإمام من إفشال الانقلابات السابقة. وتوقعت نجاح عملية جديدة تمثل مغامرة فردية لاغتيال الإمام من قبل بعض الجنود الذين تتوفر لهم الفرصة لتنفيذها. وقد كان حدسهم صحيحًا إلى حد كبير، فقد قام سعيد فارع «إبليس» بمحاولة قتل الإمام في مقر إقامته بالسخنة، شرق الحديدة، عام 59م، إلا أنه فشل في ذلك، وتم القبض عليه وقتله. كما قام كلٌ من: العلفي واللقية والهندوانة، بمحاولة اغتيال الإمام في مستشفى الحديدة، في 6 مارس، 1961م، نجا من هذا الاغتيال بأعجوبة، لكنها نجاةٌ، الموت أفضل منها، فقد بقي بعدها شبه ميت، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة في 19 سبتمبر 1962م.

(1) ــ صدر المرسوم الرسمي بتعيين البدر وليا للعهد في صحيفة النصر، بتاريخ 9 ابريل 1955م. أي بعد الانقلاب بأيام. والذي صاحبه اعتقال للأمراء الصغار المعارضين للفكرة، وإرسالهم إلى صنعاء.

14ـ حركة إبليس

في العام ١٩٦٠م، وبينما كان الإمام أحمد في السخنة، وهي مقر إقامته المفضل، لوجود حمام مائي كبريتي، يستشفي منه للروماتيزم الذي كان يشكو منه، قام سعيد حسن فارع الذبحاني، الملقب بـ «إبليس» بمحاولة قتله؛ بعد التنسيق مع الأحرار من مشايخ وضباط وغيرهم؛ لكن محاولته تلك باءت بالفشل. وقد كتب بعد أن عزم على تنفيذ العملية هذه الكلمات لأحد أصدقائه: «لقد كذبنا كثيرًا على الناس، أو بالأحرى كنا صادقين، ولكن الناس الآن يتهموننا بالكذب. والآن استودعك الله. إما الحياة وإما الردى".

ووفقًا للدكتور عبدالودود مقشر: كان سعيد حسن فارع الذبحاني قد افتتح لهذا الغرض «الاغتيال» مكتبة بالحديدة، أسماها «المكتبة الثقافية الكبرى»، وكانت بجوار قصر الشراعي باشا، المطل على البحر، داخل باب مشرف، وكانت المكتبة مصدر تنوير فكري وقومي؛ حيث استقدمت أغلب المجلات والصحف المصرية، باعتبار الذبحاني وكيلا للمطبوعات المصرية، واستقدم كتبًا مسموحا به، وكتبًا ممنوعة، وكان ذلك غطاءً لنشاطه السّياسي؛ حيث يقوم بنقل المنشورات والصُّحف الوطنية من عدن، وكان يتولى توزيع هذه المنشورات في الحديدة شابٌ يُدعى علي مارش، بالتعاون مع امرأة ترتدي الحجاب، لا يُعرف اسمها.[1]

وذكر الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر في مذكراته أن بعضًا من المشايخ كانوا قد أجمعوا على قتل الإمام بالسخنة، وتم الاتفاق مع سعيد حسن فارع، ومع اللقية الذي سلمه ثلاث قنابل من مخازن الكلية الحربية، فأودعها في دكان لأحد أصدقائه في السخنة، ثم ذهب إلى بلاد الزرانيق لمقابلة الشيخ

(1) ــ عبدالودود مقشر، موقع نيوز يمن، على الرابط: https://m.facebook.com/newsyemen/photos/pb.1384643625110107.-2207520000.1569562937./2439388126302313/?type=3&source=43

محمد يحيى منصر ووالده، وهما من مشايخ الزرانيق، ليوصل لهم رسالة من حسين المقدمي، فأباح لهما بالسر، ومن ثم قبضوا عليه وحملوه إلى الإمام بالسخنة.[1] ومثّل القبض عليه صدمة للمشايخ الذين كانوا قد دبروا عملية القتل.

وذكر الكاتب والمؤرخ سعيد الجناحي في «كتابه الحركة الوطنية اليمنية من الثورة إلى الوحدة» أن سعيد حسن «إبليس» تعرض لتعذيب مبرح، ثم أرسل إلى سجن حجة، وفي عام ١٩٦١م هرب من السجن مع محمد عبدالله الفسيل وحسين السحولي، وأثناء هروبه أصيب بكسر في رجله، واستشهد وهو يقاوم من تبعه من الحرس، وفرّ سعيد الحكيمي وعلي مارش، مُعاوناه في المكتبة.[2]

وعلى أية حال.. فإنّ حركة سعيد حسن فارع بقدر ما هي فردية، تعكسُ صورةً استثنائية من الشّجاعة والفداء والتضحية بالنفس لفرد ما، إلا أنها تختزلُ إرادةَ كل يمني وطموحه، وقد أحدثت بعدها جدلا واسعًا لدى اليمنيين وتساؤلات وتحليلات، لم تهدأ إلا بقيام حركةٍ أخرى بعدها بفترة، هي حركةُ العلفي واللقية والهندوانة. مثلما لم يهدأ الحديث عن ثورة ٤٨م إلا بعد الحديث عن انقلاب ٥٥م.

(1) ـ مذكرات الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر قضايا ومواقف، ط:2، 2008م، 69.

(2) ــ الحركة الوطنية اليمنية من الثورة إلى الوحدة، سعيد أحمد الجناحي، مركز أمل للدراسات والنشر، ط:1، 1992م، 151.

15ـ حركة العلفي واللقية والهندوانة

على الرغم من نجاح الطاغية أحمد في قمع الحركات المناهضة له منذ ٤٨، مرورا ب ٥٥م، ثم حركة سعيد فارع في العام ١٩٦٠م، إلا أن الشعبَ كان ولادًا بالرجال الأبطال والمناضلين الصادقين ضد الكهنوت الأرعن، فما أن يخمد أوارُ أي حركة، حتى يضطرم نشاطُ أخرى من جديد، فلم يدعوا له جفنا ينام.

في ٢٥ مارس ١٩٦١م كان الطاغية أحمد في زيارة لمستشفى الحديدة، لإجراء بعض الفحوصات الطبية، وزيارة مرافقيه المصابين في حادث سيارة عسكرية حاولت مداهمة سيارة الإمام قبل ذلك بشهر، محاولة اغتياله،[1] وما أن علم كل من: محمد عبدالله العلفي، وعبدالله اللقية، ومحسن الهندوانة إلا ودبروا خطة للقضاء عليه داخل المستشفى، وحين دخل الإمام المستشفى، تم إطفاء الأنوار أولا، ثم مباشرته بالرصاص من غرفة صغيرة، من قبل العلفي، فانبطح أرضا، متظاهرًا بالموت، وقد فرت حراسته من حوله، وظن الثلاثة الأبطال أنه قد مات، لكنه لم يمت، فتم نقله إلى قصره مباشرة، وتمت معالجته هناك بالقصر. وبحسب الدكتور حسن محمد مكي، رئيس الوزراء الأسبق، عن هذه المحاولة: كان لها تأثيرها المدمر على حياة الإمام أحمد، وعلى مستقبل النظام الملكي في اليمن، وكانت مؤشرًا حقيقيا، تتالت بعده الأحداث التي أدت فيما بعد إلى قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر، سنة ١٩٦٢م.[2]

وفي سياق حديثه عن الواقعة ذكر مكي أن «العكفة» من أتباع الإمام قد أتوا

---

(1) ــ ذكر هذه الرواية المؤرخ سعيد الجناحي، في كتابه المذكور، ص: 151، وأيضا محمد أحمد نعمان في الأعمال الكاملة، ص: 131، وأضاف الباحث «ادجار أوبلانس» في كتابه: «اليمن الثورة والحرب» ص: 113، أن الإمام أحمد قد وقعت له حادثة سيارة خلال شهر يناير 1961م، أصيب فيها إصابات بالغة. بل لقد تفرد الأخير بمعلومة قال فيها أن الإمام أحمد تعرض في الاثني عشر شهرا الأخيرة في حياته إلى سبع محاولات اغتيال.

(2) ــ أيام وذكريات، د. حسن محمد مكي، دار عبادي للنشر والدراسات، ط:1، 2008م. 77.

إلى منزله باحثين عنه، ففزع هو وأسرته أولا، لكونه من الحداثيين «المُبنطلين» وكان جنود الإمام يعتقلون هؤلاء «المُبنطلين»، وأغلبهم من الشباب المتعلمين أو العائدين من الخارج، إلا أنه قد اطمأن بعد ذلك حين عرف أن المطلوب منه ترجمة تقرير الأطباء الإيطاليين في المستشفى؛ كون الدكتور مكي يجيد اللغة الإيطالية، وكان من ضمن الفقرات التي وردت في التقرير أن حياة الإمام في خطر، وأن قلبه متعب، وأن من حُسن حظه أنَّ أيًا من الرصاصات البالغِ عددُها أحد عشر رصاصة لم تصب قلبه، وأن أخطر الرصاصات تلك التي أصابته في ظهره، وكان معظم الرصاصات الباقية في الحوض.[1]،

وذكر القاضي الإرياني في مذكراته أنه قد تم القبض على اللقية والهندوانة، وأنهما عذبا أثناء التحقيق، وثمة آخرون سُجنوا على ذمة الحادث، مثل حسين المقدمي، والدكتور فضل الله الزاقوت، السوري الذي كان يعمل في المستشفى كطبيب، وكان له صلة بالشهداء الثلاثة.[2]؛ أما العلفي فقد أقدم على الانتحار حين علم أن الإمام لم يمت، مفضلا قتل نفسه على ألا يتعرض لأي تعذيب من زبانية الإمام.

وسجل البطل اللقية موقفا بطوليا أثناء التحقيق معه وتعذيبه وإعدامه، فلم يبح بالسر عمن معه من المتآمرين أو يعرفون، حتى ساعة الإعدام، وكان العقيد عبدالله السلال ممن يعرف ذلك سلفًا، فأحس الإمام أو شعر بأن السلال على علم، فأشركه ضمن لجنة التحقيق، متوهمًا أن الشهيد اللقية سيفضي بالسر للمحققين، وسيضع السلال في حرج. وقد نفى اللقية أي مشارك له، قائلا: ليس معي أحد؛ بل الشعب جميعه، وقد عاهدتُ الله والشعب أن أنتقم له، وكان هذا العهد في الكعبة الشريفة، وإنني أعلم علم اليقين أن الشعب لن يترك هذه الشجرة الخبيثة تنمو في أرض اليمن الطاهرة بعد الآن.[3]

---

(1) ـ نفسه، 78.

(2) ـ مذكرات القاضي الإرياني، 376. وقد كان حسين المقدمي مدير المستشفى يومها.

(3) ـ اليمن ثورة وثوار، عبدالرحيم عبدالله، د، د. د، ت. 23. وتذكر بعض المصادر أن الشهيد اللقية قد استخار=

وقد لقيت هذه الحركة ــ على فشلها ــ ارتياحًا واسعًا على المستوى الشعبي، وأكبرَ الناسُ في الأبطال تضحياتهم تلك، كما عكست ذلك المظاهرات الطلابية التي اندلعت في مايو من العام ١٩٦٢م، أي قبيل الثورة بأشهر قليلة. وقد كان من ضمن الشيخ عبدالواسع نعمان من ضمن المخططين لهذه الحركة، وأحد زعمائها، كما أشار إلى ذلك المقحفي.[1]

هل كانت حركة العلفي ورفاقه فردية؟

يذكر البردوني أن هؤلاء الثلاثة كانوا ينتمون إلى تنظيم «الجبهة الشعبية» التي أعدت نفسها لمقاومة العرش. مضيفا: وكانت هذه الجبهة الشعبية رابطة أبناء الجنوب، مع الفرق بين النهجين. إذ اختارت الجبهة الشعبية الكفاح المسلح ضد الملكية، على حين اتخذت الرابطة التلويح بالسلاح، كسبيل إلى المفاوضة مع الاستعمار.[2]

الوعي الطلابي

كغيرهم من شرائح المجتمع، كان للطلاب دورٌ بارز في النضال والمقاومة للطغيان والكهنوت، جنبًا إلى جنب، مع الجند والساسة والقبائل والمثقفين وغيرهم، على الرغم من محدودية المنصات الثقافية في اليمن، قياسًا إلى منصات القاهرة أو بغداد أو دمشق أو بيروت الثقافية، إنما الشعور بالقهر والإحساس بالظلم لا يحتاج ثقافة عالية، وإن كانت الثقافة والوعي من الضمانات الشعبية لمواجهة الطغيان ومناوءة الاستبداد.

=الله وهو في الحرم المكي الشريف قبل ذلك على قتل الإمام. كما يذكر صاحب الكتاب في موضع آخر أن العقيد السلال هو مدبر حادث محاولة اغتيال الإمام في الحديدة، انظر ص: 31.

(1) ــ معجم البلدان، إبراهيم أحمد المقحفي، دار الكلمة للطباعة والنشر، صنعاء، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، 2001م، 1747/2.

(2) ــ الثقافة والثورة في اليمن، 274.

لقد اتقدت شوارع تعز بالهتافات الطلابية عقب مقتل الشهيد الثلايا، صداحة وبكل شجاعة: «لا إعدام، لا إعدام. يحيا الشعب، يحيا الشعب».[1] على الرغم من الرهبة السوداء التي كست وجوه وعقول الساسة والمشايخ من رجالات القبائل، متذكرين مآسي ٤٨م، وعلى الرغم من تلك القبضة التي ظهر بها الطاغية بعد إعدامات ٥٥م، إلا أن حسابات الشباب غير حسابات الشيوخ أمام رهبة هذا الكهنوت، وبمعنى آخر: لا حسابات أساسا لهم غير حسابات المستقبل، فطُهرانيتُهم الثورية ونقاؤهم السياسي أكبر من موانع التحدي، على ما تنطوي تحركاتهم من الفوضى أحيانا، كما هو الشأن في أغلب التحركات الطلابية، وخاصة طلاب الجامعات.

وتكررت هذه المظاهرات الطلابية التي كسرت صنمية الإمامة، وكان الآباء ينظرون لها بتعجب، لأنهم لم يتعودوا من أبناء جيلهم تلك الصيحات، ومنها مظاهرات عام ٥٩م الطلابية في صنعاء إثر صدور قرار من الطاغية أحمد بفصل مئتي طالب، تظاهروا مطالبين بتوفير العمل، فازدادت المظاهرات عنفًا، ما أجبره بعد ذلك على إلغاء قراره السابق. وتوالت الاحتجاجات الطلابية والخروجات الصغيرة، حتى تكللت بمظاهرات مايو ١٩٦٢م الشهيرة التي كانت واحدة من ينابيع الثورة بعد ذلك بأشهر قليلة. وأكثر من ذلك المظاهرة الطلابية في صنعاء وتعز في مطلع سبتمبر ١٩٦٢م، قبيل الثورة، بتشجيع من معلمين مصريين، دِيستْ فيهما صورة الإمام أحمد تحت الأقدام، ورفرفت بدلا منها صور عبدالناصر.[2]

---

(1) – اليمن الجمهوري، 255.

(2) – اليمن الثورة والحرب حتى عام 1970م، إدجار أوبلانس، ترجمة وتعليق: دكتور عبدالخالف محمد لاشيد، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط:2، 1990م، 113. وانظر أيضا: ثورة 26 سبتمبر في اليمن، 267. وقد أضافت المؤلفة ما يلي: لقد زاد عددُ التلاميذ في عام 1963م ثلاثة أضعاف بالمقارنة عما كان عليه قبل الثورة، وارتفعت نفقات التعليم في عام 1963/ 1964م عشرين مرة بالمقارنة مع ما قبل الثورة؛ إذ بلغت حوالي 2,3 مليون ريال. ووفقا للخطة المرسومة فتحت خمسين مدرسة ابتدائية ومتوسطة في الشهور الأولى للثورة في كل من صنعاء وتعز والحديدة وذمار وإب، وبُدئ في يناير 1963م ببناء ملجأ للأيتام يتسع لسبعمئة مقعد، كما فتحت مدارس فنية جديدة، وأصبح التعليم يسير على أساس مناهج جديدة، استُلمت من الجمهورية العربية المتحدة. ثورة 26 سبتمبر، ص: 290. وفي مجال الصحة تأسست ثلاثة مستشفيات في صنعاء والحديدة، في السنة الأولى للثورة، إضافة إلى 29 مستوصفا في صنعاء، و 17 في تعز، و 16 في الحديدة. نفسه، 290.

ولعل أبرز ملمح نضالي منظّم للطلاب تجلى في حصار السبعين؛ حيث خرج هؤلاء الطلاب من مدارسهم، مدافعين عن سقوط العاصمة صنعاء في يد القوات الإمامية التي كانت مطبقة على العاصمة، وكادت تسقط لولا الصمود الأسطوري الذي لعبه أبطال العهد الجديد، ومنهم طلاب المدارس، الذين وجدوا في الثورة ذواتهم ومستقبلهم الحقيقي، وقد جربوا قبل ذلك مرارة الكهنوت الإمامي البغيض، فدافعوا أصدق دفاع، حتى لا يعودوا إلى جحور الظلام الإمامي وقد رأوا أشعة أنوار سبتمبر المجيد.

16ـ 26 سبتمبر الفكرة والثورة

أولا سبتمبر الفكرة

الحديثُ عن ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م يعني الحديث عن أكبر حدثٍ سياسي في تاريخ اليمن الوسيط والحديث والمعاصر.. حدثٌ لم تتوقف أصداؤه على اليمن فقط؛ بل على المنطقة كاملة.

٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م خاتمة الملاحم النضالية التي خط اليمنيون مجراها منذ مطلع القرن الثالث الهجري، بمجيء إبراهيم بن موسى الجزار داعية لابن طباطبا، قبل مجيء يحيى حسين الرسي بـ ٨٤ عاما. واندلعت شراراتُ النضالِ ضد أبغضِ كهنوتٍ رجعيٍ متخلف، بروحٍ يمانية، دشّنَ ملحمتَها الأولى أحمد بن يزيد القشيبي، كما ذكرنا سابقًا، وامتدت فصولها، فكانت ٢٦ سبتمبر إكليلَ كل النضالات، حطمت خرافة جثمت على صدر اليمنيين ردحًا من الزمن.

قرون من الزمن خاض اليمنيون معاركهم التي لم تتوقف يومًا واحدًا ضد الإمامة، وبالأحرى ضد الكهانة التي مارستها عصابة الدجل والتزوير، متسربلة بالدين، زورًا وبهتانا، لاجترار عاطفة الناس، فكانت ثورات اليمنيين وانتفاضاتهم تجاه هذه الكيان الذي لم «يَتيمْنن» ويتفاعل إيجابيا مع محيطه الجغرافي؛ إذ لا يزال مشدودًا إلى «قُم» و «خُراسان» و «طبرستان». رغم أنَّ كلَّ الجماعات الوافدة إلى اليمن عبر التاريخ قد تماهت وانساحت مع المجتمع اليمني، وأصحبت جزءًا من نسيجِه العام، عدا هذه الجماعة، المتحوصلة على نفسها، المتقوقعة على ذاتها، فبدت جماعة في مجتمع، لا جماعة من المجتمع، وصدق الشاعر عبدالله حُمران الذي صور حقيقة هذا الكيان شِعرًا، فقال:

وهبناكمُ الحُكمَ إن كنتمُ تهيمون في بقعٍ خالية
وقلنا يمانون أهلٌ لنا ولا عاشت القيمُ البالية
ولكن على رغم مر العُصور ظللتم على أرضنا جالية

منذ ورود يحيى حسين الرسي إلى اليوم ودخان الحرب لم يتوقف يومًا واحدًا على الإطلاق، ذلك أن هذا الكيانَ يستندُ إلى نظريةٍ فوضويّةٍ تقدس الحربَ، وتهوى العنفَ؛ إذ تشترطُ نظريتُها السياسية «المذهب الهادوي» على الإمام أن يخرجَ على الناس شاهرًا سيفه، داعيًا لنفسه، كشرطٍ أساسي لصحة الإمامة؛ لهذا فكل إمام من أئمتهم الثلاثة والسبعين، بدأ حياته بالسيف وأنهاها بالسيف، وما بين سيف البداية وسيف النهاية مئات السيوف المشرعة التي سالت معها الدماء أنهارًا، وتكومت الجماجمُ تلالا، والتي خلفت مأسٍ مروعة، وجنايات كبرى، ماديًا ومعنويًا، صبغت الناس بالصبغة المتوحشة، وقد جعلت من كل فردٍ في المجتمع إما قاتلا أو مقتولا، وهاتوا لي جيلا واحدا عبر التاريخ منذ يحيى الرسي وإلى اليوم خلت حياته من الحروب والاقتتال الدامي العنيف..!

لقد تفجرت ينابيعُ ٢٦ سبتمبر المجيد، ٦٢م، كإنقاذ تاريخي، وحل سياسي وحيد، حفظت ــ أول ما حفظت ــ دماءَ هذا الكيان البغيض الذي لا يأبه بأرواح البشر، ولا بحياة الناس؛ معتقدًا أن ما يفعله قربى إلى الله، بحكم لوثة «الاصطفاء» الموهومة في أدمغتهم، والتي توارثوها كابرًا كابرًا، كما توارث اليهود فكرة «أبناء الله» و «الشعب المختار»..!

٢٦ سبتمبر الثورة، بما تنطوي عليه من رمزية تاريخية ونضالية، و٢٦ سبتمبر الفكرة، بما تنطوي عليه من بُعدٍ ثقافي وفكري، و٢٦ سبتمبر المسار السياسي، بما تنطوي عليه من قوانين ولوائح وتشريعات، هي الحل الأوحد لليمنيين جميعًا، رأى من خلالها اليمنيون النور، بعد طول ظلام، والعلم بعد طول جهل، والعافية بعد طول مرض. وحين ارتكست ٢٦ سبتمبر الثقافة والفكرة والنظام عاد اليمنيون اليوم إلى حنادس الظلمة، ومستنقع الجهل، وآفة المرض؛ بل الأمراض، بمختلف أنوعها. وهكذا حين تتلاشى هوية الوطن، ويتم المساس بالركائز الأساسية للأمة..

للشعوبِ والأمم عقائدُها الوطنية، كما لها عقائدُها الدينية، والمساس بهذه العقائد يحيلها إلى كائنات ممسوخة، لا وزن لها بين الأمم، ولذا نجدُ كثيرًا من

الشعوب والدول، وخاصّة الدول ذات الحضارات العريقة تحصّنُ أفكارها وتحرس ثقافاتها الخاصة، كما تحرس مكتسباتها المادية؛ لأن الثقافة الوطنية الصحيحة لأي شعب هي الضمانة الكبرى لاستقراره وديمومته، فإذا ما اهتزت مسلماته الفكرية والثقافية اهتزت معها كل المسلمات الأخرى، وبدأ أركانها تنهد ودعائمها تترنح، وهذا ما حصل مع الشعب اليمني مؤخرًا الذي تساهل مع هذه الجماعة العنصرية البغيضة من وقت مبكر، فدفع الثمن غاليًا.

كان آباؤنا المناضلون الأوائل الذي واجهوا هذا الكيان على قدرٍ من الوعي السياسي والتاريخي، وكانوا على قدرٍ عالٍ من الهمة العالية، وحب الوطن، فأنهَوا نظامَ هذه الجماعة، وثبتوا أركان الجمهورية، غير أن جيل ما بعد الثورة كان ساذجًا، وإن أحسنا الظن قلنا: كان مُقصّرًا تجاه أمجاد آبائه وأجداده، لم يحرس مكتسباتهم السياسية التي رووها بدمائهم الطاهرة، فجنى على نفسه وعلى الجيل القادم، وذلك حين سمح لهذه القوارض بالتسلل إلى صفوفه وممارسة خيانته تجاه هذا الشعب.

الجمهورية.. الفكرة

نتوقفُ في هذه السُّطور عند المحطة الأخيرة مع بعض تفاصيل الملحمة الكبرى والأخيرة من ملاحم النضال اليمني، وهي ٢٦ سبتمبر، وأساسها الأول «الجمهورية»، متتبعين الخيوط الأولى لفكرة الجمهورية لدى رجالات اليمن الأحرار، بمرجعيتها الفكرية.

بداية تجدرُ الإشارة إلى أنّ ثورةَ ٢٣ يوليو المصرية ١٩٥٢م قد أثرت التأثير الكبير في ثقافة وفكر المنطقة العربية قاطبة، ومنها اليمن، وربما كان اليمنيون أكثر تأثرا بها، نظرًا لحاجة اليمنيين لهذا النمط من النظام الذي تأسس في المنطقة، مع الفارق الكبير بين ملكية فاروق في مصر، وكهانة آل حميدالدين في اليمن، الذين لا علاقة لهم بالدولة فلسفة وثقافة وإدارة، فلم يعرفوا الأنظمة

التي كانت سائدة في مصر الملكية، ولا حتى أي دولة أخرى. كانوا حُكمًا طغيانيًا، يختزلون الدولة في أشخاصهم، فلا دستور ولا قوانين ولا لوائح ولا أنظمة؛ حكم، وكفى. أو بالاصح تحكم، فقط، كيفما اتفق.

متى بدأت الجمهورية فكرة؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال تجدرُ الإشارة إلى أن طبيعة المعارضة التي تبلورت ضد حكم بيت حميدالدين من منتصف ثلاثينيات القرن الماضي، فما بعده كانت معارضة «إصلاحية» تتغيّا إصلاح النظام من داخله، ابتدأت همسًا من بعض المثقفين، فأصواتا مرتفعة، فمعارضة صارخة، وكلها منذ تلك الفترة حتى ثورة الدستور ١٩٤٨م، من مختلف الشخصيات، والتيارات التي ناوءت يحيى حميدالدين، وعارضته، عدا ما كان من أمر بعض البيوتات أو الشخصيات الإمامية التي رفضت بيعته من أول يوم، أو خرجت عنه بعد ذلك، فهي حالة خاصة، وبعيدة عن مسار هذه الدراسة، تأتي في إطار المنافسة الخاصة فيما بينهم حول من يستبد بالناس أكثر، أهذا البيت؟ أم ذاك؟ أهذا الإمام؟ أم ابن عمه؟ فالمعارضة هنا تتخذ طابعًا عشائريا تارة، وطابعًا دينيا تارة أخرى، وبالتالي فالحديث عنها هنا مفروغ منه؛ لأننا نتكلم عن المعارضة السياسية، بقصد الإصلاح السياسي.

وحين انقلب الطاغية أحمد حميدالدين على ثورة الدستور في العام ١٩٤٨م خفت صوت المعارضة، وتراجع قليلا، فترة محدودة، ثم عادت بعض الأصوات، منادية بالإصلاح السياسي أيضًا، ولكن مع مطالب جديدة، وسقف أرفع من سقف مطالب الأربعينيات، بحكم تغير فترة الخمسينيات عن الأربعينيات، ولذات الهدف أيضا «الإصلاح السياسي»، كسياسية انتهجها الأحرار بالسلم والقول الحسن، كما يذكر الزبيري بالقول: "ورأينا أنّ التاريخَ سيحكمُ علينا بالتهور والتسرع إذا لم نكرر التجاربَ بطرقٍ أكثرَ

لينا».[1] لكن ذلك ما لم يكن من الإمام الجديد الذي انتهج نهج أبيه، غير آبهٍ بدعوات الأحرار، ولا نداءات المصلحين «"إذ كان أحمد كوالده لا يكترث من تذمر الجماعات المثقفة في المدينة؛ لأنه كان قوي الاعتماد على طاعة الفلاحين وإجابتهم عند كل طلب إمامي».[2]

ومن يتأمل في برنامج «الاتحاد اليمني»، الواجهة الأبرز للمعارضة السياسية في الخمسينيات يجد هذا الطموح أكثر جموحًا، وأوسع فكرة عن برامج وأدبيات الأربعينيات التي تجلت في برنامج الكتيبة اليمنية وهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحزب الأحرار والجمعية اليمانية الكبرى، مع أنّ برنامج الاتحاد اليمني هو في الواقع امتدادٌ ثقافيٌ وفكري لتلك البرامج، ولكن بروح وثقافة وفكر الخمسينيات.

وعودة أخرى إلى الإجابة عن السؤال: متى بدأت فكرة الجمهورية؟

المتتبع لأدبيات الأحرار السياسية، وخاصّة بعد الثورة الدستورية يقف على بعض الملامح الأولى لتبلور فكرة الجمهورية في وثائقهم وأدبياتهم من الخَطْرة الأولى إلى الفكرةِ الأخيرة.. من التلميح إلى التصريح، وذلك منذ منتصف خمسينيات القرن الماضي.

يذكر الكاتب السياسي والمؤرخ لطفي نعمان عن شهادة المناضل محمد الفسيل أن الأستاذ محمد أحمد نعمان أول من دعا إلى الجمهورية قبل أي إنسانٍ آخر، وأعلن الدعوة صراحة.[3] وأنه قد ذكر ذلك في مقابلة غير منشورة، أجراها مركز دراسات الشرق الأوسط بالجامعة الأمريكية ببيروت، تشتمل ذكريات النعمان الابن عن نشاطه الوطني والسياسي منذ نعومة أظافره ١٩٤٤م؛ حيث لحق بأبيه الأستاذ أحمد محمد نعمان، وزميله القاضي

(1) ـ الأعمال الكاملة، محمد محمود الزبيري، 45.

(2) ـ الثقافة والثورة في اليمن، عبدالله البردوني، 99

(3) ـ موقع مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام، على الرابط: https://m.facebook.com/story.php?story_fbid=2332165896908705&id=234264290032220

محمد محمود الزبيري إلى عدن، حتى وجّه سنة ١٩٥٤م باسم «الأحرار الجمهوريون» رسالة إلى مجلس قيادة الثورة بمصر أن يتم «تشكيل مجلس وصاية عربية مكون من مصر والسعودية وسوريا على اليمن». ثم تطرق حديثه إلى جهود سرية، لإقامة الجمهورية بدءًا من اجتماع سري داخل اليمن سنة ١٩٥٦م "أثبته الرئيس القاضي عبدالرحمن بن يحيى الإرياني بالجزء الأول من مذكراته عن لقائه مع المشايخ: أمين عبدالواسع نعمان وسنان أبو لحوم، وحميد الأحمر، وبرنامج العمل الوطني المحكوم بمقاييس المرحلة وظروفها وجعل من إعلان الجمهورية مرحلة ثانية بحسب نص البند السابع من البرنامج المؤرخ في ٦ فبراير ١٩٥٦م".[1] أ. هـ.

وذكر علي محمد عبده في كتابه لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين أنه «بعد فشل ثورة ٥٥م أخذ الأحرار يُعدون لقيام النظام الجمهوري، كبديلٍ لنظام الإمام، وأخذت مشاوراتُهم تدورُ حولَ هذه الفكرة.. وعندما أخذوا يتشاورون حول العمل من أجل النظام الجمهوري سلطت الأضواء، وتركز الاهتمام من قبل بعض الأحرار، وبالذات من الأستاذ أحمد محمد نعمان، وولده محمد على الشيخ حميد الأحمر ووالده الشيخ حسين بن ناصر، وإقناعهما بالعمل من أجل النظام الجمهوري..».[2]

ويضيف: «ومع ذلك لم يُعلن الأحرارُ الدعوة للجمهورية في بدء تلك المشاورات والاتصالات، وإنما أصدرت في ٢١ فبراير ١٩٥٦م، بعد الانشقاق الذي حدث في الاتحاد اليمني ميثاقا وطنيا، طرحوا فيه تصورهم لنظام الحكم في المستقبل، سلطة وإدارة، وأسموه: «مطالب الشعب» وأوكل للأخ محمد أنعم غالب مهمة إعداده..».[3]

---

(1) ــ نفسه.

(2) ــ لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنين، 88/2.

(3) ــ نفسه، 88/2. في دستور اليمن الذي قدمه الاتحاد نهاية العام 1952م تساءل فيه واضعو النص بهذه الصيغة: «فلم لم يجتمع رجال اليمن حول مبادئ ثورية محددة، تضمن سعادة الشعب وحريته واستقلاله»؟ وكلمة ثورية هنا تحتمل ثلاثة احتمالات: ثورة ضد النظام من أساسه، أو ثورة ضد الإمام فقط واستبداله بإمام

ويفصح علي محمد عبده عن الحقيقة سافرةً، وعن أول داعٍ إلى الجمهورية صراحة، وبلا مواربة، وذلك في أول أكتوبر من العام ١٩٥٧م، ضمن توجهات الاتحاد اليمني، في القاهرة؛ حيث قال عن محمد أحمد نعمان، مخاطبًا قيادة الاتحاد اليمني: «لقد آن الأوان لتبني الهيئة الإدارية الدعوة للجمهورية كهدف، ويعمل الاتحاد اليمني على تحقيقه كنظام حكم لليمن».[1]

ومن هنا بدأت «عمليّة الفكرة» تسفر عن وجهها بكل وضوح، وبلا تحفظ، وخاصة بين الأوساط الشبابية والأقلام الصحفية؛ إذ استحسنت الهيئةُ الإدارية للاتحاد هذه الفكرةَ، شاحذين أقلامهم وأفكارهم للكتابة في هذا الاتجاه، في أغلب الصُّحف العدنية حينها، مع أن ثمة من عارضها من بعض الشباب المثقف، إلا أنهم الأقل، وبعض المعارضة هذه لا تعدو العناد فقط بين الفريق الواحد، لحسابات خاصة بينهم.

وانتشرت الفكرة من القاهرة، فعدن، ثم تعز وصنعاء وبقية المدن اليمنية، وقد ذكر الأكوع في كتابه أحداث ثورة ٥٥م أن الإمام أحمد بعد عودته من روما في ٥٩، ومطاردته للمشايخ، خاطب أحمد السياغي، قائلا: «تشتوا جمهورية يا قحطاني»؟[2]

وتجدرُ الإشارة هنا إلى أن فكرة القحطانية والعدنانية قد برزت في أدبيات الثوار الأحرار منذ آخر الثلاثينيات، ضمن التثوير والاعتداد بالذات واستدعاء التاريخ والحضارة. بل لقد استخدمها بعض العناصر الثوار من المحسوبين على العدنانية كالمطاع والوريث، مفاخرين بيمنيتهم، وهو ما يجعلنا نقرر أن فكرة القحطانية والعدنانية لا يُقصد بها العصبية العرقية، بقدر ما يقصد بها استدعاء الذات اليمنية لا أكثر، وإغاظة الإمام يحيى، ومن بعده أحمد، بدليل أن الإمام أحمد نفسه قد استدعى التاريخ اليمني بقصد

آخر، أو ثورة تصحيحية إدارية في إطار حكم الإمام نفسه.

(1) ـ لمحات من تاريخ حركة الأحرار، 146/2.

(2) ـ أحداث ثورة 1955م، الأكوع، 78.

سبق الثوار الأحرار، والظهور بمظهر المتفاخر بيمنيته فسمى الطائرات التي اشتراها: بلقيس وظفار، وسمى الباخرة «معين». لكنه استدعاء في الوقت الضائع، واستدعاء بقصد التدليس الذي لم يعد ينطلي على أحد.

جديرٌ بالإشارة هنا أنَّ القحطانية والعدنانية قديمة الصّراع، استخدمها الكميتُ بن زيد الأسدي في مذهبته التي كانت واحدًا من أسباب سقوط الدولة الأموية، ورد عليها دعبل بن علي الخزاعي، ناقضًا إياها، على تشيعه،[1] وقد بسطنا فيها القول تفصيلا، وفي الدوامغ التي تلتها في كتابنا الهادوية بين النظرية السياسية والعقيدة الإلهية.[2]

ويشير البردوني إلى أن «علم الجمهورية» قد تبدى في رواية «مأساة واق الواق» للزبيري، عازيًا ذلك للاتحاد اليمني الذي عبر عن إرادته في قيام جمهورية ديموقراطية، ولكن من غير بيان سياسي.

وعلى أية حال.. فالمفكر الأستاذ محمد أحمد نعمان هو الناسج الأول لفكرة الجمهورية، وصاحب الصوت الأندى، الذي صدح بالحقيقة في وجه «الإصلاحيين الأحرار» قائلا: إن مهمة المناضلين الأحرار ليست السمسرة للأمير فلان، أو فلان. وليس واجب المناضلين الأحرار عندما يفقد الشعب الأصنام أن يصنعوا له أصناما من فلول الطغيان المندثر.[3]

---

(1) ـ يقول في هذه القصيدة، مفاخرا باليمن وماضيها:

أفيقي من مَلامك يا ظعينا ... كفاك اللّومَ مرّ الأربعينا
ألمْ تُحزِنْكِ أحداثُ اللّيالي ... يُشيبنّ الذوائبَ والقرُونا
أحيّي الغُرّ منْ سَروات قومي ... لقد حُيّيتِ عنّا يامَدِينا
فإنْ يكُ آلُ إسرائيل منكم ... وكنتم بالأعاجم فاخرينا
فلا تنس الخنازير اللّواتي ... مُسِخْنَ مع القرود الخاسئينا
بأيلة والخليج لهم رسُومٌ ... وآثارٌ قَدُمْنَ وما مُحِينا
وما طَلبُ الكميت طِلابُ وِتْرٍ ... ولكنّا لنصرتنا هُجينا
لقد عَلِمَتْ نِزارٌ انّ قومي ... إلى نصرِ النبوة فاخِرينا

(2) ــ الهادوية بين النظرية السياسية والعقيدة الإلهية، ثابت الأحمدي، وزارة الثقافة، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر، ط:1، 2018م، 100 فما بعدها.

(3) ـ الفكر والموقف، لطفي فؤاد أحمد نعمان، 34، وانظرها في الثقافة الجمهورية، د. علي محمد زيد، 87.

مضيفا:.. نعم إنني أريدُ الجمهورية في بلادي. أريدُ أن ينتهي عهد التوارث للبشر في بلادي. أريد أن يشعر الحاكمُ حقيقة لا مجازًا أنه يخدمُ مواطنيه، وأنه موظف لديهم لمدة محدودة، يعمل أجيرًا لديهم في إدارة شؤونهم العامة، لا إلها متجبرًا، يهب الحياة لمن يشاء، ويطعم سيف الوشاح من يريد. أريد تغيير نُظُم، لا تغيير أشخاص.[1]

ولعل دعوة محسن العيني، الشاب المستنير حينها، وأحد أعضاء الاتحاد اليمني، في كتابه: معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن، الصادر عام ١٩٥٧م، قد كانت صدى لهذه الدعوة، والتي زاد عليها أيضا فكرة الوحدة بين الشطرين، على أساس جمهوري، ديموقراطي؛ بل فكرة الوحدة بين مصر وسوريا، يقول: «هيا بنا يا رجال نوحد النضال في سبيل جمهورية شعبية، يتساوى في ظلها المواطنون، فلا تابع ولا متبوع، ولا سيد ولا مسود. هيا بنا نؤسس الجمهورية، جمهورية اليمن، لتحقق مع جمهورية مصر، وجمهورية سوريا الوحدةَ العربية المنشودة..[2]

إن من يستقرئ البنية النفسية لهذه الأفكار «النعمانية» يجدها مصبوغة بفكر تقدمي عميق، يبدو خليطًا من مدرسة الإصلاح الديني، ومن لفحات الفكر اليساري، مجتمعين. مشبوبة بحماس شبابي، ينتمي للمستقبل، أكثر من انتمائه للحاضر، ولا شك أن نفحات القصائد الزبيرية حاضرة هنا، خاصة حين يقول: إننا لا نستطيع أن نؤمن بالشعب، وبأعداء الشعب في وقت واحد. إن هذا النص على عمقه الفلسفي، ووجازته الفكرية ترجمة نثرية لقول الزبيري شعرًا:

وآمنتُ بِالشعب حتى وقد رآهُ الورى جُثةً هامدة
تداعى حواليهِ أعداؤهُ ليقتسموه على المائدة

(1) ـ نفسه، 34، والوشاح: سيّاف الإمام المتخصص بقطع الرؤوس.

(2) ـ انظر معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن، محسن أحمد العيني، دار الشروق، ط:1، 1999م، 158.

هل انهارت الإمامة أم قامت الجمهورية؟

إن بين انهيار الإمامة ككيانٍ متهالك، وقيام الجمهورية كنظام فتِيٍ تلازمًا وثيقًا؛ لأن هذا من ذاك. وفي الواقع لم تنشأ أنظمة إلا على أنقاض أنظمةٍ أخرى، نخرها السوس داخليًا قبل أن تؤثر عليها العوالم الخارجية. كالرياح التي تهبُّ على الشجرة، فتتساقط بعض أوراقها، فيما تثبتُ بقية الأوراق، متشبثة بعروقها، رغم أن الكلَّ على شجرة واحدة، وغصن واحد. إن الأوراق التي تساقطت فقدَت تماسكها الداخلي، فانهارت بفعل التأثر الخارجي، أي لم تكن الرياحُ إلا تحصيل حاصل، عجلت بسقوطها.

يقولُ البعض ــ في خفة عابرة ــ إنّ مصطفى كمال أتاتورك أسقط الخلافة العثمانية، بداية القرن العشرين. والواقع أن أتاتورك لم يفعل أكثر من دفن الجثة الهامدة التي كانت في النّزْع الأخيرة، تلفظ أنفاسها المتهالكة، فعجّل بدفنها. كان النظامُ نفسُه على شفا السُّقوط بأتاتورك أو بغيره، ولو لم يدفنه أتاتورك لدفنه أتاتورك آخر. وكذلك الشأن مع الامبراطوريات السابقة، وأيضا مع بقية الظواهر الطبيعية الأخرى.

وعودة إلى الإجابة عن السؤال، لنقول: انهارت الإمامة وقامت الجمهورية في وقت واحد معًا، فالظروفُ الزمانية والمكانية لعوامل انهيار الإمامة وقيام الجمهورية واحدة، إلا أنّ العواملَ مختلفة. تغولت الإمامة في طغيانها استبدادًا وبطشا، فكان لا بُدّ للشعبِ من البحث عن البديل المناسب، كما فعل غيرُنا في المنطقة، على اختلاف الأنظمة الملكيّة التي تساقطت آنذاك؛ إذ كانت متقدمة على إمامة اليمن بسنواتٍ ضوئية. «فإن للشعوب فتراتٍ قصيرة، تستجمع فيها إمكاناتها المادية، ثم تنفجر، فتكتسح الموانع».[1]

(1) ــ الثقافة والثورة في اليمن، البردوني، 68.

كانت الخلافاتُ البينيّة تعصفُ بالبيت الإمامي، وكانت وحدة الهدف الثوري لدى الأحرار تلم شتات الجميع. كما أشار الشماحي بقوله: القضاءَ على حُكم بيت حميدالدين كان عند الثوار الأحرار كالشهادتين، محور الإيمان، من قالها واعتنقها فهو حرٌ ثائر، ومن تردد فيها فهو جامد، أو عميل خائن. بالغت هذه الأسرة في تجهيل واستعباد الشعب، بقدر ما كان الشعب يتطلع للعلم والحرية، فغلبت تطلعاتُ الشعب كهانةَ الإمامة. وهكذا يَخلقُ النقيضُ نقيضَه في متلازمة تاريخية قَلَّ من يدركها.

لقد عاشت اليمنُ في عهده في حلقة مفرغة من العنف والعنف المضاد، لإصرار أحمد على غيه، ولإصرار الشعب على إصلاح حاله، ولأن الأوضاع المحلية قد تغيرت، ولأن وعي الجماهير قد ارتقى وتبدل، ولأن الظروف الإقليمية والدولية أيضا قد تغيرت إلى حد كبير، ولأن مُثُل الحرية والتقدم الاجتماعي والتغيير قد تحولت إلى وعيٍ جمعي في اليمن، كما في غيرها من أقطار الوطن العربي، والعالم بأسره، وكانت سماتُ المرحلة سقوط الأنظمة الرجعية المتخلفة، وكان اليمن نموذجُ هذا النوع من الأنظمة، فقد توقع الكثيرون حدوث التغيير في اليمن، وتوقعوه تغييرًا جذريًا لا صوريا.[1]

وعلى أية حال.. تسارعت الخطى، من اتجاهيين:

الأول: تآكل نظام الحكم من الداخل، بالخلافات الداخلية، وأيضا بمرض الإمام أحمد، وقد صار مقعدا عاجزا عن الحركة بعد حركة اللقية والعلفي في الحديدة، ومحاولة قتله حتى وفاته يوم ١٩ سبتمبر ٦٢م.[2] علما أن الإمام أحمد حاول في العام ٦١م أن يعمل على تمتين علاقة ولي عهده البدر مع

(1) ـ اليمن تحت حكم الإمام أحمد، د. أحمد عبيد بن دغر، 11.

(2) ـ سمعتُ من الوالد المناضل صالح سحلول رحمه الله أن الإمام أحمد قال لنجله البدر آخر أيامه وهو في حالة غضب منه: «إذا حفظت شرفنا أسبوعا واحدا بعد مماتي يحشوا/ يحلقوا ذقني بالنعال»!!. وروى آخرون أنه كان يؤنبه دائما، ثم يقول: «اركز لك سَلَبَة» والسَّلَبَة نوع من الحبل المصنوع محليا، من شجرة السّلَب، ليفٌ كثيرا، وفعلا فقد صدقت نبوءته، فلم تمض غير ستة أيام حتى انفجرت ثورة الألف عام في وجه الطغيان.

المملكة العربية السعودية، لضمان استمرار حكمه بعد وفاة والده، كما ذكر ذلك الرئيس القاضي عبدالرحمن الإرياني في مذكراته، إلا أن كل ذلك لم ينفع أمام ثورة الشعب.

الثاني: تنامي الوعي الثوري، وتواصل تنظيم الضباط الأحرار مع نظام مصر عبدالناصر، والتسريع بالعمل الثوري، ولم تكن الثورة في الحقيقة إلا القشة التي قصمت ظهر البعير، إذ كانت ملامحها وإرهاصاتها واضحة، بل لقد تسربت أخبارها إلى الإمام البدر نفسه، الذي بدروه استشار قائد حرسه الزعيم السلال، فرد عليه السلال ببرود: «انتبه يسمعوك بايفعلوا ثورة من صدق» في إشارة ذكية منه إلى طمأنته، وإلى أن الخبر كاذب من أساسه.

تنظيم الضباط الأحرار

يُعتبر تنظيمُ الضُّباط الأحرار هو الواجهة الأبرز لثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢م، الذي تم الإعلان عن تكوينه الأولي في ديسمبر ١٩٦١م، أي قبل الثورةِ بتسعةِ أشهر فقط، بعد عدة جلساتٍ تَسمّى فيها سابقًا منظمة الضباط الأحرار؛ لكن المؤسسين عدلوا عن هذا الاسم لاحقًا، ليكون بالاسم المعروف اليوم. وكان أغلب منتسبيه من الضباط الصغار، برتبة ملازم، شبابا في أوج حماسهم الوطني وانفعالهم الثوري، عدا القليل من أصحاب الرُّتب الكبيرة الذين لم يكونوا أقل ثورية عنهم؛ بل إنّ الرئيس عبدالله السَّلال أكبرهم رتبة آنذاك كان عمره ٤٥ عامًا، في سن الشباب.[1]

(1) ــ عبد الله يحيى السَّلاَّل (1917م 1994-م)، هو أولُ رئيسٍ للجمهورية العربية اليمنية في الفترة 1962م – 1967م. ولد في قرية شعسان مديرية سنحان، محافظة صنعاء عام 1917م. التحق بمدرسة الأيتام بصنعاء عاصمة اليمن آنذاك عام 1929م، وبعد إتمامه للمرحلة الثانوية سافر إلى العراق عام 1936م في بعثة عسكرية أرسلها الإمام يحيى حميد الدين حيث دخل الكلية العسكرية العراقية، وتخرج فيها برتبة ملازم ثان عام 1939م. شارك في ثورة الدستور عام 1948م بقيادة عبد الله الوزير، ثم سُجن على إثرها. وقد كان=

«لم يكن من ضمن تنظيم الضباط الأحرار، إلا أنه كان على تواصل بهم».[1] وربما كانت هذه واحدة من ميزة القيادة التي أهلتها للنجاح في مشروعها الأكبر.

في البداية ناقشت طليعة من الضباط مشروعهم وأهدافهم، في ثلاث جلسات متتالية، وكانوا خمسة عشر ضابطا، برتبة مُلازم، فأعلنوا لجنة قيادية منهم،[2] وصاغوا القسم التنظيمي التالي على المصحف والمسدس: «أقسمُ بالله العظيم، وبالإسلام الذي أدينُ به، وبكل المقدسات الوطنية، أن أكون جنديًا مخلصًا في جيش العُروبة، وأن أبذلَ نفسي وما أملك، فداءً لقيادتي ووطني، وأن أكونَ منقادًا لما يصدرُ إليّ من أوامر، منفذًا لها، ما دمتُ أعلم أنها في المصلحة العامة التي جاء من أجلها الدين، وألا أخون، ولا أفشي سرًا للمنظمة، ولو أدى ذلك إلى استشهادي. والله على ما أقول وكيل».[3]

توالت الاجتماعاتُ الأسبوعيّة بعد ذلك في صنعاء، كل مرة في منزل أحد اللجنة القيادية، لوضع اللوائح الداخلية للتنظيم والضّوابط الخاصة بالعمل، والتي من بينها «يباح دمُ كل من أفشى سرًا للمنظمة»[4] وانتخاب قيادة تديرُ شؤون التنظيم، وتحديد مقدار الاشتراك الشهري الذي كان ريالا واحدًا يومها، ثم تأسيس أول فرع للتنظيم في تعز، بنظر علي عبدالمغني ومحمد مطهر، يرتبط ارتباطا مباشرًا بالتنظيم الرئيسي في صنعاء. وكان هذان الاثنان

=مشتركا في تنظيم الضباط الأحرار ولم يكن يعلم الإمام البدر بهذا فقربه إليه أكثر. وحين قامت الثورة أجمع عليه الضباط رئيسًا للجمهورية.

(1) ــ ذكر عبدالغني مطهر في مذكراته أن اجتماعًا في منطقة بوعان بصنعاء، لمناقشة الوضع حضره هو، وضمّ كلا من: عبدالله السلال، وحسن العمري، وعبدالسلام صبرة، ومحمد علي عثمان، وعبدالله الضبي، إضافة إلى العقيد محمد عبدالواسع قاسم. وهو ما يؤكد ارتباط الرئيس السلال بالتنظيم من قبل قيام الثورة. إضافة إلى أني سألت نجله المرحوم علي السلال رحمه الله ذات مرة في مقيل معه بمنزله بصنعاء، عن هذه المعلومة، فأجاب: نعم، كان على ارتباط معهم، وهذا مدون في مذكرات والده الجاهزة للنشر.

(2) ــ تكونت اللجنة القيادية الأولى للتنظيم التي فازت بالاقتراع السري من: صالح الأشول، حمود بيدر، علي الجايفي، ناجي علي الاشول، أحمد الرحومي. وجميع هؤلاء برتبة مُلازم.

(3) ــ انظر: أسرار ووثائق الثورة اليمنية، لجنة من تنظيم الضباط الأحرار، مؤسسة العفيف الثقافية، ط:4، 2002م، 113.

(4) ــ نفسه، 115.

في تعـز في شـهر ديسـمبر ٦١م.[1] وعـادا في ينايـر ١٩٦٢م إلى صنعـاء.

وفي يوليـو ٦٢م اكتمـل تأسيسُ فـرع التنظيـم بالحديـدة مـن سـبعةِ عنـاصر، هـم القاعـدة التأسيسيّة للتنظيـم هنـاك، ارتبطـوا بصنعـاء، كـما ارتبـط فـرع تعـز.

وتجـدرُ الإشـارة هنـا إلى أن أغلـب هـؤلاء الشـباب، كانـوا منضويـن ضمـن تيـارات سياسـية بـدأت تظهـر عـلى السـاحة مـن قبـل ذلـك بسـنوات، خاصـة الطلبـة الذيـن عـادوا مـن الخـارج، ثـم مـن تأثـر بهـم بعـد عودتهـم، مـن طلائـع الماركسـيين الأوائـل عـن طريـق الجنـوب، ثـم حركـة القوميـين العـرب،[2] ثـم التيـار الثالـث ــ وهـو الأبـرز ــ حـزب البعـث العـربي الاشـتراكي، وهنـاك عناصر أخـرى كانـوا مسـتقلين، لا يرتبطـون بـأيٍ مـن هـذه التيـارات ؛ إلا أنهـم حـين أسسـوا تنظيـم الضبـاط الأحـرار وجـدوه الأقـرب إلى قلوبهـم جميعًـا، فتناسـوا أحزابهـم وتياراتهـم السياسـية، وعملـوا بـروح الفريـق الواحـد ضمـن حـزب اليمـن الجديـد «تنظيـم الضبـاط الأحـرار»، المظلـة الجامعـة للـكل.[3]

إلى جانـب الخلايـا العسـكرية التـي تشـكلت مـن تنظيـم الضبـاط الأحـرار، كانـت هنـاك خلايـا مدنيـة في تعـز، وفي صنعـاء، فخليـة صنعـاء تكونـت مـن: عبدالعزيـز المقالـح، عبـده عثـمان محمـد، أحمـد الشـجني، محمـد عبـده نعـمان، عبدالوهـاب جحـاف. وبحسـب إشـارة عـلي محمـد عبـده، عـن عـلي عبدالمغنـي، فقـد كان عبدالعزيـز المقالـح أكثـر هـؤلاء ثقـة عنـد ضبـاط التنظيـم.[4]

---

(1) ــ كان إلـى جانبهمـا كلٌ مـن: عبـدالله عبدالسـلام صبـرة، محمـد حاتـم الخـاوي، سـعد عـلي الأشـول، يحيـى عـلي الفقيـه، عـلي محمـد الضبعـي، أحمـد عـلي الوشـلي، أحمـد الكبسـي.

(2) ــ لعـب شـباب الحركـة دورًا مهمـا صبيحـة يـوم السـادس والعشـرين مـن سـبتمبر، مـع أتباعهـم موظفـي «النقطـة الرابعـة» فـي الجانـب الدعائـي والإعلامـي واللافتـات التـي ملأت بهـا الشـوارع، وكان أبـرز قيـادات الحركـة التـي كانـت عـلى اتصـال بالأحـرار آنـذاك: يحيـى عبدالرحمـن الإريانـي، وسـلطان أحمـد عمـر، وسـعيد الإريانـي، ومالـك الإريانـي، وعبدالرحمـن محمـد سـعيد، وأحمـد قاسـم دمـاج. وقـد أخبرنـي الوالـد المناضـل سـعيد الجناحـي أنـه الـذي تبنـى نقـل كلمـة السـر للثـوار فـي تعـز مـن صنعـاء، صبيحـة يـوم الثـورة، كونـه كان موظفًـا فـي شـركة الطيـران. ونشـرت هـذا الحديـث معـه فـي صحيفـة الجمهوريـة فـي ملحـق خـاص بمناسـبة العيـد الذهبـي للثـورة.

(3) ــ يقـول البردونـي فـي سـياق حديثـه عـن التنظيمـات السياسـية قبـل 26 سـبتمبر: «ولعـل تنظيـم الضبـاط الأحـرار كان مـن شـتى تلـك التنظيمـات، بحكـم الطابـع العسـكري، ومهمـة العمـل المسـلح». الثقافـة والثـورة فـي اليمـن، 274.

(4) ــ لمحـات مـن تاريـخ حركـة الأحـرار اليمنييـن، 291/2.

وإلى جانب هؤلاء من المدنيين في صنعاء القاضي عبدالسلام صبرة الذين كان يتواصل مع القائم بأعمال السفير المصري حينها محمد عبدالواحد.

وفيما يتعلق بخلية تعز التي رأسها عبدالغني مطهر، فقد كانت على اتصال مستمر بتنظيم الضباط في صنعاء، بناء على تنسيق بين مطهر وعلي عبدالمغني، وذلك على اعتبار أن الثورةَ ستندلع أولا في تعز؛ حيث يقيم الإمام أحمد، ثم صنعاء وبقية المدن بعدها. وتواصل عبدالغني مع المسؤولين في القاهرة، كالسّادات وصلاح نصر، وغيرهما، وعاد بتقرير سلمه لعلي عبدالمغني.[1]

أما فرع تنظيم الحديدة فقد كانت مهمته يوم الثورة القبض على نائب الإمام والموالين للإمامة، وأيضا السيطرة على الميناء.

وقد أضاف صاحب كتاب ثورة وثوار أن ثمة فرعا رابعا للتنظيم كان بعدن، إلى جانب التنظيم الأصل بصنعاء، وفرعيه في تعز والحديدة.[2] إلا أن ذلك ما لم تؤكده أية مصادر أخرى.

(1) ــ ذكر عبدالغني مطهر أن ساعة الصفر التي اتفقوا عليها أولا كانت يوم 23 يوليو 1962م، مجاراة لثورة يوليو المصرية التي كانت في نفس اليوم، إلا أن ذلك لم يتم، وتم تأجيل العملية حتى وقت آخر، فكانت في 26 سبتمبر، بعد وفاة الإمام أحمد بأسبوع. ومع موت الإمام أحمد بتعز، تغير مسرح ساعة الصفر من تعز إلى صنعاء. وتغيرت مع ذلك بعض الإجراءات التي كانت متعلقة بالمهام الأولى.

(2) ــ اليمن ثورة وثوار، 29.

26 سبتمبر.. الحدث وتداعياته

مع شروق شمس يوم السادس والعشرين من سبتمبر العظيم، ١٩٦٢م كانت دباباتُ ومدافع الشعب تدكُّ وكرَ الكهنوت الأرعن المسمى «دار البشائر» بالعاصمة التاريخية صنعاء، حيث يقيم الإمام الجديد، الحالم بمواصلةِ كهانة آبائه وأجداده محمد البدر.[1]

صبيحة ذلك اليوم المشرق كان الشعبُ اليمنيُّ قد قرّر قرارَه النهائي أن يستعيدَ هُويتَه المسلوبة، وذاته الجريحة، كشعب ينتمي إلى واحدة من أعرقِ حضارات التاريخ الإنساني قاطبة.

إن تلك اليدَ التي قدحت زناد البندقية لأول مرة هي يدُ الشعب، وإن تلك الطلائع العسكرية التي اتخذت القرار التاريخي في التخلص من الكهانة هي طلائع الشعب؛ بل هي الشّعب ذاته، مختزلةً روحه وكينونته، فالتفّ حولها نصيرًا ومساندًا. ولا تزالُ إلى اليوم محل إجلال وتقدير واحترام، رموزًا تاريخية في وجدانِ الشعبِ، وأيقونات نضالٍ في ذاكرةِ الأمة، تحتلُّ زخم المكان والزمان.

في صبيحة ذلك اليوم الأغر، وهو عيد كل الأعياد اليمنية غادرَ «الكويهنُ» وكرَه، تطارده غضبةُ الشعب الذي صبرَ طويلا، حتى قال كلمته النهائية، معلنا جمهوريته، ليعيشَ كما تعيشُ كلُّ شُعوبِ الأرض عزيزا كريمًا على أرضه، وقد تشرد في مجاهل البحر وفجاج البر، خائفًا جنود الإمام وبطش أتباعه الذين استخدموا مع الشعب سياسة التنكيل والبطش، بصورة لا تنم إلا عن انتقامٍ حاقدٍ، في أسوأ صورة من صور اللؤم، بعد أن آواهم وأكرمهم،

---

(1) ــ تحددت ساعة الصفر في البداية بالساعة 11 ليلة الأربعاء 26 سبتمبر 1962م، فتأخرت، إلى صبيحة اليوم الثاني، صبيحة يوم الخميس 27 سبتمبر، والذي يوافق بالهجري 28 ربيع الآخر، 1382هـ، وتم التعامل بعدها على هذا الأساس.

وأنقذهم من عقاب الدول التي تمردوا عليها في دمشق وبغداد والقاهرة منذ وقتٍ طويل، فانقلبوا عليه، وتعمدوا إهانته.[1]

في صبيحة ذلك اليوم المشهود، وفي مقر قيادة الثورة في الكلية الحربية، كان القادة الأبطال: جزيلان والسلال وعلي عبدالمغني ومئاتٌ من رفاقهم يرسمون خريطة اليمن الجديد، وينقشون عهد اليمن القادم بشجاعة واستبسال، حاملين رؤوسهم على أكفهم، فداء للشعب، ولسان حالهم: إما النصر وإما الموت. وقد كان النصرُ حليفَهم، بعد أن آزرهم الشعب والتف حولهم، يطاردُ «الكويهن» الصغير، وزمرته المرافقين له من الفلول.[2] ولسان حالهم:

لم ترنح مصباحَنا أيُّ ريح دمُنا الزيتُ في دم المصباح

وضعوا الخطة الثورية، لإعلان الجمهورية على النحو التالي:

١ـ محاصرة وقصف قصر البشائر، واقتحامه بعد ذلك، وهو مقر البدر.

٢ـ السيطرة على الإذاعة، وإعلان الجمهورية ومبادئ الثورة.

٣ـ القبض على قادة الجيش.

٤ـ محاصرة قصر السلاح، ومحاولة الاستيلاء عليه.[3]

انطلق ماردُ الثورة، وللتو غادرَ البدرُ من بابٍ خلفي، مذعورًا متنكرا، لم يثبت بجانبه من حراسته غير خمسة أشخاص فقط، تسللوا إلى منزل مواطنة

---

(1) ــ كان الثوار قد كلفوا أحد زملائهم، وهو حسين السكري باغتيال الإمام بالرصاص أولا داخل القصر، بعده تنطلق الدبابات لدك القصر؛ لكن العملية فشلت، لأن أحد الجنود ثنى يد السكري، فلم تصب الرصاصة ظهر الإمام كما أراد السكري، ويقال أنه كان يحمل بندقية، ضغط على الزناد، لكن الرصاصة لم تنطلق من بطن البندقية. وفشلت العملية رقم 1 من عمليات الثورة، وحين علم الثوار بذلك خافوا اكتشاف بقية المخطط، وبالتالي فلم يبق أمامهم إلا أن يغامروا باستكماله، فهاجموا القصر بالدبابات والمدافع.

(2) ــ تكون مجلس قيادة الثورة الذي تعين في أول يوم لها من: العميد عبدالله السلال، العميد حمود الجائفي، المقدم عبدالله جزيلا، النقيب عبداللطيف ضيف الله، النقيب محمد قائد سيف، النقيب محمد المأخذي، الملازم علي عبدالمغني، الملازم محمد مفرح. وفي نفس اليوم أيضا تم الإعلان عن تشكيل الحكومة برئاسة الرئيس السلال نفسه.

(3) ــ انظر: التاريخ السري للثورة اليمنية، اللواء عبدالله جزيلان، منشورات العصر الحديث، ط:3، 1987م، 154.

تعرفت عليهم، فآوتهم ليلة، بعدها غادروا باتجاه همدان، فحَجّة، متوهمًا أن مدينة حجّة ستعصمُه من طوفان الشعب، غير أن الأبطال كانوا قد سبقوه إليها، وبعضهم من أهلها ومن نزلاء السجن الذي يشبه سجن الباستيل، وفي النهاية لا عاصم من طوفان الشعب؛ إذ قبضوا على نائب الإمام فيها، ومنعوا البدر من دخول المدينة، وأعلنوا «تنصيرة» الثورة، الأمر الذي ألجأه إلى وكرٍ جبلي في أحدِ الجبالِ النائية البعيدة عن مركز المدينة؛ متابعًا أخبار الجمهورية التي أشعلت السهل والجبل، وفيه يندبُ حظه الخائب، مع رفاقه.[1]، وإن كان قد أعلن بعد ذلك عن حكومة إمامية في ١٧ أكتوبر، برئاسة عمه الحسن.[2]

في الأيام الأولى للثورة توافد آلافُ المواطنين من الأرياف نحو المدن، ملتحقين بمعسكرات التدريب العاجلة، وبعضهم توجه إلى الجبهات فورًا، لملاحقة فلول الإمامة، بأسلحتهم الشخصية، وبعضهم بلا سلاح، لخدمة أفراد الجيش ورجال الثورة، متطلعين لعهدٍ جمهوريٍ جديد، لا إمامة فيه أو كهانة.[3] خاصة وقد أعلنت قيادة الثورة إطلاقَ سراح الرهائن الذين

(1) ــ غادر الإمام الجديد دار البشائر، غرب ميدان التحرير، ولم يمض على حكمه أكثر من أسبوع، متسللا يرافقه خمسة أشخاص فقط، وقد ترك نساء القصر بين الصراخ والعويل من هول قذائف الدبابات والمدافع والرشاشات، وكان هذا محل ازدراء له وسخرية، فأنكر ذلك في تصريح صحفي بعد شهور، إلا أن الرئيس السّلال قد كذّب كلام البدر، وسمح للصحفيين الأجانب من التأكد برؤية نساء القصر في حالة تحفظ عليهن، لدى قيادة الثورة، لما يقارب سنة كاملة، وفقًا لرواية ديفيد سمايلي، وقد تم مبادلتهن بأسرى من الجمهوريين لاحقًا. وتذكر بعضُ الروايات الشعبية أن البدر خرج بلباس امرأة، لكنها هذه الرواية غير صحيحة، خرج بلباسه الذي غيره بلباس العكفة في منزل المرأة التي آوتهم وأنقذتهم من ملاحقة جنود الثورة، قبل أن يغادروا العاصمة صنعاء. ووصل إلى همدان، وفيها استقبله الشيخ عاطف المصلي، وزوده بالمال والرجال الذين رافقوه إلى حجة.

(2) ــ التطور السياسي للجمهورية العربية اليمنية،1962ــ 1985م، جلوفكايا إيلينا. ك، ترجمة: محمد علي البحر، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط:1، 1994م، 37.

(3) ــ سمع المؤلف ممن عاصروا تلك الأيام من أفراد أسرته عن مغادرة عشرات الأفراد من منطقته، ملتحقين بالثورة، وكان غالبيتهم بلا سلاح ناري، وظلوا ما بين سنتين إلى ثلاث، وبعضهم أكثر، لا يعرف الناس عنهم شيئا، إذ لم تكن خدمات التواصل متوفرة، حتى عاد بعضهم، حاملين نبأ استشهاد البعض الآخر، فيما عاد واحدٌ من هؤلاء فاقد العقل. وظل هؤلاء الأحرار مزارعين أو عمالا بعد عودتهم، لم يطلبوا من الدولة مليما واحدًا تجاه نضالهم وجهودهم التي بذلوها، مؤزرين بشرف الكفاح والقتال في سبيل الجمهورية، ويروون لأقرانهم عشرات من القصص التي سطروها في مختلف جبهات القتال في تهامة وحجة، والتي سطرها أيضا رفاقهم المناضلون. وقد روى الوالد المناضل=

كانوا بحوزة الإمام، من أبناء العائلات الكبيرة، والتي كانت إحدى أدوات الضغط التي مارستها الإمامة ضد الشعب. وفي ٣١ أكتوبر ٦٢م، صدر الإعلان الدستوري الأول للجمهورية.

السيطرة على الإذاعة

تُعتبر مقار الإذاعات الرسمية، أو التلفزيون، ومؤخرا الفضائيات الرسمية من المؤسسات السيادية لأي دولة، وعادة ما تطبقُ أنظمة استثنائية، سواء لها أو عليها.

ونظرًا لأهمية إذاعة صنعاء، وهي الإذاعة الرسمية بطبيعة الحال فقد كانت السيطرة على مبنى الإذاعة من أولى أولويات قيادة الثورة، ضمن خططها الاستراتيجية، وقد حرصوا على ألا تُمس بسوءٍ، في حال جرت مناوشات عسكرية، حفاظا على سلامة مبناها، وأيضا سلامة أجهزة البث، لأنها ملك الشعب أولا، ثم لحاجتهم الماسة إليها، لرمزيتها السيادية، وللصوت الثوري الذي ستلعبه في صالح الثورة، وهو ما كان فعلا، كما سنرى.

دار القتالُ حول الإذاعة، وجُرح في هذه المواجهات الثائر علي أبو لحوم، وتمت السيطرة على الإذاعة بعد مقاومة عنيفة من قبل القائمين عليها من أتباع الإمام، وفورًا تم إعلان أول بيان للثورة، تلاه محمد الفسيل، العائد متنكرًا من عدن، والمتخفي في منزل عبدالسلام صبرة، وما أن بدأ الضرب، وهرب الإمام البدر، حتى توجه الفسيل إلى الإذاعة،[1] وكان من رموز الثوار المتواجدين في الإذاعة يومها عبدالعزيز المقالح وحسين المروني مدير الإذاعة، ثم عبدالله حمران، وعبدالوهاب جحاف، وغيرهم، وقد لعبوا دورًا كبيرًا مع

=اللواء أحمد قرحش ــ وهو من أبناء حجة ــ قصص هؤلاء الأبطال وغيرهم ممن قاتلوا تحت قيادته في جبال الشاهل والشرفين وغيرهما.

(1) ــ جرى جدل كبير حول أول شخص تلا بيان الثورة، إلا أن الفسيل هو أول من تلا البيان. وذكر أحمد جابر عفيف أنه سمعه بنفسه بصوت الفسيل. واستهل التعريف بالإذاعة هكذا: إذاعة الجمهورية العربية اليمنية.

الثورة من خلال الإذاعة، كما كانت لهم أدوار نضالية بعد ذلك.[1] ويُعتبر الدكتور عبدالعزيز المقالح علم عربي على الصعيد الثقافي والأدبي، كما هو من أعلام النضال اليمني، هو ووالده الشيخ صالح مرشد المقالح.

أهداف الثورة

عقب السيطرة على الإذاعة تم إعلان أهداف ثورة ٢٦ سبتمبر الستة، وهي:

١ــ التحرر من الاستبداد والاستعمار ومخلفاتهما، وإقامة حكم جمهوري عادل، وإزالة الفوارق والامتيازات بين الطبقات.
٢ـ بناء جيش وطني قوي لحماية البلاد وحراسة الثورة ومكاسبها.
٣ـ رفع مستوى الشعب اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا.
٤ــ إنشاء مجتمع ديمقراطي تعاوني عادل، مستمد أنظمته من روح الإسلام الحنيف.
٥ـ العمل على تحقيق الوحدة الوطنية في نطاق الوحدة العربية الشاملة.
٦ــ احترام مواثيق الأمم المتحدة، والمنظمات الدولية، والتمسك بمبدأ الحياد الإيجابي، وعدم الانحياز، والعمل على إقرار السلام العالمي، وتدعيم مبدأ التعايش السلمي بين الأمم.

شائعة مقتل البدر.. الخطأ الذي أفاد

في الساعات الأولى للثورة، وعقب تلاوة بيان الثورة أعلن الثوار أنهم سيطروا على دار البشائر بعد اسهتدافه، وأن الإمام البدر «المخلوع» قد قتل تحت الأنقاض، وانتهى أمره، ولعلهم في هذا وهموا، وقد تهدمت أجزاء من الدار، وسيطروا على البوابة الرئيسية التي لم يخرج منها، ناسين حراسة أحد

(1) ــ انظر: شاهد على اليمن أشياء من الذاكرة، أحمد جابر عفيف مؤسسة العفيف الثقافية، ط:1، 2000م، 132.

الأبـواب الخلفيـة الصغـيرة، فأعلنـوا أنهـم قضـوا عـلى الإمـام، وأن أمـره انتهـى، وعنهـم تناقلـت وكالات الأنبـاء الدوليـة هـذا الخبر، وفـرح النـاس بـه في الداخـل أيضـا، الأمـر الـذي جعـل النـاس في الداخـل يتوافـدون إلى المـدن لتهنئـة قيـادة الثـورة وإعـلان الـولاء لهـا، إضافـة إلى محـاصرة نـواب الإمـام وعمالـه في مختلـف المـدن والقضـوات الذيـن انهـارت معنوياتهـم عقـب سـماعهم بخـبر وفـاة البـدر تحـت الأنقـاض، فلـم يقاومـوا في الغالـب، واستسـلموا أو تـم اعتقالهـم وإرسـالهم إلى قيـادة الثـورة بصنعـاء. فـكان روح الثـورة ومعنوياتهـا في أوج قوتهـا؛ لكـن بعـد أيـام قليلـة تبـين عـدم صحـة الخبر الـذي أفـاد، وتبـين أن البـدر تمكـن مـن التسـلل بصحبـة اثنـين مـن الحـرس المخلصـين، وخـادم، وعبديـن زنجيـين، وفقًـا لروايـة ديفيـد سـمايلي،[1] مضيفًـا: وفي نفـس الوقـت تمكـن الإمـام مـن إيفـاد رسـول بنـداءٍ بائـس للنجـدة إلى السـلال.[2] وفحـوى تلـك الرئاسـة أنـه مسـتعدٌ لتنفيـذ كل مـا يطلبـه الثـوار، عـدا التنـازل عـن العـرش، لكـن قيـادة الثـورة، طلبـوا منـه أن يسـلم نفسـه، ففضـل الفـرار عـلى ذلـك.

وحـين شـاع خـبر مقتـل البـدر تحـت الأنقـاض ادعـى عمـه الحسـن، وكان حينهـا في أمريـكا الإمامـة، عائـدا إلى جـدة مـن المملكـة العربيـة السـعودية، لكـن بعـد تبـين صحـة الخبر أعلـن تأييـده لابـن أخيـه البـدر. وسـواء بقـي عـلى ادعائـه أم أيـد، فالشـعب قـد قـال كلمتـه وحسـم قـراره.

وقـد ظـل البـدر مختفيًـا عـن أعـين النـاس، ولم يظهـر إلا في يـوم ١٠ نوفمـبر،[3] في مؤتمـر صحفـي في أحـد جبـال حجـة، متمنطقًـا حزامـا جلديًـا محشـوًا بالرصـاص. وتناقلـت وكالات الأنبـاء العالميـة خـبر ظهـوره ذلـك باهتـمام.

---

(1) ــ مهمـة فـي الجزيـرة العربيـة، ديفيـد سـمايلي بالاشـتراك مـع بيتـر كمـب، ترجمـة: حامـد مانـع، اتحـاد الأدبـاء والكتـاب اليمنييـن، ط:1، 1989م، 16.

(2) ــ نفسـه، 17. مـن بيـن هـؤلاء المرافقيـن عمـه أبـو إحـدى زوجتيـه، يحيـى الحرسـي، كمـا ذكـر سـمايلي الـذي التقاهمـا فـي الكهـف. يذكـر علـي محمـد عبـده أن ضابـط المخابـرات، المقيـم بصنعـاء حينهـا بـروس كنـدة كان أول مـن صـرح فـي مؤتمـر صحفـي بعـدن عـن حقيقـة خبـر البـدر، وأنـه لـم يمـت تحـت الأنقـاض. ومـن عـدن طـار إلـى أوروبـا، مأجـورًا لجلـب ضبـاط مرتزقـة للعمـل لـدى فلـول الإمامـة، وكانـوا بالعشـرات.

(3) ــ اليمن الثورة والحرب، سابق، 137.

المواقف الخارجية

الموقف في عدن

مدينة عدن كغيرها من المدن اليمنية التي ابتهجت فرحًا بهذا اليوم العظيم، وكان لها إسهاماتها الإيجابية مع الثوار الأحرار من وقت مبكر، من مطلع أربعينيات القرن الماضي، وقد احتضنت حزب الأحرار، فالجمعية اليمانية الكبرى، فالاتحاد اليمني، إضافة إلى بعض الأنشطة الأخرى التي كانت تخدم القضية الوطنية من خلال رموز الثورة الفارين من بطش النظام الإمامي في الشمال، وقد رأينا في الفصول السابقة كيف مثلت ملجأ آمنا لهم، ومنطلقا لنضالهم.

لخص المشهد العام يوم الثورة في عدن عبده حسين سليمان أدهل، في كتابه الاستقلال الضائع بقوله: «ما كاد راديو صنعاء يذيع نبأ قيام الثورة في اليمن ويحدد شكل العلم الجمهوري حتى رُفعت أعلامُ الجمهورية في عدن، في كل مكان، وعلى كل دكان ومنزل وشارع، وعلى وسائل النقل من سيارات وغيرها، وغطت أوجه العمارات بأعلام الجمهورية، ورُفعت صور الرئيس عبدالله السلال، إلى جانب صور الرئيس جمال عبدالناصر، وغصّت بناياتُ نقابة العمال في عدن بحشود المتطوعين للقتال في سبيل الثورة، وكانت تنقلهم سياراتُ النقل من الشوارع إلى مركز مؤتمر نقابات العمال بعدن، الكائنة بمدينة «المعلا»، ليُرسَلوا أفواجًا إلى تعز، وأصبح الشعبُ في الجنوب يتحدثُ عن قرب الوحدة اليمنية بعد قيام ثورة ٢٦ سبتمبر، وقد شارك أبناءُ الشطرين جنبًا إلى جنبٍ مع الأشقاء المصريين في تثبيت دعائم الثورة وقيام الجمهورية العربية اليمنية، واستُشهد العديدُ منهم في سبيلها..[1]

(1) ـ الاستقلال الضائع الملف المنسي لأحداث اليمن الجنوبية، عبده حسين سليمان أدهل، سابق، 175.

نعم.. حارب أبناء الشطر الجنوبي من الوطن في جبال خولان وآنس، وفي صعدة وسفيان وعمران، من منطلق الشعور الوطني، والإيمان باليمن الواحد، رغم محاولة بريطانيا صنع التجزئة بين الشطرين. كما كان الأمر تماما بعد تفجر ثورة ١٤ أكتوبر ١٩٦٣م وجد أبناءُ الشمال أنفسهم جنبًا إلى جنب مع إخوانهم في الجنوب، رغم أن جبهاتِ الثورة لا تزال مشتعلة في مختلف مناطق الشمال[1]، بين الثوار والرجعية الكهنوتية، ومع هذا كان همُّ الجنوب همًّا مُشتركا؛ بل وواحدا لدى الجميع منذ أول شرارة اندلعت في ردفان، وحتى الاستقلال.[2]، وكما قال البردوني: كانت جماهير الشطر الجنوبي كجماهير الشطر الشمالي في التجاوب الحار مع الثورة.[3]

الموقف البريطاني

وما تجدر الإشارة إليه هنا هو التضامن العجيب، وغير المتوقع من بعض الساسة، من قبل بريطانيا التي وقفت إلى جانب الإمامة بقوة، مساندين إياها بالمرتزقة من الخبراء العسكريين، وبعملائها في الداخل، من خلال تزويد الجيش الإمامي في ٢٥ أكتوبر ٦٢م بوسائل نقل وذخيرة وأسلحة حديثة من إمارة بيحان الحدودية التي كانت تحت سلطة الإنجليز، من سلطان بيحان يومها «الهبيلي»؛ وأيضا بالتعاون الاستخباراتي الذي سهل للإماميين قتل

(1) ــ بلغت جبهات المواجهة الجمهورية أكثر من أربعين جبهة في العام 64م، بعد أن جمع الإماميون فلولا من المرتزقة الأجانب للقتال بجانبهم، مدعومين بخبرات بريطانية وبضباط من جهاز السافاك الإيراني والموساد الإسرائيلي.

(2) ــ أخبرني المناضل علي السلال، نجل الرئيس عبدالله السلال، وكان قائدًا عسكريًا في ثورة السادس والعشرين من سبتمبر أن إخوة من الشطر الجنوبي كانوا تحت قيادته مقاتلين في خولان وآنس وغيرها من المناطق، وحين سمعوا بقيام ثورة 14 أكتوبر في الجنوب، قرروا العودة، وأرادوا اصطحاب أسلحتهم معهم، فرفض هو أولا، لكون السلاح عهدة عليهم، هو مللكٌ لثورة سبتمبر، وحين وصل خبر الاختلاف إلى الرئيس وجه بأن يعودوا بأسلحتهم التي تسلموها من قيادة سبتمبر، ليقاتلوا بها المحتل، القضية واحدة، ولا فرق بين شمال أو جنوب.

(3) ــ اليمن الجمهوري، 502.

بعض رموز الثورة؛ لاسيما وقد كان محمد بن الحسين يقيم في الجوف، ولا شك أنه كان على تواصل معه، ومن الجوف خطط لاغتيال الشهيد البطل علي محمد الأحمدي، أحد قيادة الاتحاد اليمني في عدن من الثوار الأحرار، وأول وزير للإعلام في الجمهورية العربية اليمنية، والذي رفض دخولَ مكتبه في صنعاء بتاتا حتى تنتصر الجمهورية، وتوجه إلى جبهات القتال ببندقيته في مارب، إلى جانب إخوانه المناضلين، واستشهد في منطقة ما بين مارب والبيضاء، ويُقال إن راديو لندن أذاع خبر مقتله قبل أن يعرف زملاؤه في صنعاء. كما قتلت الإمامة هناك أيضا القائد البطل علي عبدالمغني، أحد مهندسي الثورة الكبار على صغر سنه آنذاك.[1] وأيضا خطط لاغتيال أبي الأحرار محمد محمود الزبيري، في برط، في ١ مارس ١٩٦٥م.

وعلى الرغم من حرص الحكومة البريطانية على تأكيد أتباعها لسياسة عدم تدخل صارمة في الشؤون اليمنية فقد كان واضحًا، ابتداء من منتصف أكتوبر ٦٢م أن هناك دعمًا بريطانيًا فعالا، يتم بموافقة رسمية، وإن يكن على نحو حذر لتفادي المزيد من المضاعفات. وقد اتخذ هذا الدعم أساسًا شكل تقديم الأسلحة والذخائر والمعونة الفنية، في التخطيط والتنظيم والتدريب، وتشغيل الأجهزة للملكيين، وكانت قناةُ هذا الدعم الرئيسية تمرُّ من السلطات البريطانية في عدن، عبر شريف بيحان، بصفة خاصة إلى الملكيين، فضلا عن الروايات الخاصة بإمدادات يتلقاها الملكيون ليلا بالمظلات، من طائرات تقلع ليلا من قواعدها في الجنوب اليمني.[2]، وقد صوت مجلس

(1) ــ زار البرلماني البريطاني «المحافظ» نل ماكلين اليمن الإمام البدر إلى أحد جروفه المختبئ فيها، والتقى بعض أتباعه بعد فراره بأيام قليلة، وأبرق على الفور لرئيس الوزراء البريطاني آنذاك السير أليك دوجلاس بأن البدر لا يزال حيا، ولم يمت تحت الأنقاض كما أشيع عنه، وعاد إلى بريطانيا، يحمل نفس الرؤية التي حدسها من دوائر الاستخبارات البريطانية الضيقة، متحاملا على الجمهورية، وداعمًا للإماميين. ويذهب سمايلي في كتابه «مهمة في الجزيرة العربية» إلى العكس، وهو أنه الذي استطاع التأثير على الحكومة، في عدم الاعتراف بالجمهورية، وأيا يكن، فالموقف الرسمي لبريطانيا تأجل بالاعتراف بالجمهورية، بناء على تعليلات خاصة بها، تبدو بعضها منطقية وفقا لقواعد السياسية المتعارف عليها دوليا، لكن هذه القواعد لا تنطبق بأي حال من الأحوال على السياسة في اليمن، وربما حتى اليوم..!!

(2) ــ نفسه، 172.

العموم البريطاني في ١٣ نوفمبر ١٩٦٢م بعدم الاعتراف بالثورة.[1]

ويذكر ديفيد سمايلي ــ وهو أحدُ الضباط البريطانيين المرتزقة والمدرب في الجيش الإمامي ــ أن أحمد محمد الشامي وزير خارجية الإمام حينها «عقب قيام الثورة» قد التقاه في لندن، وقدم له تأشيرة الدخول إلى اليمن، مصحوبة بكل الاحترام والتقدير منه، ومن أخيه السفير عبدالوهاب.[2]، وفي اليمن قضى فترة طويلة لتدريب جنود مليشيات الإمامة «الثورة المضادة» في الوديان والجبال، حتى أنهى مهمته، وكتب مذكراته بكل تفاصيلها، وهي مهمة في هذا الجانب.

الموقف الأمريكي

قامت ثورة ٢٦ سبتمبر ٦٢م والعالَم منقسم بين قطبين رئيسيين يتحكمان بمجريات السياسة على مستوى أغلب دول العالم، وهما المعسكر الغربي الذي يتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية والتي كان نجمها يبدأ بالسطوع آنذاك، والثاني المعسكر الشرقي ويتزعمه الاتحاد السوفيتي، والذي كان يعيش أوج قوته، ونادرا ما شذت دول عن خارج هذين القطبين فلم ترتبط بهما؛ ذلك لأن الخيارات السياسية في غالبها لم تكن تتجاوز هذين الخيارين لتأثيرهما الكبير عالميا. وقد كانت اليمن الشمالية قبل ثورة ٢٦ سبتمبر ٦٢م، في العهد الإمامي متأرجحة التحالف أو التبعية بين المعسكرين: الشرقي تارة، والغربي تارة أخرى، فأما اتصالها بالغرب فعن طريق ما سمي ببرنامج «النقطة الرابعة» Point Four Program)) وهو برنامج مساعدات تقنية أمريكي، مخصص للدول النامية، لاسيما لدول آسيا وأفريقيا وأميركا

(1) ــ الدور المصري في اليمن، د. أحمد يوسف أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981م، 172. وانظر أيضا مهمة في الجزيرة العربية، ديفيد سمايلي، 24.

(2) ــ مهمة في الجزيرة العربية، سابق، 26.

اللاتينية. أُعلن عن البرنامج لأول مرة في خطاب الرئيس الأمريكي هاري ترومان في ٢٠ يناير ١٩٤٩م، بمناسبة توليه منصب الرئاسة لفترة رئاسية ثانية؛ إذ تحدث الخطابُ عن الأهداف الأربعة لسياسة الخارجية الأمريكية، وقد أُقر البرنامجُ من قبل الكونغرس الأمريكي في ٥ يونيو ١٩٥٠م، وخُصص له مبلغ ٢٥ مليون دولار أمريكي للسنة المالية ١٩٥٠ــ ١٩٥١م، كما شُكلت لجنة في وزارة الخارجية الأمريكية تحت اسم مجموعة المساعدات التقنية، أشرفت على البرنامج اليمني، وهو جزء من برنامجها الكبير المذكور آنفًا؛ وقد كان مقر البرنامج في تعز، وتم اتهام العناصر الأمريكية العاملة فيه في ديسمبر ١٩٦٦م من قبل النظام الجمهوري الجديد بالتخابر مع الملكيين ودعمهم سرًا بالأسلحة، والتجسس على الجمهوريين، فتم اعتقالُ عددٍ من موظفيه، والإعلان عن إنهاء العمل بالاتفاقية المبرمة عام ١٩٥٩م، مع وكالة التنمية الأمريكية التي تُعتبر الغطاءَ السياسي للبرنامج، وسحب الترخيص لطائرة البرنامج، وإبعاد العناصر المخربة من موظفي البرنامج، وبالمقابل فقد قطعت أمريكا المساعدات السنوية لليمن البالغة ثلاثة ملايين دولار. كما لوحت بسحب الاعتراف بالجمهورية، كما ذكر ذلك الدكتور الشهاري.[1]

وأما اتصالها بالشرق فعن طريق ما عرف بالجناح البدري آخر الخمسينيات وعلاقته بعبدالناصر، مقابل جناح الحسنيين ــ نسبة إلى الأمير الحسن عم الإمام البدر ــ المناوئ له، والغربي التوجه.

وحسب المؤرخ اليمني حيدر علي ناجي: «فبعد أن ساءت العلاقة بين مصر والمملكة عام ٥٧م سمح الإمام أحمد لابنه البدر التقرب إلى عبد الناصر الذي قدمه بدوره للمعسكر الشرقي، فزار معظم دوله، وحصل على صفقة السلاح الروسية وبنى ميناء الحديدة وطريق الحديدة ـ تعز على نفقة الاتحاد السوفيتي، كما أسس مصنع الغزل والنسيج وطريق الحديدة ـ صنعاء على حساب الصين، وفي نفس الوقت سمح لأخيه الحسن بالتقارب مع المملكة

(1) ــ انظر: نظرة في بعض قضايا الثورة اليمنية، د. محمد علي الشهاري، مكتبة مدبولي، ط:1، 1990م، ص: 74.

العربية السعودية والمعسكر الغربي، وحصل على مشاريع النقطة الرابعة، ومن ثم تكون في اليمن تياران كما أسلفنا، واستمر التنافس بينهما حتى قيام الثورة».[1]

أما الشطر الجنوبي من الوطن فقد كان شرقيَّ الهوى والمهوى، ومناوئا ـ كل المناوءة ـ للحلف الغربي حد التطرف.. وبعد قيام الثورة اقتربت الجمهورية العربية اليمنية من المعسكر الشرقي أكثر، من خلال مصر عبدالناصر الشرقي الولاء والسند الأول للثورة؛ لكن هذا الاقتراب لم يحمل بين ثناياه ملامح القطيعة مع المعسكر الغربي، كما هو الشأن مع سلطة الشطر الجنوبي من الوطن التي كانت حدية التعامل ولحدِّيَّة وصلابة الأيديولوجية الشرقية نفسها التي تختلف عن برجماتية الغرب ومرونته؛ ونتيجة لهذا التضاد في سياسة القطبين فقد كان كلٌ منهما يغرّب حيث يشرّق الآخر، والعكس أيضا صحيح، ولم يكونا يلتقيان؛ لأن لكلٍ مصالحه الخاصة وتفكيره المناقض للآخر؛ لكن ما الذي جعل أمريكا تعترف بثورة ٢٦ سبتمبر ٦٢م المدعومة شرقيا في ١٩ ديسمبر ٦٢م؟ أي بعد أقل من ثلاثة أشهر على قيامها؟!! ما دوافع هذا الاعتراف؟ خاصة وقد سبقها إلى ذلك كل من الاتحاد السوفيتي بعد يومين على قيام الثورة؟ معلنا تقديمه المساعدات للثورة وللنظام الجديد، وإن كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد أرفقت اعترافها بالثورة دعوة تشبه الشرط في ألا تتدخل القوات المصرية في الشأن اليمني، وألا تُمس المصالح السعودية بسوء.

وقد اعترف بالثورة في أيامها الأولى إلى جانب الاتحاد السوفيتي ومصر أيضا كل من: دولة الكويت ولبنان وسوريا والعراق والسودان والجزائر وتونس،[2] وفي الشطر الجنوبي من الوطن جماعة القوى التقدمية العدنية التي شاركت ثوار الشمال أيضا نضالهم. كما اعترفت بها أيضا منظمة الأمم المتحدة، بناء على طلب من مصر.

(1) ـ حيدر علي ناجي، صحيفة الجمهورية، بتاريخ 27/9/ 2012م.

(2) ـ التطور السياسي للجمهورية العربية اليمنية، 26.

كتب الضابط المرتزق في صفوف الجيش الإمامي مطلع الستينيات «ديفيد سمايلي» في كتابه «مهمة في الجزيرة العربية» يقول: «وسارعت الأمم المتحدة والولايات المتحدة معا في الاعتراف بالحكومة الجمهورية، وكان قرار الأمم المتحدة نتيجة لاقتراح تقدمت به مصر، وأيدته الدول الشيوعية والكتلة الأفروأسيوية، وجاء اعتراف الولايات المتحدة في ١٩ ديسمبر ١٩٦٢م، ولا تزال دوافعه غامضة..»[1] وهو نفس اليوم الذي تم فيه اعتراف الأمم المتحدة بنظام الجمهورية العربية اليمنية، كما أشار إلى ذلك محسن العيني في مذكراته «خمسون عاما في الرمال المتحركة».[2]

وذكر سمايلي أن الولايات المتحدة حاولت الضغط على بريطانيا للاعتراف بالجمهورية العربية اليمنية، على الرغم من أن النظام الجديد ـ وفقا لسمايلي ـ جاء إلى السلطة بانقلاب، وكان يسيطر فقط على نصف السكان وعلى أقل من نصف مساحة البلاد، وقد ناقشته الخارجية البريطانية بجدية، وكادت تعترف بالجمهورية وبالنظام الجديد لولا تدخل البرلماني البريطاني «بيلي ماكلين» الذي كان في زيارة لليمن حينها، والتقى الإمام البدر وأتباعه، وهو من أقنع البريطانيين أن الإمام البدر لم يتم القضاء عليه تحت الأنقاض كما أذاع راديو الجمهورية العربية اليمنية، وتناقلته مختلف وسائل الإعلام العالمية، ولم يتثبتوا من صحة ذلك، وشكل صدمة كبيرة للثوار وأنصارهم بعد ذلك. فهذا ـ وفقا لسمايلي ـ ما أجّل اعتراف بريطانيا بالجمهورية، وأبقت علاقتها السابقة بالقيادات الملكية؛ بل لقد أعلنت في فبراير ١٩٦٣ عدم الاعتراف بالنظام الجمهورى، وقدمت مساعدات عسكرية للإمام البدر خلال فترة مقاومته للنظام الجديد، خاصة في سنواته الأولى، كما ذكرت صحيفة اليوم السابع المصرية في ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٨م. ووفقا للديبلوماسية والكاتبة الروسية «جلوبوفسكايا إيلينا»: فإن بريطانيا قد جعلت من «بيحان» في شبوة مركز

(1) ـ مهمة في الجزيرة العربية، ديفيد سمايلي سابق، ص: 19.

(2) ـ انظر: خمسون عاما في الرمال المتحركة قصتي مع بناء الدولة الحديثة في اليمن، محسن العيني، دار النهار للنشر، بيروت، ط:1، 199م، ص: 60.

دعم للملكيين ونقطة تجمع لأنصارهم.[1] وقد أمضى الإمام البدر وكثير من أتباعه سنواته المتأخرة في بريطانيا حتى توفي فيها في ٦ أغسطس ١٩٩٦م.

وقد أورد سمايلي تحليلا منطقيا منسوبا للجنرال السويدي «فون فورد» الذي تولى قيادة قوات المراقبة التابعة للأمم المتحدة في اليمن، إذ ذكر أن اعتراف الولايات المتحدة بالجمهورية العربية اليمنية يهدف في مغزاه البعيد إلى إخراج البريطانيين من جنوب الجزيرة العربية، ويتصل بالرغبة في توسيع المصالح الأمريكية النفطية الخاصة في شبه الجزيرة العربية؛ لاسيما وأن للولايات المتحدة هدفا متأصلا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، يتمثل في السيطرة على جنوب الجزيرة العربية، لمواجهة النفوذ البريطاني، ولاعتراض خط التعاون الذي كان قد بدأ بين البريطانيين والاتحاد السوفيتي سابقا، وفقا للدكتور محمد علي الشهاري في كتابه نظرة في بعض قضايا الثورة اليمنية.[2] ويضيف الدكتور أحمد يوسف أحمد في كتابه: الدور المصري في اليمن أن السياسة الأمريكية تجاه ثورة اليمن قد تحددت بعاملين أساسيين: أولهما المصالح الأمريكية المتضمنة في الصراع اليمني، وثانيهما السياسة الأمريكية في عهد الرئيس كنيدي الذي تولى الحكم في يناير ١٩٦١م.[3]

موقف الكيان الصهيوني

لا شك أن موقف الكيان الصهيوني الداعم للملكيين كان تبعا لموقف البريطانيين، خاصة وأن بريطانيا يومها كانت تمثل الوصي الأمين على الكيان

(1) ـ التطور السياسي للجمهورية العربية اليمنية، سابق، 29.

(2) ـ نظرة في بعض قضايا الثورة اليمنية، ص: 69.

(3) ـ الدور المصري في اليمن، د. أحمد يوسف أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981م، 173. وكان كنيدي ـ كما يقول الباحث ـ قد أتى إلى الحكم برؤية جديدة للسياسة الأمريكية، داخليا وخارجيا، أراد بها إدخال تغييرات جذرية على هذه السياسة.. وقد انطلق كنيدي ومساعدوه من أن تأييد الوطنيين غير الشيوعيين قد يكون أفضل لتحقيق المصالح الأمريكية من تأييد النظم المحافظة التي لا تتصف بالكفاءة.

الصهيوني الناشئ يومها. زادته الأيام تأكيدا حين كتب المؤرخ والمحلل السياسي المصري محمد حسنين هيكل أن إسرائيل قامت بإعطاء شحنات من الأسلحة للإماميين، كما أقامت اتصالاتٍ مع المئات من المرتزقة الأوروبيين الذين يقاتلون بجانب الملكيين في اليمن. وقامت إسرائيل بإنشاء جسر جوي سري بين جيبوتي وشمال اليمن. وأعطت الحرب الفرصة للإسرائيليين لمراقبة وتقييم التكتيكات الحربية المصرية وقدرتها على التكيف مع ظروف المعارك. بعد ثلاثة عقود من الحرب، وأكد الإسرائيليون كلام هيكل نفسه.

وقد توجه جيم جونسون، زعيم المرتزقة الأوروبيين إلى طهران ليقنع الإيرانيين ـ تحت حكم الشاه وقتها ـ للقيام بإسقاط جوي، فنجحت الجهود بعد سفر مستشار المرتزقة نيل بيلي مكلين إلى تل أبيب، ولقاء موشي ديان وأميت مائير، رئيس الموساد، وشهد الإسقاط الجوي الأول للأسلحة الكولونيل جوني كوبر والتي كانت ١٨٠ بندقية، و ٣٤ ألف طلقة ماوزر و ٧٢ قذيفة مضادة للدبابات و ٦٨ كيلو من المتفجرات البلاستيكية. وقد أخفى الإسرائيليون مصدر الأسلحة، فكانت الطائرات الإسرائيلية تحلق على طول السواحل ... تلقي الأسلحة في اليمن وتتزود بالوقود في الصومال وجيبوتي وتعود إلى إسرائيل، وأسمى الإسرائيليون عملياتهم Operation Porcupine. واستمرت الطائرات الإسرائيلية بتزويد المرتزقة الأوروبيين والملكيين بالأسلحة لمدة سنتين.[1]

ووفقا لليوم السابع المصرية بتاريخ ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٨م، فإن "شابتاى شافيت" رئيس جهاز المخابرات الإسرائيلية "الموساد" أدلى بحديث لصحيفة هآرتس الإسرائيلية فى ٢١ فبراير ٢٠٠٠ قائلاً: إن إسرائيل لها دور كبير في توريط مصر في حرب اليمن، لإضعاف قدرتها الاقتصادية والعسكرية، كما أنه أصدر أوامره لضباط «الموساد» بمعاونة قوات الإمام البدر الملكية

(1) ــ انظر: https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AB%D9%88%D8%B1%D8%A9_26_%D8%B3%D8%A8%D8%AA%D9%85%D8%A8%D8%B1_%D8%A7%D9%84%D9%8A%D9%85%D9%86%D9%8A%D8%A9

حتى يستعيد حكمه الذى أطاح به الثوار عام ١٩٦٢م، وأرسل عسكريين إسرائيليين لتدريب قوات الإمام، وللتعرف على القوات المصرية عن قرب، وهذا التصريح هو ما يجعل الدخول في هذه الحرب لا ينفصل عن هزيمة ٦٧م؛ بل من الممكن اعتبار المعركتين اللتين دخلهما الجندي المصري في اليمن وسيناء معركة واحدة متعددة الهزائم.

ثورية 26 سبتمبر لا انقلابيتها

يحاول البعض التشكيك بثورية ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م، مسميًا إياها «انقلاب» من أجل سلبها شرعيتها الشعبية، وهو تحاذق مكشوف ينم عن جهل مركب في عدم التفريق بين الثورة والانقلاب. مع أن هؤلاء قلة قليلة، والأصل عدم الالتفات إلى ما يقولون، لمعرفتنا أساسًا بمواقفهم المسبقة. والحق أن هؤلاء وأتباعهم لم يؤمنوا بشرعية أبي بكر الصديق ولا عمر بن الخطاب، ولا بشرعية خلفاء بني أمية ولا العباس من بعدهم، ولم يعترفوا أساسا بشرعية الأنظمة القائمة اليوم جميعها، سواء كانت ملكية أم جمهورية، وبالتالي فمن الطبيعي ألا يؤمنوا بشرعية ودستورية ٢٦ سبتمبر. ولو اجتمع الثقلان لإقناعهم بشرعية هذه الأنظمة، قديمِها وحديثِها لما اقتنعوا، لكونهم لا يؤمنون إلا بما تقرره نظريتهم الكهنوتية، «نظرية البطنين».

وكان الأصل أن نعرضَ عن هؤلاء، ولا نجادلهم، لمعرفتنا بمواقفهم المسبقة، وبنفسيتهم المتأزمة، ولنتركهم لأحقادهم وأضغانهم ولجهلهم بفلسفة الدول وشرعية الشعوب والأمم؛ لكن لما كان هناك بعض الجهلة من المُغَرّر بهم، ومن محدودي المعرفة والثقافة وجب الوقوف عند هذه الجزئية، وتوضيح حقيقتها.

وقبل الدخول في تفاصيل الحديث عن شرعية ٢٦ سبتمبر، يستوجب الأمر الوقوف عند التعريف الإجرائي لمعنى الانقلاب، ولمعنى الثورة في القواميس السياسية المعاصرة، ومن ثم العودة إلى الحديث عن ثورية سبتمبر.

في الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية

الانقلاب: Military coup

هو استيلاء العسكريين على السلطة الشرعية، بواسطة القوات المسلحة،

وتغيير نظام الحكم بالقوة، دون الرجوع للناخبين. والسلطة هنا هي الحكومة؛ أما ما يطيحُ بالدولة فيُسمى ثورة».[1]

الثورة: Revolution

مصطلح يُقصد به التحول الجذري في التكوينات الاجتماعية والسياسية والنظام العام، وفي العلاقات والخبرات المتبادلة بين الناس. وقد يُقصد به التغير الدائري الذي يكشف عن أنماطٍ جديدة. والثورة مصطلح يقصد به الآن مقاومة نظام الملكية ذاته، وليس مجرد التمرد والعصيان. وهناك الثورة الجماهيرية، والثورة الشعبية، والثورة الطبقية.[2]

وقبل الدخول في الحديث عن ثورية ٢٦ سبتمبر، بناء على ما سبق، نتساءل أولا:

ما نمط الحكم الذي كان سائدا قبل ٢٦ سبتمبر؟

هل هو ملكي؟

هل هو جمهوري؟

هل هو أميري/ سلطاني؟

هل ديكتاتوري؟

هل هو غير ذلك؟

الواقع هو غير ذلك كله، ولا علاقة له بما ذُكر البتة؛ بل لا يصح لنا إضافة مصطلح «نظام» إلى حكم الإمامة مطلقًا إلا من قبيل المجاز فقط؛ لأنه لا علاقة له بالنظام، ولا التنظيمية، ولا الأنظمة. إنه حكم طغياني، موغل في طغيانيته وكهنوتيته. هذا كل ما في الأمر.

للأنظمة الجمهورية دساتيرها وقوانينها التي ترى في الرئيس مجرد موظف في خدمة الشعب، ولا يستطيع التصرف أو اتخاذ أي قرار إلا بموجب اللوائح والقوانين. ونموذجه الأول في أوروبا فرنسا، وأيضا الولايات المتحدة الأمريكية والصين وغيرها.

---

(1) – الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، عربي، إنجليزي، د. إسماعيل عبدالفتاح عبدالكافي، د. د. 64.

(2) – نفسه، 140.

وللأنظمة الملكية كذلك مرجعياتها، سواء الدستورية، كبريطانيا والأردن، أو مرجعياتها اللائحية التي تستند إليها، وتنظم شؤون الدولة، ولا يستطيع أي مسؤول تجاوزها، وعادة ما تخضع هذه الأنظمة الملكية لشعوبها وتتعامل بدلال ورقة، موفرة لها الرفاه الاجتماعي والعيش الكريم، بحيث يعيش المواطن كما يعيش الملك أو قريبا منه. ويعتبر الملك فيها مرجعية الدولة، لكونه يحظى باحترام كبير لدى الأمة. «المملكة العربية السعودية أنموذجا».

وللأنظمة الأميرية والسلطانية أنظمتها القريبة من هذين النظامين.

كذلك الشأن مع النظام الديكتاتوري الصارم الذي يتعامل مع المخالفين للنظام بقسوة مفرطة، ويقمع الحريات العامة؛ إذ يجن جنون المستبد إذا ما تم احترام النظام أو الاعتداء على القانون، وكل ذلك من أجل بناء الدولة الجامعة، هتلر أنموذجًا.

إنَّ ٢٦ سبتمبر ثورة شعبية، شاركت فيها كل جماهير الشعب اليمني، بمختلف تكويناتهم، الاجتماعية والثقافية والعسكرية والسياسية. سبقتها عدةُ محاولاتٍ نضالية، للتخلص من حكم الكهنوت الإمامي، ما بين ثورة وانقلاب وحركة وانتفاضة.

ثورة ٢٦ سبتمبر أطاحت بما يسمى دولة الإمامة، إذا ما تعاطينا مع حرفية المصطلح السياسي المذكور آنفًا، رافقه تحولٌ جذريٌ شاملٌ في مختلفِ مناحي الحياة، وفي التعاملات والثقافة والاتصال الاجتماعي والسياسي، وكأنَّ اليمنيين خُلقوا خلقًا جديدًا بعد ذلك اليوم الذي جللوه وعززوه واحتفلوا لما يزيد عن خمسين عامًا، ولرسوخه العميق في الوسط الاجتماعي والسياسي لم تستطع جماعة الحوثي إلغاء الاحتفال بهذا اليوم، أو مضايقة من يحتفل به، على الرغم مما يسببه لها من وجع سياسي كبير، لأنها تعرف أنها ستفتح لنفسها جبهة في كل بيت، بل إن بعض رموزها يتقرب إلى المزاج الشعب بالتظاهر بحب يوم ٢٦ سبتمبر؛ «لأنها تدفقت من كل عناصر الواقع، تعبيرًا عنه، واستجابة لتغييره؛ لهذا يصعب على أي فريق أن يتجاوز دائرة ثورة سبتمبر، وإنما ينطلق منها

حتى إلى ضدها، وذلك لأنها حقيقة تناسجت منها حقائق، تلو حقائق..».[1]

وقد يقول قائل: كان العسكرُ على رأس الحدث..

نقول: نعم، كانوا على قمة الحدث، كرأسِ حربة، تقدموا العملية، مسنودين برموز النخبة الثقافية والسياسية، وبرجالات القبائل المستنيرين، والعامة من الناس، كما مثّل التجارُ أيضًا عصب هذه العملية من خلال تبرعاتهم المالية التي ابتدأت من مطلع أربعينيات القرن الماضي، وخاصة تجار اليمن في الحبشة، كما سنرى ذلك مفصلا. هذا أولا.

وكما يقول البردوني عن ٢٦ سبتمبر: «فالثورة هي إرادة الشعب، نفذها بعض أبنائه، وتعسكر تحت رايتها كل أبنائه».[2]

ثانيا: ألم تكن ثورة يوليو المصرية عسكرية خالصة؟ لقد كانت ثورة «ضُباطية» بالمقام الأول، أكثر بكثير من «ضباطية» ثورة ٢٦ سبتمبر، ساندها الشعب بعد ذلك، فاكتسبت الصبغة الثورية. مثل يوليو المصرية، ثورة الفاتح من سبتمبر الليبية، سنة ١٩٦٩م بقيادة الملازم أول معمر القذافي وزملائه الضباط، ضد الملك محمد بن إدريس السنوسي، ومثل هذه أيضا ثورة يوليو/ تموز العراقية سنة ١٩٥٨م ضد العرش الهاشمي هناك بقيادة العقيد عبدالكريم قاسم والعقيد عبدالسلام عارف.

ثالثا: لكل ثورة من ثورات العالم القديمة والحديثة طلائعها النوعية والفئوية التي تتصدر الحدث في البداية فتتفجر بعدها جموع الشعب سيولا هادرة، من كل منحدر، ملتفة حولها، ومساندة إياها. وقد قرأنا في التاريخ الإسلامي عن ثورةِ القُرّاء، بقيادة عبدالرحمن الأشعث في العصر الأموي، على رأس جيش قبلي من أربعين ألفًا، سُمي جيشُ الطواويس، سنة ٨٥ هـ، والتي قُتل فيها سعيد بن جبير، مستهدفة الدولة القائمة آنذاك، والتي لم

(1) ـ الثقافة والثورة في اليمن، 62.

(2) - الثقافة والثورة في اليمن، 65.

تنجح. ثم ثورة ما عرف بثورة الفقهاء، أو المحدثين في العصر العباسي، بقيادة أحمد بن نصر الخزاعي، ضد الخليفة الواثق، سنة ٢٠١هـ، إبان الصراع بين المعتزلة وأهل الحديث، ثم ثورة «الزنج» التي كانت طلائعها من الأفارقة العبيد والفلاحين في العصر العباسي، في بغداد، سنة ٢٥٥هـ، وقرأنا عن ثورة سبارتاكوس قبل هذه الثورات في روما، سنة ١١١ ق. م؛ إذ تصدر العبيدُ هذه الثورة، بقيادة زعيمهم هذا، وسميت الثورة بأحد العبيد سبارتاكوس، مُصارع الوحش..!

رابعا: ألم يكن الجند أول المنضمين إلى الثورة الفرنسية، وهي الثورة التي لقبت ثورتها بأم الثورات؟! ليس ذلك فحسب؛ بل لقد برز دور الجيش بصورة ملفتة عقب قيام الثورة وظهور المؤامرات عليها من قبل الامبراطوريات الأوربية القائمة آنذاك، وخاصة إنجلترا وبروسيا والنمسا، وجميعها أرادت محو الجمهورية الوليدة والقضاء عليها، لولا أن الجيش استبسل في ذلك وقدم خلال العشر السنوات اللاحقة للثورة ما يقارب ٧٠٠ قتيل، من الشباب الذين دافعوا عن جمهوريتهم وثبتوها. وبهذا أصحبت الثورة عند الفرنسيين عقيدة كبرى، متشبعين بمبادئها الثورية التي آمنوا بها، وفي هذا قال جوستاف لوبون: إنّ حماسةَ مؤسسي الثورة الفرنسية تعدلُ حماسة ناشري دين محمد.[1]، وتقريبا كانت هذه هي الحال مع ثورة ٢٦ سبتمبر التي افتقدت إلى «روبسبير» فقط.

للثورات منطقها الخاص، ولها سياستها الجارفة، لأنها سيول من البشر تجرف رُكاماتِ الطغيان المتكوم، كما فعلت الثورةُ الفرنسية التي رفعت شعار: «اشنقوا آخرَ ملكٍ بأمعاءِ آخرِ قسّيس». وكانوا يتحسسون الأيادي الناعمة لقطعها؛ لأنها دليل ثراء سابق. وكما فعلت الثورة البلشفية في روسيا ضد القياصرة، خاصة في العهد الستاليني، وكان سر نجاحهما يكمن في القضاء

(1) ــ روح الثورات والثورة الفرنسية، جوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 59.

على أعدائهما. وما لم تكن الثورات حاسمة وحادة تجاه خصومها كانت إلى الفشل أقرب.

كانت ثورة ٢٦ سبتمبر أعدل ثورة إنسانية، من حيث مبرراتها التي قامت على أساسها، ومن حيث تعاملها مع أعدائها. وكل من تمت محاكمتهم وإعدامهم بعد الثورة ٣٧ شخصا فقط، أغلب هؤلاء كانوا متورطين في عمليات قتل وانتهاكات، سواء بحق الثوار، أم بحق غيرهم من قبل. تسامحت ــ حد السذاجة ــ مع أعدائها التاريخيين، رغم الجنايات التاريخية التي اقترفها هؤلاء الطغاة بحق الشعب. ولهذا كانت الموجة الارتدادية التي حدثت في ٢١ سبتمبر ٢٠١٤م، والتي لم تكن إلا النتيجة النهائية والإعلان الأخير لما اعتمل تحت السطح من المكائد والمؤامرات داخل أجهزة الصف الجمهوري الذي نخروا فيه من وقت مبكر، متظاهرين بولائهم للجمهورية وللدولة، في الوقت الذي لم تتنبه لهم أجهزة الدولة الرسمية، والوطنيون الشرفاء، بل ربما حملوهم على حسن ظن؛ لاسيما وأن هذه الجماعة العنصرية كانت أول المستفيدين من خيرات الجمهورية وثمارها، لأن المناضلين الأحرار لم يتخذوا منهم موقفا حديا صارما من وقت مبكر، كما يحصل مع بقية الثورات في كل البلدان.

كانت الثورة في ٢٦ سبتمبر تعبيرًا أقوى وأعقل من كل الانتفاضات والحركات الشعبية السابقة، أقوى لأنها استمدت هذه القوة من موقف الغالبية العظمى، من أبناء اليمن شمالا وجنوبًا، فكانت الجماهير المتعطشة للحرية زادها ووقودها. هذه المرة وقف سكان المدن والأرياف إلى جانب الثورة، مثقفون وجنود وقبائل وفلاحون وعمال وطلبة وتجار. كانت الثورة وسقوط الإمامة بالنسبة لهذه القوى مجتمعة الحلم والمخرج والوسيلة للنفاذ إلى الحضارة المعاصرة، فوقفوا منذ اليوم يسندونها، ويدافعون عنها، حتى تمكنت جذورها من الأرض، وسمت أغصانُها في السماء. وكانت الثورة أعقل، لأن برنامجها الذي دعت إليه كان واضحًا ومقبولا ومُعبّرا.. وكانت

الثورة أكثر نضجًا، لأنها لم تقع في أخطاء الحركة الوطنية السابقة..[1]

ويرسم لنا البردوني هنا خارطة سياسية عن أبرز التنظيمات السياسية القائمة حينها، والتي تماهت مع الثورة، ومع الجمهورية، إذ يذكر أن هذه التنظيمات قدمت تأييدها للثورة، موقعة بأسماء زعمائها، فتبين أن في العسكريين الثوار أكثر من انتماء إلى أكثر من تنظيم، فتبدى عبدالله جزيلان ممثلا للاتحاد الشعبي الثوري، كما تبدى صالح الأشول وعلي قاسم المؤيد وأحمد الرحومي ممثلين للبعث، وظهر عبدالسلام صبرة ومحمد الفسيل وحسن العمري وعلي محمد الأحمدي[2] كامتداد للاتحاد اليمني بالقاهرة، وعبدالله عبدالسلام صبرة ومحمد الأكوع، مؤذن الجامع الكبير ومحمد عبدالولي من الجبهة الشعبية. وظلت الأنظمة بممثليها في القيادة العسكرية متعاونة وغير متصارعة مع أشباهها ونقائضها من التنظيمات، وذلك لأن الثورة خرجت من إسقاط الملكية حُكمًا بصنعاء، إلى قتال الملكيين في أكثر من منطقة..[3]

وهاشميون.. أيضا

ما تستوجبُه الوقفة هنا ــ والحق يُقال ــ أنَّ ثورة ٢٦ سبتمبر قد ضمّت بين صفوفها من الهاشميين عناصرَ ثورية وطنية، لعبت أدوارًا نضالية رائدة، بحقٍ وحقيقة، ولا يستطيع أحدٌ نكران جهودها، أو جحود أدوارها، مهما جنى بنو عمومتهم على الشعب. كانوا صادقين في معارضتهم السياسية، وكانوا أنقياء في مواقفهم الثورية، وبعضهم سال دمه، فداء لعدالة القضية وشرف الموقف، وأول هؤلاء السيف إبراهيم، نجل الإمام يحيى، الذي غادر القصر، بما يضفيه عليه القصرُ من امتيازات مادية ومعنوية، واختار الانضواء

(1) ــ اليمن تحت حكم الإمام أحمد، سابق، 563.

(2) ــ ذكره البردوني في كتابه باسم علي أحمد الأحمدي، والصحيح علي محمد الأحمدي، وهو أول وزير إعلام للجمهورية بعد الثورة. وقد استشهد بعدها بأيام قليلة.

(3) ــ الثقافة والثورة في اليمن، 276.

في صفوف الأحرار، على شظف العيش والمجازفة بالحياة، وغيره كثير. وكان هؤلاء على قدر من الاطمئنان لعدالة الثورة، التي لم تستهدف عرقًا بعينه، أو جماعة بذاتها. وإن كان هناك خونة ومتآمرون عليها، سواء من الهاشميين أم من غيرهم. نسجلُ هذه الشهادة احترامًا لتلك الدماء التي سالت، واعترافًا بالحقيقة التي لا مناص من الاعتراف بها.

مصر وثورة اليمن.. خلود النضال وشرف الموقف

لن نغوصَ في تفاصيل العلاقات اليمنية المصرية، والتي ترجع إلى التاريخ القديم، إبان الحضارة السبئية والمعينية، مع الحضارة الفرعونية سابقًا، ولن نتوقف هنا حتى عند علاقة مصر بثورة ٤٨م الدستورية من خلال جماعة الإخوان المسلمين، فقد تكلمنا عن ذلك سابقًا ببعض التفصيل. وسنتكلم هنا عن الدور المصري في اليمن من خلا مصر عبدالناصر منذ ثورة يوليو المصرية حتى بعد قيام ثورة سبتمبر اليمنية.

ثورة يوليو المصرية

لا يخفى على البعض أهمية ثورة يوليو المصرية ١٩٥٢م، ليس على مستوى اليمن فحسب؛ بل على مستوى المنطقة العربية كلها، فثورة يوليو ٥٢م بقدر ما كانت مصرية الشأن كانت أيضا عربية التوجه والاهتمام، ومثلت الثورة الأم لكل ما جاء بعدها من الثورات العربية الأخرى في الجزائر والعراق واليمن وليبيا. وقد دعمها المعسكر الشرقي، في إطار صراعات الحرب الباردة يومها بين القطبين العالميين أمريكا والاتحاد السوفيتي.

وكانت هذه الثورة بأدبياتها السياسية وروحها الشبابية هي الملهم الأساس للشباب اليمني خاصة ممن عرفوا مصر عبدالناصر وتأثروا بها وبأجواء القاهرة يومها التي كانت أجمل من بعض العواصم الأوربية مدنية وثقافة. هذا على سبيل الإجمال؛ أما تفصيلا، فلم تحظ ثورة عربية باهتمام مصر كما حظيت اليمن، وكادت أن تكون القضية الثانية لمصر حتى سنة المصالحة عام ٧٠م. فمن أول يوم لثورة يوليو احتضنت القاهرة الثوارَ المناوئين للإمامة

داعمة إياهم ماديا ومعنويا، فمثلا استطاع الزبيري العودة من باكستان التي فر إليها عقب فشل ثورة الدستور والاستقرار في القاهرة، وفيها انضم حوله ثلة من الشباب المستنيرين وأسس الاتحاد اليمني؛ كما كان من أبرز الأصوات الثورية في إذاعة صوت العرب، ومنها بث خطبه الثورية وقصائدة الشعرية الملتهبة؛ بل لقد شكلت إذاعة صوت العرب من القاهرة مدرسة نضالية إلهامية لثوار الداخل، وكان صوت الزبيري يقض مضاجع الإمام في صنعاء أو تعز. وكان المعارضون هناك موضع اهتمام عبدالناصر ورعايته حتى قامت الثورة.

يقول الباحث ادجار اوبلانس عن تأثيرات مصر في مرحلة ما قبل الثورة: فإن برنامج راديو «صوت العرب» الذي يُذاع من القاهرة قد ملك مشاعر العرب في كل مكان داخل اليمن، لا لشيء إلا لأن أجهزة عبدالناصر الدعائية كانت أولا مقتدرة، وذات خبرة في آن واحد، وثانيًا لأنه لم يكن هناك بديل منافس. كما ساعد المصريون العاملون في البلاد كمدربين عسكريين ومدرسين وأطباء بمهارة وخدمة في نشر أفكار عبدالناصر، وتحت إلحاح ولي العهد سمح الإمام لبعض المدرسين المصريين في اليمن بالقيام بافتتاح عدد قليل من المدارس المدنية الحديثة، ولتقديم تعليم متقدم لأبناء العائلات الميسورة. وقد تزايدت أعدادهم خلال فترة غياب الإمام في إيطاليا. وكان لذلك تأثيره العميق على العقليات الشابة القلقة، والقابلة للتأثر بالتغيير في اليمن.[1]

ويقول اللواء عبدالله جزيلان عن ثورة يوليو المصرية: إن نجاح ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م في مصر أعطانا آمالا واسعة وعميقة في اليمن، لما حققته من انتصارات هائلة؛ حيث خاضت معارك ضد الإقطاع والاستغلال والاستعمار، وأنجزت كثيرًا من الأعمال الداخلية والخارجية، مما جعل الشعب العربي في كل مكان ينظر إلى تلك الثورة وكأنها ثورته. وكان هذا الإحساسُ موجودًا

(1) ــ اليمن الثورة والحرب، ادجار اوبلانس، 112. وقد أمر الإمام بإغلاق هذه المدارس الحديثة قبيل موته بأسابيع.

عند كل يمني، مما جعل احتمال قيام ثورة ناجحة في اليمن مشجعًا لكل ثائر.[1]

ومع تنظيم الضباط الأحرار الذي كان قد تشكل في ديسمبر ١٩٦١م كان علي عبدالمغني دينامو تنظيم الضُّباط الأحرار، ومن أكثر الأعضَاء ثقافة ونباهة ونشاطا، متأثرًا إلى حد كبير بأستاذه نبيل الوقاد، فتواصل مع السّفارة المصرية سرًا، عارضًا برنامج تنظيم الضباط على السفارة، طالبًا دعم جمهورية مصر العربية للتنظيم في مهمته التاريخية القادمة، وبعد أخذ ورد، واستفساراتٍ بين القيادة المصرية من جهة، والتنظيم الذي يمثله أمام السفارة المصرية علي عبدالمغني جاء الرد من الزعيم جمال عبدالناصر عبر السفارة: «نفذوا وسأفي بكل التزاماتي».[2]

وكانت أول دولة تعترف بالجمهورية العربية اليمنية هي الاتحاد السوفيتي، وذلك في الثامن والعشرين منه، أي بعد الثورة بيومين، تلتها مصر في ٢٩ سبتمبر، ولم ينته العام إلا وقد اعترفت بالجمهورية العربية اليمنية ما يزيد عن ثلاثين دولة. وسنتكلم ببعض التفصيل لاحقا عن الموقف الأمريكي منها.

ولأن جمهورية مصر العربية قد وعدت بدعم الثورة والوقوف إلى جانبها سابقًا، فقد كانت نعم المثل في الوفاء بالوعد والعهد، وفي دعم الثورة اليمنية الخالدة ضد أسوأ كيانٍ حاكم عرفه التاريخ، ليس بالسلاح فقط، ولكن على كل المستويات، عسكريا، أمنيا، تعليميا، اقتصاديا، حتى تمكنت الثورة من عبور الخطر الذي كان يتهددها، وهو ما استنزف مصر كثيرًا، بصورة غير متوقعة، وكان واحدا من أسباب نكستها التاريخية فيما عرف بنكسة/ نكبة حزيران/ يونيو ١٩٦٧م.

(1) – أسرار ووثائق الثورة اليمنية، جزيلان، 91.

(2) – نفسه، 182. وقد قال ناصر بعد ذلك في أكثر من خطاب له: معركة اليمن معركتنا، ثورة اليمن ثورتنا. كما قال أيضا: الشعب اليمني فرض الثورة، وبإرادة التغيير قامت الثورة، وحينما طلب إلينا أن نساند هذه الثورة فقد ذهبت قواتنا إلى اليمن، وهي تعتقد أنها تقوم بهذا بواجب أصيل في إرادة التغيير العربية.

وقد تكونت عناصر التكاليف الاقتصادية «المصرية» من تكاليف التدخل العسكري المباشر نفسه، ومن تكليف الدعم الاقتصادي لليمن، سواء بطريقة مباشرة كدفع مرتبات الجيش اليمني، وربما الإدارة اليمنية كلها، أو بطريق غير مباشر، كتحمل بدلات سفر الخبراء المصريين الفنيين الذين أرسلوا إلى اليمن.[1]

في الثامن والعشرين من سبتمبر ٦٢م، أي بعد الثورة بيومين، وصلت أولى الطلائع العسكرية الجوية إلى مطاري صنعاء وتعز، وفي التاسع والعشرين منه وصلت السفن البحرية محملة بالدبابات والمدافع والمركبات والمعدات الحربية إلى ميناء الحديدة، الميناء الأول للبلاد يومها، ومن المؤكد أنها كانت يوم قيام الثورة قد غادرت مصر، في طريقها لليمن، بناء على التنسيق المسبق من قبل الثورة. وحتى القوات الجوية التي وصلت يوم ٢٨، لا شك أنها كانت قد على أهبة الاستعداد من قبل يوم ٢٦ سبتمبر، اليوم الذي تفجرت فيه الثورة باليمن.

وتتالت بعد ذلك الرحلات الجوية للطيران المدني، كما تتالى من خلالها مجيء الدعم المصري في مختلف المجالات بصورة يومية. وشكلت مصرُ جسرَ مدٍ يومي بما تحتاجه الثورة، وبلغ عدد العسكريين منتصف شهر نوفمبر ٦٢م بنحو ثمانية آلاف جندي داخل اليمن، مدعمين بالعديد من الدبابات والمدافع والطائرات. عدد المظليين منهم ثلاثة آلاف جندي مظلي.[2]، وفي يناير ١٩٦٣م وصل عدد القوات المصرية ١٥ ألف مقاتل مصري، مزودة إلى جانب الدبابات والمدافع والرشاشات ب ٢٠٠ طائرة عسكرية.[3]

وذكر القاضي عبدالرحمن الإرياني أنه في بداية شهر أكتوبر من نفس العام، أي بعد الثورة بأيام، كان في مهمة إلى الحديدة، وقد زار الميناء ورآه غاصًا بما

(1) ـ الدور المصري في اليمن، د. أحمد يوسف أحمد، 128.
(2) ـ اليمن الثورة والحرب، سابق، 149.
(3) ـ نفسه، 166.

فيه من دبابات ومدرعات، وحشد كبير من الجنود المصريين. مضيفا: لم نكن نتصور أن المساعدات المصرية ستأتي بهذا الحجم الكبير.[1]

ولم يقتصر الانعكاس الإيجابي للدور المصري في اليمن على ثورة ٢٦ سبتمبر في الشمال فقط، بل لقد أعطى دافعًا معنويا كبيرًا للمناضلين الأحرار في الشطر الجنوبي من الوطن، الذين تطلعوا للاستقلال عن الاحتلال البريطاني للجنوب، لاسيما وقد كانت بريطانيا على خلاف كبير مع مصر عبدالناصر آنذاك. بل لقد كان ناصر يصرح بذلك، معلنا لبريطانيا أن تحمل عصاها وترحل. وفعلا كانت الثورة في الجنوب بعد سنة على قيام ثورة سبتمبر في الشمال، والتي شارك فيها أيضا الجميع، كما سبق للجنوبيين مشاركتهم في ثورة سبتمبر.

وقد قال الفريق سعدالدين الشاذلي[2] عن هذه الجزئية تحديدًا: ما كان لعدن أن تستقل إلا بوجود القوات المصرية في اليمن الشمالي، فليس سرًا أننا كنا نساعد الثوار، ونبعث لهم السلاح والذخيرة.[3]

وهكذا كان الدور المصري في اليمن إيجابيا على أكثر من مستوى، واستمر بعد ذلك لسنوات طويلة في التربية، والتعليم العالي، والإدارة والصحة، والاقتصاد، ومختلف المجالات.

وعن الخسائر البشرية في اليمن فقد تضاربت حولها الأرقام والمعلومات،

---

(1) ـ مذكرات القاضي الإرياني، 31/2.

(2) ـ الفريق سعد الدين محمد الحسيني الشاذلي: 1 أبريل 1922 - 10 فبراير 2011م، قائد عسكري مصري، شغل منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية في الفترة ما بين 16 مايو 1971 وحتى 13 ديسمبر 1973م، ومؤسس وقائد أول فرقة سلاح مظلات في مصر، وأمين عام مساعد جامعة الدول العربية للشؤون العسكرية، وسفير سابق لدى انجلترا والبرتغال ومحلل عسكري.

يعتبر من أهم أعلام العسكرية العربية المعاصرة، يوصف بأنه الرأس المدبر للهجوم المصري الناجح على خط الدفاع الإسرائيلي «بارليف» في حرب أكتوبر عام 1973م، وهو واضع خطة العبور كاملة، وفي أكتوبر 1973م، واثناء المعارك حدث خلاف بينه وبين السادات قام على إثره بالاستقالة من رئاسة الأركان، عين بعد الحرب سفيرًا لمصر في بريطانيا ثم البرتغال. أعلن عن معارضته الشديدة لمباحثات كامب ديفيد واستقال من منصبه، وسافر للجزائر طالبا حق اللجوء السياسي، ثم عاد إلى مصر في عام 1993م بعد أن صدر ضده حكمٌ عسكريٌ، ولكنه نال عفوا شاملا، وعاش بعيدا عن الأضواء حتى وفاته في 10 فبراير 2011م.

(3) ـ قناة الجزيرة، لقاء مع سعدالدين الشاذلي، على الرابط: https://youtu.be/aEZ-tplUbpk?t=100

والأصل ألا تتضارب، لأن هذه من مسائل المعلومات لا من مسائل الرأي، وعلى أية حال فقد ذكر الفريق سعدالدين الشاذلي أن الخسارات البشرية هي ألف شهيد، إضافة إلى ما بين إلفين إلى ثلاثة آلاف «إصابات ثقيلة» تسبب عاهات مستديمة؛ أما الخسائر المادية ففي حدود أربعين مليون جنيها مصريا.[1]

(1) ـ نفسه.

ثورة 26 سبتمبر.. الإنجاز والإخفاق

على مشارف الستين عاما نتوقف اليوم متسائلين عن ٢٦ سبتمبر، الإنجاز والإخفاق..!

ستون عاما تقريبا أو على مشارف العام الستين، لو كان رجلا لكان أحفاده في سن الشباب. ستون عاما قد لا تكون شيئا في عمر الزمن كله؛ لكنها في عمر الدول ذات وزن، فيها تقوم دول وتسقط أخرى، تولد حكومات وتشيب وتشيخ.

ثورة ٢٦ سبتمبر.. من أي نبع تدفقت؟ وفي إي اتجاه انسربت؟ هل أخفقت أو نجحت؟ ما أسباب الإخفاق؟، وما ملامح النجاح؟ هل ثمة مصدات وموانع، هذا ما تجيب عنه السطور التالية..

كيف عادت الإمامة من جديد بعد ما يزيد عن خمسين عاما على قيامها؟ ما هي بذور الخلل في الثورة التي جعلت قرون الشياطين تطل من جديد؟!

1ـ إنسانية ثورة 26 سبتمبر المفرطة

من المعلوم أن للثورات والانقلابات لغتها الخاصة ومنطقها المختلف، بحكم استثنائية اللحظة، إذ تتخذ ــ في الغالب ــ منطقا حديا لا يقبل المساومة أو أنصاف الحلول؛ لأن التراخي في لحظات الجد يفضي إلى صناعة مشهد من الهزل يترتب عليه سيلٌ من الدماء وتلالٌ من الجماجم، وهو ما كان حقا اليوم.. ولو تأملنا في تفاصيل ثورة الباستيل في فرنسا لرأينا تلك اللغة الحاسمة والحدية في التعامل مع الأعداء؛ حيث يقتضي الموقف القضاء الكلي على العدو، لا مهادنته أو ممالأته. فطبيعة الأنظمة الجمهورية التي تتولد من

أنظمة رجعية كهنوتية تشبه عملية استئصال السرطان، إذ تقتضي مصلحة المريض القضاء كليا على كل شعيرات السرطان في العضو الذي يسكنه المرض، لأن بقاء شعيرة سرطانية واحدة فقط بعد العملية يفضي إلى انتشار الداء من جديد. وقد رأينا شعار الثورة نفسها: «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس» بل لقد كان مبدأ «روبسبير» نفسه يقول: «لا أحد بريئ.. اعدموه». فكانت هذه الحدية ــ على الرغم من بعض الأخطاء المصاحبة ــ عاملا من عوامل نجاح الثورة.

نموذج آخر.. الثورة البلشفية في روسيا التي اتخذت منطقا أكثر حدية في التعامل مع القياصرة، إلى حد أنها كانت تتحسس الأكف الناعمة لقطعها، وقطع رؤوس أصحابها، مقابل الإبقاء على الأكف الخشنة من «البروليتاريا». وفي علم القاصي والداني أن روسيا انتقلت فورا من ظلام العصور الوسطى التي كانت تعيشها مطلع القرن العشرين إلى واحدة من الدول العظمى بعد هذه الثورة بعقود قليلة جدا، بفضل تلك الصرامة في التعامل مع العدو الذي أنهكته حد التدمير، ولم تبق له عرقا ينبض.

وللقارئ أن يتخيل أن جل من تم إعدامهم من النظام الإمامي السابق في ثورة سبتمبر ٢٨ شخصًا فقط لا غير..! حسب وثيقة يتداولها أعداء ثورة سبتمبر أنفسهم، رافعين عقيرتهم بها..! ولا ندري ما ذا نقول عن ثورة جل قتلاها ٣٧ خصما..! فأي تسامح هذا؟ بل أي سذاجة هذه؟!!

هذه الإنسانية المفرطة كانت خللا كبيرا مع خصم غير شريف، ارتد على الفور، مستغلا سماحة خصمه.

2ـ الثورة المضادة

بفعل الظروف الخاصة باليمن وثورتها آنذاك، ومن بينها حالة التسامح الساذجة لم تكن ثورة اليمن حاسمة؛ بل امتد بها العمر ثماني سنوات في حرب أهلية طحنت الأخضر واليابس، وكل بلاد اليمن يباس حينها، ثورة مضادة تمتلك مقومات الدولة التي استحوذت عليها، بما في ذلك المال الذي جنته قبل ذلك، واعتمدت عليه في شراء الولاءات القبلية وتشكيل العصابات، في الوقت الذي جاء الثوار من مكاتبهم كموظفين لا يمتلكون إلا الحد الأدنى مما كان يطلق عليه «معاشا» شهريا يكفي لسد الرمق لا أكثر. فأعاقت الثورةُ المضادة ثورةَ الشعب عن الأمن أولا، فالشروع في البناء فورا، وتسببت في استنزاف مقدرات الدولة لصالح تثبيت أركان الجمهورية على حساب صناعة التنمية. أضف إلى ذلك أن بعضا منهم قد أعلن موالاته للجمهورية والنظام الجديد، فدخلها تقية، ولكن لينخر جسدها من الداخل.

3ـ الاغتيالات السياسية

كانت الإمامة من وقت مبكر تعرف خصومها الاستراتيجيين على وجه الدقة. فعمدت إلى اغتيالهم والتخلص منهم فورا، وأبرز هؤلاء: الشهيد علي عبدالمغني، دينامو تنظيم الضباط الأحرار ورأسه المدبر، وأيضا الشهيد محمد محمود الزبيري، وقبلهما الشهيدان: اللقية والعلفي، وهؤلاء كانوا الأكثر وعيا وثقافة وفكرا، والأكثر إدراكا لخطر الإمامة، خاصة عبدالمغني والزبيري؛ لذا عمدت الإمامة على تصفيتهم والتخلص منهم من وقت مبكر، وبقي الخصوم أو الأعداء التقليديون، أو الأقل إدراكا للإمامة وخطرها. مع الإشارة

هنا إلى عدم التهوين من شأن أي مناضل سبتمبري بذل جهده وماله في سبيل القضية الوطنية.

4ـ الخلافات البينية داخل الصف الجمهوري

أجمع الثوار على الثورة، وعلى النظام الجمهوري، بلا استثناء؛ لكنهم اختلفوا من اليوم التالي في إدارة هذا النظام، وانشق الصف الجمهوري فورا إلى تيارين: الراديكالي العسكري بقيادة السلال ومعه تنظيم الضباط الأحرار، مدعوما من النظام المصري، والتيار الآخر: تيار المحافظين الذي تزعمه الزبيري ونعمان، ثم الإرياني، ومعهم الشيخان: الأحمر وأبو لحوم الذين عارضوا بقوة طريقة إدارة السلال وتدخلات المصريين في الدولة، وخرج الزبيري مغادرا صنعاء إلى عمران، وهناك أسس «حزب الله» كواجهة سياسية للمعارضة، وكان المصريون فعلا هم من يدير الشأن اليمني كاملا، وكانت الخلافات بين التيارين حدية وصارمة، على صدق جمهورية الطرفين معا، وإجماعهم بلا استثناء على كره الإمامة ونظامها الكهنوتي. وتعبيرا عن وجهة نظره فقد نظم قصيدته الشهيرة «الكارثة» وهي القصيدة الوحيدة التي نظمها بعد ثورة ٢٦ سبتمبر، وفيها مخاطبا السلال:

البدر في الجرف تحميه حماقتكم وأنتم مثلما كنتم له حرس
لولاكمُ لم يقم «بدرٌ» ولا «حسنٌ» ولم يعد لهما نبض ولا نفَسُ.

معرضا بالرئيس السلال الذي كان قائد حرس الإمام البدر قبل الثورة.

والواقع أن هذين التيارين من عسكريين وقبليين ومثقفين كانوا يفتقدون جميعا لتجربة العمل السياسي، بحكم احتكار الإمامة لمناصب السياسة فيما بينها داخل الأسرة الواحدة فقط، ولا يسمحون للقبائل بالاقتراب منها إلا في

القضاء أو الجندية فقط، وكانت الجندية والقضاء تابعين لتوجيهات الإمام؛ لأن الإمامة أصلا لم تعرف نظام المؤسسات ولا نظام الدولة الحديث. فكان لهذا السبب انعكاسه المباشر عقب الثورة. وعلى أية حال يتحمل الثوار جزءا من الخلل هنا، إذ لا يصح بمنطق العقل أن تنشأ معارضة جمهورية داخل النظام فيما أفواه بنادق الإماميين مصوبة تجاه الجمهوريين كلهم من التباب المشارفة للعاصمة صنعاء، وما حولها، في أكثر من أربعين جبهة، مدعومة بالسافاك الإيراني والموساد الإسرائيلي.

5ـ انقلاب خمسة نوفمبر

كان انقلابُ خمسة نوفمبر ١٩٦٧م أحد نتائج الخلافات الجمهورية الجمهورية نفسها، بين السلال ومناصريه من جهة، وبين المشايخ ومعهم بعض المثقفين من جهة أخرى. وقد انسد الأفق بين الصف الجمهوري الواحد. وبقدر ما كان انقلاب خمسة نوفمبر حلا للطرفين الجمهوريين المتصارعين كان أيضا أول مسمار في نعش الجمهورية، ذلك لأن قيادة الصف الجمهوري الراديكالي قد تراجعت، مقابل تقدم التيار التقليدي المحافظ بزعامة الرئيس القاضي عبدالرحمن الإرياني الذي لم يكن غير واجهة سياسية فقط؛ «حَكَم، لا حاكم»، في الوقت الذي تسلط المشايخ والنافذون على مؤسسات الدولة وجيروها لمصالحهم الخاصة، حتى بدا كل شيخ إماما برأسه، وهو ما عبر عنه البردوني شعرا بقوله:

والأباة الذين بالأمس ثاروا أيقظوا حولنا الذئاب وناموا
ربّما أحسنوا البدايات لكن هل يحسّون كيف ساء الختام؟

وبمقدار ما تصلب السّلال سابقا في رفض أي مصالحة مع الإمامة وعودتهم أو التفاوض معهم، أبدى «النوفمبريون» بعض المرونة تجاه الإمامة

باستثناء بيت حميد الدين فقط، وانتهت الحرب بمصالحة سياسية عام ١٩٧٠م. ومن هنا تسلل الإماميون من جديد وبصورة رسمية في دوائر الحكم، بل في المجلس الجمهوري؛ حيث كان أحمد محمد الشامي عضوا فيه، كما كان هناك أعضاء آخرون في الحكومة وفي مختلف الدوائر الرسمية، يتحوصلون بصمت، ويعملون بهدوء من أجل استعادة «الحق الإلهي»..! وظلوا ممسكين بزمام القضاء والأوقاف، ثم المؤسسة العسكرية والأمنية حتى اليوم بالقوة تارة، وبالاستحواذ تارة أخرى؛ إضافة إلى تغلغلهم في بقية مناصب الدولة المهمة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ثورة ٢٦ سبتمبر حين قامت كان التعليم حكرًا على الإماميين والقضاة وبعض التجار الميسورين فقط، ويكاد بقية الشعب كله يكون أميا، فكان الإماميون هم المستفيدون من الثورة؛ ذلك أن الجهاز الجديد للدولة تطلب كفاءات جديدة ونوعية قياسا إلى شروط تلك المرحلة، فلم يكن غيرهم المتعلمون، عدا قلة قليلة من أبناء الشعب، فاستغلوا مناصب الدولة الجديدة تحت شعار الجمهورية، كما استغلوا مناصب الدولة سابقا تحت راية الإمامة والحق الإلهي..! وهكذا فقد أخرجهم الشعب من النافذة؛ لكنهم عادوا من الباب، ومارسوا من الفساد في عهد الجمهورية أضعاف ما مارسوه قبلها لتشويه صورة الحكم، فكان انقلاب ١٣ يونيو ١٩٧٤م الأبيض ضد القاضي الإرياني.

6ـ جهل القيادة السياسية بخطر الإمامة

منذ بداية فترة حكم علي عبدالله صالح وحتى انتهائها في فبراير ٢٠١٢م فما بعدها أيضا نستطيع القول أن ثمة بلادة سياسية وغباء تاريخيا بحقيقة الإمامة وخطرها على اليمن أرضا وإنسانا غلب على ذهنية هذه النخبة سلطة ومعارضة، على حدٍ سواء؛ ولذا ــ ورغم براعة علي صالح التكتيكية ــ إلا أنه دفع رأسه في الأخير ثمنا لذلك الغباء والمكر معا، حين غض الطرف عنهم من وقت مبكر،

وهـم يعبثـون بأمـن الدولـة وسـيادتها، ثـم تحالـف معهـم صراحـة عقـب مغادرتـه للسـلطة انتقامـا مـن خصومـه السياسـيين، اللقـاء المشـترك وثـورة ١١ فبرايـر ٢٠١١م..!

مـن ناحيتهـا أيضـا نجـد أدبيات الأحـزاب السياسـية فارغـة، وبرامجهـا التثقيفية تـكاد تخلـو مـن التنبيـه لخطـر الإمامـة عـلى الشـعب اليمنـي، وهـو خطـر وجـودي في الأصـل؛ بـل إن الـصراع معهـم صراع وجـود وصراع حيـاة. ومـع هـذا فلـم يستشـعروا الخطـر مـن وقـت مبكـر، ليتفاجـؤوا بهـم كالقـرود التـي تلتهـم المـزارع، منقضـين عـلى مؤسسـات الدولـة، بـل لقـد غـزوا حتـى غـرف النـوم، في أبشـع تـصرف همجـي لا مثيـل لـه إلا أفعـال آبائهـم وأجدادهـم التـي لم يقـرأ عنهـا الساسـة للأسـف.

منـذ منتصـف السـتينيات مـن القـرن المـاضي أعلـن أحـد كرادلـة النظريـة الإماميـة تمسـكهم بمشروعهـم التاريخـي شـعرا بقولـه:

أخبروا فهدا والقصـور العوالي ... أننا نخـــبة كرام فـــوارس
سنعيد الإمامة للحـــكم يوما ... إن بثوب النبي أو بفكر ماركس
فإن خابت آمالنا بالعراق ونجد ... فلنا أخـــوة كرام بفـــارس

لقـد كان مشروعهـم واضحـا مُعلَنـا عنـه، فيـما كان الجمهوريـون في غفلـة الجهل سـادرين، وكأن قيادتنـا الجمهوريـة خـلال الفـترة الماضيـة لم تقـرأ التاريخ السـياسي ولا الفكـري لهـذه الجماعة.

ومهـما يكـن، فلـن يكـون انقـلاب ٢١ سـبتمبر ٢٠١٤م المشـؤوم غـير انتفاشـة عابـرة، لـن يطـول بـه الزمـن، لأن الإمامـة صـارت مـن المـاضي، ملعونـة كشـجرة الزقـوم. بـل لقـد عمقـت انتفاشـتها تلـك الوعـيَ الجمهـوري السـبتمبري أكثـر في وجـدان اليمنيـين خاصـة مـن المثقفـين، وحتـما سـتعود إلى أوكارهـا كالجـرذان المسـعورة.

مع الزبيري في وثنيّاته

«إن دليل شاعرية الشاعر أن تتشبع بلاده بحبه تشبعه بحبها» وايتمان

الشعرُ أحد فنون الأدب، ينطبق عليه ما ينطبق على بقية الأجناس الأدبية الأخرى من صحة وخطأ، وحقيقة ومجاز، وهو متعدد الأغراض، متنوع المنطلقات. وكل شاعر في واديه يهيم.[1]

شاعت بعض الانتقادات ضد أبي الأحرار الشهيد محمد محمود الزبيري، رحمه الله، وذلك لكونه مدح الإمام يحيى ونجله أحمد في بداية مشواره السياسي. وهذه ــ كما يرى منتقدوه ــ مثلبةٌ تنالُ من شرف النضال الزبيري، وتقلل من قيمته. متسائلين: كيف لسياسيٍ وشاعر ومثقف، وفوق هذا مناضل يمدح الإمام الطاغية أو نجله أحمدً؟!

والواقع أنه انتقادٌ يحملُ في أحد أوجهه نوعًا من التقدير والاحترام للزبيري نفسه؛ كون النقطة السّوداء في الثوب الأبيض غير النقطة البيضاء في الثوب الأسود كما يُقال، هذا إذا اعتبرنا أن هذا المدح مثلبة. كما أنه من وجهٍ آخر يعكس شدة النزعة الازدرائية للطاغية يحيى وأنجاله، كونهم لا يستحقون المدح، والواقع كذلك حقا. غير أن هذا لا يكفي لاستجلاء الحقيقة كما هي، من جميع جوانبها، ولا بدّ من التوضيح أكثر.

أولا: غالبيّةُ الشُّعراء؛ بل والأغلبيّة العُظمى منهم قديمًا وحديثًا مدحوا وهجوا وشبّبوا وتغزلوا، ووصفوا ورثوا في أشعارهم، كلازمة ثقافية وأدبية من لوازم أزمانهم التي عاشوا فيها، وعادة ما نقرأ في كتب الأدب عن هذا الشاعر

(1) ــ إشارة إلى الآية القرآنية عن الشعراء، (وأنهم في كل وادٍ يهيمون) النمل:

أو ذاك، مادحًا وهاجيًا للشخص الواحد نفسه أحيانا، كما هو الشأن مثلا مع المتنبي أشهر شعراء عصره، ففي الوقت الذي قال في كافور الاخشيدي[1]:

ترعرعَ المَلِكُ الأستاذُ مُكتهِلاً ... قبلِ اكتِهالٍ أديبًا قبلَ تأديبِ
مُجرَّبًا فَهمًا مِنْ قَبْلِ تَجرِبَةٍ ... مُهذَّبًا كرَمًا مِنْ غيرِ تهذيبِ
حتى أصابَ منَ الدنيا نهايتها ... وهمُّهُ في ابتداءاتٍ وتشبيبِ
يُدَبِّرُ المُلْكَ من مصرٍ[2] إلى عدَنٍ ... إلى العراقِ فأرضِ الرُّومِ فالنُّوبِ

لكنه بعد فترة يسيرة نسيَ كل هذا المدح، وقال في «كافور» قصيدة هجاء خلدته في أزرى صورة، في الوقت الذي لم تُشتهر بيتٌ واحدة من قصيدة المدح فيه.

وغير المتنبي كثير، سواء من القدماء أم المحدثين، كحال الشاعر أحمد شوقي مع مصطفى كمال أتاتورك، القائد العسكري التركي، ومؤسس تركيا الحديثة، حين مدحه أولا قائلا:

الله أكبر كم في الفتح من عجب ... يا خالد الترك جدد خالد العرب

وحين غير موقفه في كمال أتاتورك عرض فيه، لائمًا نفسه على موقفه السابق:

ما لي أطوقه الملامَ وطالما ... قلدتُه المأثور من أمداحي؟

وكحال الجواهري مع الملك فيصل الثاني حين مدحه في قصيدة، منها:

يا أيها الملك الأغرُّ تحيةَ ... من شاعر باللطف منك مُؤَيّدِ
أنا غرسُكُم أعلى أبوك محلّتي ... نبلاً وشرّفَ فضلُ جدّك مقعدي

لكنه بعد فترة شعر بالندم، وأنه لم يكن موفقا في هذا المدح، وقد قال في مذكراته عن هذه القصيدة التي لامَه بعض رفاقه: إنها زلة العمر في مديح فيصل الثاني، أقولها زلة، وأكثر من زلّة، ولا أتراجعُ أو أحاول أن أخفف

(1) ــ كافور الاخشيدي أبو المسك، لقبه الليثي السوري 292 - 357 هـ. كان من رقيق الحبشة وأصبح رابع حكام الدولة الاخشيدية في مصر والشام، كان الحاكم الفعلي لمصر منذ 946 م بعد وفاة محمد بن طغج، وأصبح كافور سنة 966 م واليا على مصر حيث حكمها، ثم توسع إلى بلاد الشام. دام حكمه لمدة 23 عاما.

(2) ــ مصر، ممنوع من الصرف، وحق ما لا ينصرف البناء لا الإعراب، وقد جاز في الاسم الإعراب، لأنه ثلاثي ساكن الوسط.

من وطأة الموقف، وأن أستعمل التبرير الذي اعتاده رهطٌ كبيرٌ من الكتاب ممن يخطئون ويزلون في المجتمع العربي؛ ذلك لأنني بمحض إرادتي هرولتُ مسرعًا إلى تلك الهاوية..

بل والبردوني مع الإمام أحمد عام ١٩٥٩م في قصيدة غير مشهورة حتى عند كثير من المثقفين، وهي من «موؤودات» البردوني كما قيل. ومنها:

مولاي سلْ عني النبوغَ فإنه أشقى بي الأعداءَ والحُسّادا
أنا إن أجدتُ الشّعر فيك فإنه تاريخُك الفذُّ المجيدُ أجادا

ولا نعتبر هذا قدحًا في وطنية البردوني، ولا ذمًا في المتنبي وأضرابه. إنها عادةُ الشُّعراء، سواء بمقابل أو بلا مقابل، والشعراءُ هم جزء من المجتمع مدحوا وذموا، كما يفعل الكتاب، وكما يفعل أيضا رجالُ الدين. والحقيقة أنها عادة الناس أجمع، وليس الشعراء فقط. جميعهم يمدحون ويذمون، ويرضون ويسخطون في الشخص الواحد نفسه. وهذا على سبيل الإجمال.

ثانيا: الزبيري في بداية خطه السياسي لم يتبدّ ثوريًا كما آل الأمر إليه مؤخرا في سبتمبر؛ بل إصلاحيًا؛ إذ كان كغيره من المستنيرين والمثقفين يسعون لإصلاح نظام الحكم، لا لتغييره؛ والمعارضة السياسية غير المعارضة الثورية كما هو معروف؛ خاصة في تلك المرحلة، وهي أولى مراحل النضال السياسي التي يتدرج فيها المعارضون في كل البلدان، لا في اليمن فقط؛ بل هي فلسفة لها أصولها وقواعدها، كما يذهب إلى ذلك مونتسكيو في «روح الشرائع» الذي فضل إصلاح الأنظمة السياسية على الثورة عليها، خلافا لنظيره جان جاك روسو الذي مال إلى التثوير. وبهذا فقد رأى الزبيري وغيره من زملائه أن التقربَ والمدحَ والإطراءَ قد يكون سبيلا للتأثير على الإمام، ومن ثم إصلاح النظام الفاسد بأقل التكاليف. وهذا ما سمعناه من قيادات اللقاء المشترك سابقا في التعاطي مع النظام السابق، على خلاف بين النظامين، وبين المعارِضين أيضا.

وإلى هذه المسألة أشار البردوني بقوله: «لقد كان الزبيريُّ حزبيًا من أعلى طراز، كتابته حزبية، وسجنه حزبي، وتحركه حزبي، وحتى صلواته الجهرية كانت لا تخلو من لمح تبشيري وتحذيري. روي أنه كان في صلواته يؤمن الناس، ويختار قراءة الآيات الداعية إلى الاعتصام بحبل الله جميعا، والداعية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..».[1] وبطبيعة الحال فإن الشعر أحد أدوات المعارضة الحزبية، خاصة في تلك المرحلة. ومن المعروف أن المهمة الرئيسية والأولى للأحزاب السياسية هي المعارضة لا الثورة. وتلك الجمعيات والهيئات والتكوينات التي أسسها الزبيري ونعمان، ورفاقهما هي أحزاب تلك المرحلة.[2]

وفي هذا يقول الزبيري نفسه، في إشارة توضح مدى الرزانة والحكمة التي تمتع بها هو ورفاقه، كما تكشف أيضا بُعد النظر لديهم: «ورأينا أن التاريخ سيحكمُ علينا بالتهور والتسرُّع إذا لم نكرر التجارب بطرقٍ أكثرَ لِينًا، فالعامل الإنساني يجبُ أن يُراعى حتى بالنسبة إلى حكام يسيطرون على مقدرات الشعب بغير حق، والله سبحانه وتعالى يقول لموسى وهارون، عليهما السلام، وهو يبعثهما إلى فرعون: (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى)»[3] طه: ٤٤.

ثالثا: مما لا يخفى على الجميع أنَّ الزبيريَّ من مواليد ١٩١٠م، وتلك القصائد التي مدح فيها الإمام كانت نهاية الثلاثينيات وفي السنتين الأوليين من الأربعينيات، أي أن الزبيري كان ما بين ٢٧ إلى ٣٢ سنة، شابا؛ لا نقول ضعيف التجربة السياسية؛ بل عديم التجربة السياسية؛ كأي شاب في هذا السن عادة، لم يتسنّ له استغوار كافة أبعاد المشكلة التاريخية والسياسية، ولم يبلغ سوء الإمام يحيى منتهاه بعد؛ لأن الغالبية من الناس في مرحلة

(1) ـ اليمن الجمهوري 198.

(2) ـ التكوين السياسي الوحيد الذي لم يشترك فيه الأستاذ نعمان مع رفيق دربه الزبيري هي هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقط. فقد كانت زبيرية خالصة، وما عداها من التكوينات الأخرى فمشترك بينهما، ورفاقهما.

(3) ـ الأعمال الشعرية الكاملة، 45.

العشرينيات والثلاثينيات كانوا ينظرون له بطلا قوميا بعد حربه على الأتراك العثمانيين في اليمن؛ بل إن بعضهم كان ينظر له نظرة قداسة موصولا بالسماء، كما كان يروج لنفسه..!

وفي هذه الجزئية تحديدا قال البردوني: «فعلى الرغم من أنه شاعرٌ فإنّ أغلبَ أشعاره من مستوى تنظيره الحزبي في كل عمره الفني، ولعل هذه الفترة من الأربعينات أول خطواته الحزبية".[1]

رابعا: ابتدأت معارضة الزبيري للإمام يحيى فردية، لا مؤسسية؛ نظرًا لظروف المرحلة نفسها التي كانت المعارضة فيها همسًا في دواوين القات في صنعاء وذمار وتعز وإب، ووحده صوتُ الزبيري أول صوت صدح بالمعارضة في خطبة الجمعة علنًا، أمام الأشهاد، بعد عودته من القاهرة سنة ١٩٤١م، خاصة بعد تراجع صوت هيئة النضال، التي أسسها الشهيد المطاع؛ ليستضيفه سجن الأهنوم بعدها فورًا؛ ومن ثم يبدأ مرحلة جديدة أكثر حدة في المواجهة، وإن كانت لا تزال في إطار الإصلاح السياسي؛ علمًا أن الهالة التي كانت تحيط بالإمام في تلك المرحلة لا تخطر على بال أحد اليوم، فمن يجرؤ من الناس ــ يومها ــ على معارضة «ابن رسول الله» و «الناطق الرسمي باسم السماء»؟! وثمة إشارات مهمة في هذا الجانب تكلم عنها الدكتور مصطفى الشكعة مبكية مضحكة معًا في كتابه «مغامرات مصري في مجاهل اليمن»، وأيضا العزي صالح السنيدار في مذكراته، إلى حد أن الناس كانوا إذا سطا الإمامُ أو أحدُ أولاد الإمام على أموالهم، قال: «ظلمني صلوات الله عليه» «نهب مالي سلام الله عليه».[2]

خامسًا: لقد ندم الزبيري نفسُه على تلك القصائد التي مدح بها الإمام، وسماها بنفسه فيما بعد «الوثنيّات»، ولسان حاله: أخطأنا، أو لم نكن على صواب. ولعل ذلك لعدم، أو لضعف تجربته السياسية، وهي تجربة سياسية

(1) ــ اليمن الجمهوري، 195.

(2) ــ وثائق أولى عن الثورة اليمنية، القاضي عبدالرحمن الإرياني، 101.

ناشئة. وقد عوّض عنها بعشرات القصائد الثورية التي تناولت الإمامة، وأيضا المؤلفات الأخرى التي شرّحت المشكلة اليمنية وبينت تفاصيلها. وجميعها كانت بعد تلك القصائد «الوثنيات»، واللاحق يمحو السابق.[1] والواقع أن تلك القصائد، بذلك الأسلوب اللين والجميل في القول تمثل إدانة لحكم بيت حميدالدين أكثر مما هي إدانة على الزبيري، أو غيره. لنعرف من خلالها محاولات الثوار أنفسهم وأساليبهم وطرائقهم التي اتبعوها معهم، ومع هذا تعنتوا للشعب وتألهوا عليه. وهو ما يؤكده الزبيري بالقول: «فالشعر شاهد حي سيبقى برهانا تاريخيًا على أنَّ الإمام يحيى الذي لقي مصرعه بعد سنوات قليلة من المدائح والاستعطاف، كان قد أعطي أكثر مما يستحق من الثناء والاحترام، وأتيحت له الفرصة، ووفرت له الكرامة، وقدمت إليه الأفكار والنصائح في جوٍ من الود والاستعطاف والإكبار، لا يدع له مجالا للتعليل والاعتذار، وأنه بإصراره رغم كل ذلك وعناده واستبداده يُعتبر المسؤول الذي جعل الخلاص منه بالقوة هو الطريق الوحيد الذي لا طريق سواه».[2]

مضيفا: «ومن جهةٍ أخرى فإن المبالغات في المدح والشكوى والاستعطاف يقدِّمُ إلى الأجيال صورة رمزية، لبشاعة العلاقة بين الحاكم والمحكومين الذين أوقعتهم الأقدار تحت رحمته، فاضطرهم بقسوته واستبداده ومنطقه المتأله أن يمدحوه ذلك المدح الذي يتحول بطبيعته إلى لونٍ رمزي من ألوان الهجاء».[3]

حقا.. الأدب، والشعر مرآة المجتمع، ومرآة السياسة، يعكس الحقيقة كما هي بين الطرفين، وقد عكست لنا أشعار الزبيري مع الإمامة أساليبه الراقية

---

(1) ــ للموقف الأخير في حياة أي سياسي شأنٌ خاص، يكاد يمحو عنه سيئاته السّابقة، كما هو الشّأن مع الدكتور عبدالكريم الإرياني رحمه الله الذي ظل موضعَ انتقادٍ حادٍ لدى كثير من السّاسة المعارضين، بحق وبغير حق، ومع هذا فحين انحاز للشّرعية، مناوئا الانقلاب الإمامي وتوفي على ذلك لم يجرؤ أيٌّ منهم مجردَ الإشَارة إلى سلبية من سلبيات مرحلته السياسيّة سابقا.

(2) ــ الأعمال الشعرية الكاملة، 47.

(3) ــ نفسه، 51.

في التعاطي معهم نصحا وإرشادا، وكيف واجهوه بتلك الوحشية والقسوة، من السجن والتشريد، وحرمانه من وطنه.

سادسا: ظل الزبيري ثابتا على مواقفه الوطنية، وللمبدأ الذي نشأ عليه، حتى آخر قطرة من دمه، مناوئا الإمامة، ومنازلا إياها، وبوسعه أن يعيش كما يعيش أمراء بيت حميدالدين يومها، بالمناصب والمال، ولكنه لم يفعل، فاستمر في صف الشعب حتى لفظ آخر نفس من حياته، شهيدا برصاصة الغدر الإمامية، ولسان حاله:

بحثــتُ عن هبةٍ أحبوك يا وطني فلم أجــد لك إلا قلبي الدامي

لهذا تخلد في وجدان الشعب، لأنه خلد الشعب في وجدانه أولا، وأصبح رمزًا وطنيا، وقامة إلهامية، وسيظل كذلك، كعادة العظماء الذين تخلدهم شعوبهم.

سابعا: يأخذُ البعضُ على الزبيري موقفه من القوات المصرية بعد الثورة في صنعاء، وتعريضه بها، وبالرئيس السّلال نفسه في قصيدته الشهيرة «الكارثة»، ظنا منهم أن الزبيري قد تراجع عن موقفه الثوري أو عن منازلته للإمامة. ونقول: ليس هناك أي موقف سلبي لأي جمهوري يمني من التدخل المصري في اليمن بعد قيام الثورة، مطلقًا، لا من الزبيري، ولا من غيره؛ بل لقد مدح الزبيريُّ الزعيمَ عبدالناصر شعرًا ونثرًا. وكل ما في الأمر أن كان هناك موقف من بعض تصرفات القيادة العربية بصنعاء،[1] والتي انقسمت فيما بينها إلى جناحين جناح السفير المصري في اليمن، وجناح قائد العمليات كمال حسن. وبطبيعة الحال فقد مارست بعض الأخطاء التي كانت محل رفض ليس عند الزبيري فقط؛ بل وحتى الأستاذ نعمان والإرياني ومن خلفهم مشايخ القبائل ممن عُرفوا حينها «بالمحافظين»، بمقابل «الراديكاليين، السلال وجزيلان وهادي عيسى وعبدالغني مطهر.. إلخ؛ علما أن الجمهورية التي يحملها

(1) ـ هكذا كان اسمها في تلك الفترة.

الزبيري ونعمان هي غير الجمهورية التي في أذهان مشايخ القبائل الذين لحقوا بهما، ووجدوا في معارضة الأستاذين لبعض تصرفات القيادة العربية ضالتهم المنشودة. وبمنطق السياسة نقول: من الطبيعي أن تحصل تلك الأخطاء من الأخوة المصريين، ومن الطبيعي أيضا معارضتها من الزبيري ورفاقه ما دام الجميعُ ملتزما خط الثورة والجمهورية؛ علمًا أن أخطاء المصريين ما هي إلا قطرة واحدة من بحر حسناتهم التاريخية التي لن ينساها اليمنيون حتى قيام الساعة، ولن ينسى أيُّ يمنيٍ يحمل مثقال ذرة من الكرامة والشهامة الصنيعَ التاريخي للزعيم العربي جمالٍ عبدالناصر، والشعب المصري الشقيق.

وبالجملة ..إنْ من خطأٍ يتحمله الزبيري في هذه المسألة تحديدًا، فبقدر ما يتحمل بقية السياسيين أيضا، فجميعُهم، أصابوا، وجميعُهم أخفقوا، وليس الزبيري فقط حتى يسلط عليه البعض سهام انتقاداتهم. والأهم من كل شيء أن ثبّتوا أركان الثورة والجمهورية، في الوقت الذي فشل جيل اليوم «من المنتقدين» في الحفاظ عليها كما يجب، ومع هذا لم يسلم العظماء والناجحون من انتقادات الفاشلين، وهي واحدة من مفارقات أناسٍ جُبلوا على الانتقاد وتتبع العيوب والثلمات فقط. وما أكثرهم..!

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الزبيري كان واحدًا من أعمدة السلطة السياسية بعد سبتمبر، إذ كان وزيرا للتربية والتعليم، وكان على رأس قيادة الاتحاد اليمني، أحد أكبر المكونات السياسية يومها، وكانت رؤيته تكمن في ضرورة الاعتماد على الجماهير الشعبية في مواجهة الإمامة، لا على الإخوة المصريين، وشاركه في رأيه هذا تيار الاتحاد الشعبي الثوري، وهي رؤية لا شك أنها خاطئة، لأن الإمامة كانت قد جيشت في ثورتها المضادة جموع القبائل، ومعروف عن غالبية تلك القبائل المحيطة بصنعاء أنهم يميلون إلى من يدفع أكثر،[1] ناهيك عن جموع المرتزقة الأجانب الذين جلبتهم من خلف الحدود كمدربين ومعلمين

(1) ــ ذكرت المؤلفة الروسية جولوبوفسكايا ايلينا أن إعلانات على بعض الصحف آنذاك قد ظهرت من قبل أحد المشايخ مؤيدا للجمهورية وللملكية في وقت واحد.!! انظر: التطور السياسي في اليمن، 36.

لأتباعها.[1] ويكمن الخطأ هنا في المعارضة العلنية للسلال وجناحه، إلى حد التشنيع عليه بقصيدة، يُقال أنها الوحيدة له بعد الثورة، وفيها:

هذا هو السيف والميدان والفرس واليوم من أمسه الرجعي ينبجس
البدر في الجرف تحميه حماقتكم وأنتم مثلما كنتم له حرس[2]

ثم إنّ الحكمَ العسكريَّ الذي كان يتوجس منه البعض من جناح المحافظين هؤلاء لم يكن موجودًا أساسًا، على أهمية أي حكم عسكري عقب أي ثورة كبرى في حياة أي شعب، فجل العسكريين كبارًا وصغارًا كانوا في قمم الجبال وبطون الوديان مدافعين ببندقياتهم عن الجمهورية، ولم يكونوا خلف مكاتبهم. والأرجح أنها حسابات كبار الشيوخ آنذاك الذين يريدون جمهورية على مقاسهم هم، لا على مقاس الوطن، فجعلوا من الزبيري واجهة لأطماعهم وجشعهم الذي نال من الجمهورية، ونال من الدولة بشكل عام بعد ذلك.

أخيرًا.. كل مرحلة سياسية تُحاكم إلى القيم السائدة في عصرها لا إلى قيم اليوم، وتُقيّمُ بعد استقراء واستغوار تفاصيل المرحلة التي خلقت الحدث نفسَه، والظروف المحيطة به؛ حفاظا على مصداقية التحليل واستجلاء للحقيقة من جميع جوانبها. وهذه من المنهجيات العلمية المعمول بها في مختلف الدراسات الاجتماعية والسياسية والتاريخية. مرة أخرى، وللزبيري:

بحثتُ عن هبةٍ أحبوك يا وطني فلم أجد لك إلا قلبي الدامي

---

(1) ــ كانت هناك مساع كبيرة قام القاضي عبدالسلام صبرة لرأب الصدع بين ما عُرف بجناحي المحافظين والراديكاليين، في تلك الفترة الحرجة، إلا أنها لم تتكلل بالنجاح.

(2) ــ كان السلال قائد حرس البدر سابقا. وقد نفى البردوني هذه القصيدة عن الزبيري، مشيرًا إلى انتحالها ونسبتها إليه من قبل بعض رفاقه، ولعله وهم أو توهم، فالقصيدة تحمل روح الزبيري، ناهيك أن الأستاذ أحمد محمد نعمان قد أثبت أنها للزبيري، وأن الزبيري قد أنشدها في حفل مصغر في قبيلة «ذو حسين» برط، يوم 1 ابريل، قبل مقتله بسويعات، والأستاذ نعمان معه، وآخرون. انظر: مذكرات الأستاذ نعمان، ص: 87. كما ذكر القاضي الإرياني في مذكراته أن الحفل كان يوم الأربعاء، قبل مقتل الزبيري بيوم، وإن لم يشر إلى القصيدة. كما نسبها للزبيري أيضا عبدالله عبدالإله في كتابه: نكسة الثورة.

أئمة.. سلوكهم كأفكارهم..!

عجائب الإمامة لا تنقضي وغرائبها لا تنتهي؛ ذلك أنها هي العجائب والغرائب ذاتها. الإمام هو الدولة والدولة هو. نظام طغياني، همجي، يختزل الدولة في شخص الإمام. فلا مرجعية لائحيّة، أو قانونية، أو دستورية، ولا شيء من ذلك. كان المرجعية القضائية للحكم، ولكل شؤون الدولة هو كتاب متن الأزهار، والبحر الزخار لأحمد بن يحيى بن المرتضى؛ أما المرجعية السياسية فهي رأيه هو أولا وأخيرا، على ما في تفكيره من عوج وجهالة..!

وكانت المرجعيات الضبطية تتم من خلال «الحِطَاط» و «التنافيذ» و «الرهائن» التي لم تستخدمها أية ملكية في المنطقة كاملة، فإلى الخمسينيات والملكياتُ كلها سائدة في المنطقة، لكنها ملكيات ليبرالية، وبعضها دستورية، عدا حكم بيت حميدالدين فقد كان نسيج وحده، طغيانيا متوحشا وكفى.[1]

كان الإمام يحيى يسترهن الأطفال ويودعهم محاجر لا تليق بالبشر، كنوع من أدوات الضغط على أهله، لتقديم الولاء والطاعة، وهو ما لم تفعله لا ملكية فاروق بالقاهرة، ولا ملكية عبدالعزيز بالرياض، ولا ملكية الحسين بالأردن، ولا ملكية فيصل في بغداد.

وقد مات الإمام يحيى وهو يحتفظ بأربعة آلاف رهينة، ارتكز عليهم نظام حكمه، من أقاربه وأبناء حكام الألوية وعائلات الاشراف وشيوخ القبائل.[2]

---

(1) ــ يذكر الدكتور عبدالعزيز المقالح في كتابه من الأنين إلى الثورة أن الإمام كان يهدف من الرهائن أيضا تشويه صور أبناء المشايخ والإساءة إلى مستقبلهم في حشد هؤلاء الأطفال في السجون، ولكنها انقلبت على الإمام نفسه، فلم تشوه إلا صورته ومستقبله، فقد كانت بمثابة مدارس لتربية الكراهية في نفوس الأطفال والنفور من النظام، وتكريس الحقد عليه. ومن بين أولئك الرهائن تشكلت الطلائع الواعية الأولى في صفوف المشايخ النابهين.

(2) ــ انظر: اليمن الثورة والحرب، 56.

لقد تزامن نشوء الدولة اليمنية المعاصرة مع بداية نشوء المملكة العربية السعودية، على يد الملك عبدالعزيز آل سعود، استطاع الملك عبدالعزيز، ثم أبناؤه من بعده أن يبنوا دولة لها ثقلها العالمي اليوم، فيما عمد يحيى حميدالدين وأبنائه إلى تدمير ما بناه الأتراك قبلهم، وليتهم أبقوا على ما كان قائما من المنجزات القائمة آنذاك.

يمسكُ الإمام بكل مقاليد الدولة من ألفها إلى يائها، حتى أن الإمام يحيى كان لا يأذن لابنه ــ وهو وزيرٌ «افتراضي» للمعارف ــ أن يسجلَ طالبًا في المدرسة إلا بإذنه، ولا يسمح لمريض أن يحصل على حقنة دواء مجانية إلا إذا أتى بحكم شرعي من المحكمة يثبت أنه فقير لا يملك شيئا.[1] وكان يوجه ما يسمى بقائد الجيش، ويشرح تفاصيل لجام البغلة التي يركبها حين يأمر أحد أقاربه بشرائه في وقت واحد..!

وأكثر من ذلك كان الإمام يحيى يتابع الاشتراكات السنوية في صحيفة الإيمان، وهي الصحيفة الوحيدة الناطقة باسمه، آنذاك، ويلزم كل موظف بالاشتراك فيها، ليوفر تكاليفها..![2]

وكانت المطبعة الوحيدة في اليمن، والتي ورثها عن الأتراك لا تستخدم إلا بإذن رسمي منه شخصيا..![3]

وكان يوجه بصرف تنكة التبن بنفسه. «فضلات الأبقار التي تستخدم في الوقود»..![4].

وأكثر من ذلك كان يمارسُ ما يسمى بالرقيا الشرعية على الأمراض الذين يزورونه، مقابل ريال أو ريالين من كل مريض، يتحصلها منهم إلى جيبه

(1) ــ مذكرات العزي صالح السنيدار، الطريق إلى الحرية، 247.

(2) ــ نظر: مجلة الحكمة اليمانية وحركة الإصلاح في اليمن، 1938 ــ 1941م، دراسة ومقالات، د. سيد مصطفى سالم، علي أحمد أبو الرجال، مركز البحوث والدراسات اليمني، ط:2، 1988م، ص: 21. وانظر أيضا: الثقافة والثورة في اليمن، عبدالله البردوني، 131.

(3) ــ نفسه، 23.

(4) ــ سمعت هذه المعلومة من القاضي علي أبو الرجال، «ولا يزالُ حيا يُرزق» وهو ممن عمل مع الإمام يحيى في بداية حياته الوظيفية، وعرفه عن قرب.

يـدًا بيـد، مدعيًـا أن لـه القـدرة عـلى طـرد الأرواح الشريـرة منهـم «الجـن» وعـلى تقييدهـم..![1]

كـما كان يستقبل الهبات والنذور من المساكين الفقراء، بنية شفائهم من الأمراض.[2] علما أن وفيات الأطفال في عهده كانت أعلى نسبة وفيات أطفال في العالم.[3]

مـا هـو أغـرب مـن الخيـال ألا يسـمح لأي مواطـن بـشراء جهـاز الراديـو إلا بـإذن خـاص منـه فقـط، وإلا فاسـتخدام الراديـو مـن المحرمـات الممنوعـات.[4]

وبحسـب الباحـث أدجـار أوبلانـس: «ليـس هنـاك طبيـب يمنـي واحـد تعلـم أيـام الإمـام يحيـى".[5]

كان يكـدس الملايـين مـن الريـالات الفرنسـية «ماريـا تريـزا» في مخـازن، وعندمـا يمتلـئ المخـزن يغلقـه ويسـده بالحجـر، وكان يحمـل بجيبـه دفـترا صغـيرا يكتـب فيـه مـا يحتويـه هـذا المخـزن أو ذاك مـن أمـوال..![6]

لقـد كانـت عملـة الإمـام يحيـى نمساوية، ضربـت في النمسـا، منتصـف القـرن الثامـن عـشر، ١٧٥١م. وتخلصـوا منهـا، فأخذهـا منهـم بثمـن بخـس، في الوقـت الـذي عـرف اليمنيـون صـك العملـة مـن قبـل ثلاثـة آلاف سـنة.

وكان مـضرب المثـل في البخـل والشـح، وعـد قضـاء ديـون رئيـس تحريـر مجلـة الحكمـة اليمانيـة، البالغـة ألفـي ريـال حينهـا، وحـين تقـدم لـه بالطلـب صرف لـه ثمانيـة ريـالات، فـكاد الوريـث يُصعـق، وأصابتـه الحمـى ثلاثـة أيـام، ثـم تـوفي في قـوة الشـباب عـن عمـر ٢٩ سـنة، وهـو في أوج عطائـه الفكـري.[7]

---

(1) ــ مغامرات مصري في مجاهل اليمن، الدكتور مصطفى الشكعة، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط:1، 1985م، 125. وانظرها أيضا في كتاب: من الأنين إلى الثورة، الدكتور عبد العزيز المقالح، دار العودة، بيروت، ط:1، 1983م. 105.

(2) ــ وثائق أولى عن الثورة اليمنية، الرئيس عبدالله السلال، 10.

(3) ــ اليمن الثورة والحرب، سابق، 52.

(4) ــ مذكرات القاضي الإرياني، 130/1.

(5) ــ اليمن الثورة والحرب 63.

(6) ــ شاهد على اليمن، أحمد جابر عفيف، 48.

(7) ــ اليمن الإنسان والحضارة، سابق، 207. وهناك من يتهم الإمام يحيى بقتل الوريث.

وحين كان يخرج إلى الروضة في الخريف للاستجمام يأمر قبيلة بني الحارث بالخروج لإصلاح الطريق لسيارة الإمام..![1]

علما أن الإمام يحيى لم يخرج من صنعاء ومحيطها في حياته إلا مرة واحدة فقط إلى حمام دمت التابع للواء إب يومها، للاستشفاء، وبحسب الأكوع: «كان أسير تربيته وذهنيته المحصورة في القفلة والسودة وشهارة.. ولم يخرج بعد ذلك من صنعاء إلا إلى حمام دمت بقصد الاستشفاء، وإلى قرية بيت حاضر جنوب شرق صنعاء بمسافة ساعة بالسيارة، وهي الرحلة التي قتل أثناء عودته منها ... وهو لم يذهب إلى الحديدة ولا المخا أو مارب أو البيضاء أو قعطبة أو تعز رغم طول مدة حكمه المقارب لأربعين عاما.[2]

فما هي مجموع الخبرات التي سيكتسبها من هذه المناطق التي لم يغادرها؟! كان عليه ــ على الأقل ــ أن يزورَ المناطق التي يحكمها. فلقد وصل إليه الأوروبيون والعرب، للتعرف على شخصيته العجيبة، فيما هو لم يخرج إلى مناطق حكمه.!

تقدمت بريطانيا بإنشاء سكة حديدية من عدن إلى صنعاء فرفضها.[3]

وأوقف الشركة الفرنسية المقاولة لخط سكة الحديد من الحديدة إلى صنعاء، والتي كانت قد جهزت فيها خمسة أميال، وقد دفع الأتراك المبلغ كاملا للشركة الفرنسية، وكانت على أتم الاستعداد لتنفيذها دون أن يدفع الإمام ريالا واحدا، ومع هذا أوقفها.[4]

وفي عام ١٩٢٨جاءت إليه شركة البترول الأمريكية للتنقيب، فرفضها.

ربط الأتراك مدن اليمن بخط تلغراف واحد، وكان يستخدمها حتى المدنيون، فلما جاء الإمام يحيى جعل تكاليفها باهظة.[5]

---

(1) ــ نفسه، 48.

(2) ــ أحداث ثورة 55م، 23.

(3) ــ اليمن الثورة والحرب، 68

(4) ــ نفسه، 68.

(5) ــ نفسه، 68

وأغرب من ذلك حين يصف الإمام يحيى شعبَه بالخباثة، في محرر رسمي، بخط يده، لا مجرد زلة لسان، أو مزحة عابرة، مخاطبا حسين محمد الشريف: «وأنتم تعرفون خباثة أهل اليمن إلى جناب الإمام»..!(1)

إمام/ ملك/ رئيس البلاد، لم يتصور صورة واحدة في حياته قط..!! كان يرتاب من الكاميرا، ومن كل آلة لها علاقة بالحداثة..!

ــ عين حسين الكبسي مندوبا لليمن في الجامعة العربية، وأمره بالسكوت وعدم الكلام فيها، أو المشاركة، وكان هذا المندوب أضحوكة بين الناس، وصار يُضرب به المثل، ومن أراد التخلص من أي حديث مع الناس، رد عليهم: أنا كبسي..!(2). وقد وقفت الفنانة «أم كلثوم» ذات مرة في أحد المسارح دون أن تغني، فضجت الجماهير بمطالبتها، فردت: «أنا كبسي»..! فضجت القاعة بالضحك.

الإمام أحمد

من شابَه أباه فما ظلم، ولم يكن السيف أحمد إلا نسخة من أبيه يحيى حميدالدين في عقليته المتحجرة، وثقافته المنغلقة؛ بل وفي نزقه ورعونته. وكما قال الأكوع: يقتل لغير سبب، ويعفو بدون مسوغ.(3)

وكان كأبيه يتابع بنفسه كل صغيرة وكبيرة، حتى المكانس وفضلات البغال والخيل، والاستفسار عن تعداد محصول الرمان السليم والتالف والمفلع...(4)

وفي عهده كان أخوه إسماعيل وزير المعارف فلا يستطيع إدخال طالب المدرسة إلا بإذن منه أو من أخيه الحسن.(5)

---

(1) ــ وثائق يمنية دراسة وثائقية تاريخية، د. سيد مصطفى سالم، ط:2، 1985م، 368. ورقم الوثيقة في الكتاب: 65. ولفظة أهل اليمن تحتمل اليمن كاملا، وتحتمل ما كان يعرف سابقا بجنوب اليمن، التي تشتمل على: تعز وإب وما جاورهما.

(2) ــ انظر: ثورة اليمن الدستورية، 146.

(3) ــ أحداث ثورة 55، 30.

(4) ــ نفسه، 30.

(5) ــ تبرج الخفايا، مذكرات البردوني، 532.

وفي انغلاقه، ورفضه لكل قادم وافد كذلك، فقد «أمر بمنع الراديو من القهوات في المدن جميعها. ثم أمر ألا يُسمح بدخول أي مذياع من أي ميناء يمني إلا برخصة خاصة منه شخصيًا. وعلق في أمره هذا بأنه لم يكن من وراء دخولها غير الفساد».[1]

وحاول الإمام أحمد منع الصحف والمجلات التي تصل إلى اليمن من بعض البلدان، لكنه لم يفلح.[2]

كما علق في موقف آخر على كتب خالد محمد خالد بأنها «نجسة» وأن قارئها «الأكوع» خبيث..![3]

ومن عجائب الإمام أحمد أن عين أخاه السيف عبدالله وزيرا للخارجية، ثم كلفه بالنظر في شؤون الناس وعرْض ما يهم منها عليه.[4]، ويبدو أنه فهم أن الشؤون الخارجية هي ما كانت خارج قصره، لا خارج دولته..!

سافر في حياته ثلاث مرات خارجية فقط، عدن، وجدة، وروما. وفي رحلتيه إلى عدن وروما اصطحب معه القيود الحديدية، فكان يقيد بعض من غضب عنهم. وقد احتج عليه الإنجليز في عدن، مراعاة لآداب الضيف.[5]

وأثناء زيارته لعدن ذهب الإمام أحمد ــ بجلالة قدره ــ إلى مدرسة هناك، طالبًا من مدير المدرسة، الشيخ علي محمد باحميش فصلَ طالبين منها، لكونهما قد رفعا لافتات عند زيارته لمسجد العيدروس، وفعلا تم فصلهما..!![6]

قال الأكوع عن الإمام أحمد: كان في ساعات الملل يأتي بأعمال غير معقولة، فقد اشتم رائحة دخان سجائر، ولم يعترف من دخنها، فأمر بقلع ضرس واحد من كل النساء بالقصر، وهن أكثر من ٣٠ امرأة، بما فيهن أهله وأقاربه والجواري والبزايا «الخادمات المحليات»[7]

---

(1) ــ الفكر والموقف، الأعمال الكاملة، لطفي فؤاد أحمد نعمان، سابق، 49.

(2) ــ انظر: اليمن تحت حكم الإمام أحمد، أحمد عبيد بن دغر، 161.

(3) ــ أحداث ثورة 55م، 31.

(4) ــ مذكرات الإرياني 213/1.

(5) ــ أحداث ثورة 55، 29.

(6) ــ انظر لمحات من تاريخ الحركة الوطنية، 254/1. والطالبان هما: محمد أنعم غالب، ومحمد أحمد نعمان، ولم يذكر المؤلف طبيعة اللافتات التي أشار إليهما، لكن يبدو أن عليها عبارات تدل على معارضته.

(7) ــ أحداث ثورة 55م، 32.

قال نعمان عن الإمام أحمد عقب انقلاب ٥٥م: «فدفعني بأن أخطب وأصلي بالناس، فخطبنا، ولفتنا نظره للعفو، وبعد الصلاة قال: والله كأن الإسلام يتكلم من فم هذا الأستاذ، وإن قلبي رق. وخرج ليقتل في ذلك اليوم ثمانية أشخاص».!![1]

وقبل مماته أوصى بعمل صبّة سميكة على قبره، توجسًا من نبش القبر بعد وفاته..![2]

وكان أخوه الحسن، نائبه في صنعاء، يجمع السمن ويبيعه في أسواق صنعاء، حتى لقبه الناس بصاحب السُّمون، بدلا عن صاحب السمو..![3]

ليس هذا اللقب فحسب؛ بل لقد تهكم عليه العامة من الناس، فلقبوه: بزين العابثين.. حسن الصبرة.. حسن ركبة أبيه، وأيضا صاحب السمون..![4]

والحسن هو نفسه الذي أرسل مذكرة رسمية إلى المفوضية اليمنية بالقاهرة سنة ١٩٥٥م يقضي بإخراج جميع الطلبة اليمنيين من كلية التجارة، قائلا: إن اليمن ليست في حاجة إلى التجارة البتة، وأضاف: إن التجار في اليمن يديرون أعمالهم بغير شهادات من كلية التجارة.[5]

بعد هذا لنا أن نتساءل: هل هذا سلوك رئيس بلاد؟ هل هذا سلوك الملوك؟ أو السلاطين أو الأمراء؟؟! يا للعجب..! ولا عجب في عالم الإمامة وعوالمها..!!

---

(1) ــ مذكرات أحمد محمد نعمان، 59.

(2) ــ أحداث ثورة 55م، 28.

(3) ــ الثقافة والثورة في اليمن، 180.

(4) ــ انظر تبرج الخفايا، مذكرت البردوني، 1001. وأضاف البردوني في مذكراته: أما صاحب السمون فهو من صنعة محمد الخاوي، المصحح والمحرر في صحيفة الإيمان؛ لأن كبار تجار صنعاء كانوا يعلمون اتجار الحسن بالسُّمون الإبية الشهيرة بالنكهة الشهية، وبالأخص سمن «العَوْد»، وكان له من تجار صنعاء وكلاء ومشاركون. وكان الخاوي يضع «صاحب السمون» كخطأ مطبعي، ولم يفهم هذا القصد إلا الساسة المعارضين.

(5) ــ أسرار اليمن، الدكتور عبدالرحمن البيضاني، 130. كانت الضحية في هذه الرسالة طالب واحد، اسمه عبدالرؤوف، انتقل بعدها للدراسة في روما.

حكام اليمن في القرن العشرين

التاريخ.. الجغرافيا.. الثقافة.. ثلاثي رئيس ومهم في صياغة المحددات الأولية للتعامل مع أي شعب؛ إذ من واقع هذه العناصر الثلاثة تتشكل قوته وتتموضع استراتيجيته الوطنية، أو قل يتم ضبط بوصلته.

على أية حال.. اليمن من البلدان غير المستقرة، وتكاد الإمامة منذ العصر الوسيط وإلى اليوم تمثل السبب الأبرز والأول في المشكلة/ الإشكالية اليمنية التي خلخلت بنية المجتمع، وقوضت أركان الدولة.

1. الإمام يحيى حميد الدين.. قتيلا

فيما بين عامي ١٩٠٤ ـ ١٩٤٨م كانت فترة حكم الإمام يحيى حميد الدين بعد خروج الأتراك من اليمن، ويعتبر أطول حاكم حكم اليمن في القرن العشرين، حوالي ٤٤ عاما، كانت فترة حروب وصراعات داخلية وخارجية، لم يستقر خلالها اليمن سنة واحدة تقريبا؛ لأن الإمام يحيى الذي ناوأ الأتراك، وقاوم وجودهم ووقع معهم اتفاقية الخروج تبدى بعدهم أسوأ منهم، ولم يوصف بأكثر من طاغية، وهو بحق كذلك، إذ لم يحقق لليمن منجزا واحدا يذكر خلال فترة حكمه الطويلة، وقد أنهى حياته صريعا على يد الشعب في ١٧ فبراير/ شباط ١٩٤٨م، قبل أن تبدأ ثورة يوليو ٥٢م المصرية، إلا أنها آلت للفشل رغم عدالة قضيتها.

الإمام عبدالله الوزير.. قتيلا

عبدالله بن أحمد الوزير، ١٨٨٥ – ١٩٤٨م، كان مقربا من الإمام يحيى مع بقية أسرته من آل الوزير، وخاصة علي الوزير، وهو الذي مثّل الإمام يحيى في اتفاقية الطائف مع المملكة العربية السعودية، سنة ١٩٣٤م. اتفق مع ثوار

٤٨م على أن يخلف الإمام يحيى، بعد أن أقنعهم بضرورة التخلص منه عقب تسرب برنامج الثوار الذي كان مُعدا إلى ما بعد وفاة الإمام يحيى. ولم تدم إمامته شهرا واحدا حتى انقلب عليه أحمد حميدالدين، وكان من أوائل من تم إعدامهم بحجة، وبُعث برأسه إلى صنعاء، ولعبت به النساء ثم علق على مرأى ومسمع في صنعاء.

الإمام عبدالله بن يحيى حميدالدين.. قتيلا

لا يشبهه في قصر المدة ممن سبقه إلا الإمام عبدالله الوزير عقب الثورة الدستورية التي فشلت في أقل من شهر واحد على قيامها، أما ممن بعده فلا يشبهه إلا ابن أخيه البدر، ويلقب بإمام الخمسة الأيام، حيث انقلب على أخيه أحمد حميدالدين في تعز، مع المقدم أحمد الثلايا، في ٣١ مارس ١٩٥٥م، يعاونه شقيقه الآخر العباس، إلا أن الإمام أحمد استطاع الالتفاف على الانقلاب والقضاء عليه في خمسة أيام، ثم قضى على رؤوس الانقلاب، ومن بينهم أخويه: الإمام عبدالله، والعباس، علما أن بعض مناطق اليمن حينها لم تعلم عن قصته هذه إلا بعد إعدامه، بحكم العزلة المضروبة على البلاد حينها.

2. الإمام أحمد بن يحيى حميد الدين.. متأثرا بجراح محاولة الاغتيال

كعادة الأئمة الذين اعتادوا توريث الحكم على الرغم من أن أدبيات الفقه الزيدي/ الهادوي تقول بعكس ذلك، فقد ورث الإمام أحمد عرش أبيه بالقضاء على الثورة الدستورية عام ٤٨م، مواصلا سياسة والده الطغيانية والقمعية، ولم تهدأ له حياة، كما هو الشأن مع والده الذي قضى حياته السياسية من انتفاضة إلى أخرى، ومن تمرد إلى تمرد آخر، بسبب سياسة الحكم التي مارساها، إلى حد خروج بعض الإخوة على أخيهم كما حدث

مع عبدالله والعباس أخوي الإمام أحمد اللذين انقلبا عليه مع المقدم الثلايا في ١٩٥٥م، وانتهت حياته السياسية في الاغتيال الذي نفذه كل من محمد عبد الله العلفي وعبد الله اللقية ومحسن الهندوانة في مستشفى الحديدة في مارس ١٩٦١م، وإن بقي حيا بعدها حتى ١٩ سبتمبر ٦٢م؛ لكنه حبيس الفراش يعاني آلام الرصاص التي اخترقت جسده.

3. الإمام محمد البدر بن الإمام أحمد.. مخلوعا طريدا

كانت الإمامة بشكل عام تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد مئات السنين من الطغيان الذي مارسوه على اليمنيين، ولذا فما كاد يستوي الإمام البدر على عرش الحكم في يومه السادس حتى قامت أعظم ثورة إنسانية في حياة اليمنيين في ٢٦ سبتمبر ٦٢م، قضت على الإمامة نهائيا وخلعت الإمام البدر، ثم طاردته مشردًا في الجبال حتى تجاوز الحدود اليمنية باتجاه الشمال، ولم يعد بعدها إلى اليمن حتى توفي في منفاه في لندن في العام ١٩٩٦م، وتم نقل جثمانه إلى المدينة المنورة؛ حيث دفن هناك..

4. الرئيس عبدالله السلال.. مخلوعا طريدا

يعد الزعيم عبدالله السلال الأب الأكبر للثورة اليمنية باعتباره الرئيس الأول الذي لعب دورًا نضاليًا كبيرًا، وساهم بشخصيته الكاريزمية في تثبيت أركان الجمهورية، إلا أن فترته كلها شهدت حروبا أهلية ضارية بسبب الثورة المضادة التي أشعلها الأئمة، ولم تهدأ إلا بعد رحيله عن منصبه بثلاث سنوات بمصالحة سياسية شهيرة عام ١٩٧٠م. وعلى الرغم من ثوريته الصادقة وتفانيه المخلص للثورة وللوطن إلا أنه دخل في صراعات حادة أيضا مع بعض فصائل الثوار أنفسهم الذين لا يقلون عنه إخلاصا ونضالا وعلى رأسهم أبو الأحرار الشهيد محمد محمود الزبيري رحمهما الله، وأيضا بعض مشايخ القبائل، أفضى الأمر إلى تدبير انقلاب أبيض عليه في خمسة نوفمبر ١٩٦٧م برئاسة القاضي عبدالرحمن الإرياني.

5. القاضي عبدالرحمن الإرياني.. مخلوعا طريدا

يعتبر القاضي عبدالرحمن الإرياني من أعلام اليمن المعاصرين وأحد أبرز الوجوه الثورية منذ الثورة الدستورية، وشغل عدة مناصب في عهد الإمام يحيى وأيضا في عهد الإمام أحمد، كما شغل مناصب سياسية أيضا في العهد الجمهوري الجديد، ونتيجة للصراع الذي استجد بين مختلف الفصائل الثورية نفسها عقب اندلاع ثورة ٢٦ سبتمبر فقد كان هناك توافق أو شبه توافق وإجماع على أن يخلف القاضي الإرياني الرئيسَ السلال، كحل وسط من قبل الجميع وخاصة مشايخ القبائل الذين مالوا إليه كثيرا، وكانوا متوجسين من حكم العسكر، كما أنهم لم يجدوا بغيتهم في تحقيق مصالحهم الخاصة في عهد الرئيس السلال الذي كان صارما إلى حد كبير في التعامل معهم، على العكس من القاضي الإرياني الذي اتخذ سياسة المهادنة واللين مع الجميع، وهي سمة خاصة عرف بها، فاستغلها المشايخ الكبار الذين لعبوا أدورا سياسية آنذاك، وكانوا بمثابة الحكام الفعليين لليمن في عهده، بينما تبدى هو بمثابة المدير التنفيذي لهم. وهو ما أفرز حالة من الفساد المالي والإداري وضعف الدولة، فقاد عليه الضباط الجدد ومعهم بعض المثقفين انقلابا أبيض في العام ١٩٧٤م برئاسة العقيد إبراهيم الحمدي رحمه الله.

6. الرئيس الحمدي.. قتيلا

قاد العقيد إبراهيم الحمدي «المقدم لاحقا» انقلابا أبيض ضد سلفه القاضي عبدالرحمن الإرياني، محتفظا له بالود والاحترام، وودعه إلى سلم الطائرة التي أقلعت من مطار تعز نحو دمشق، حيث استقر هناك حتى توفي في العام ١٩٩٨م، وقد كان عهده ـ على قصره ـ أفضل عهدٍ عرفه اليمنيون، كون الرجل يحمل مشروعا في البناء والتغيير، خلافا لمن خلفه، ومع هذا فقد كانت نهايته مفجعة لليمن واليمنيين، قتيلا في منزل نائبه الغشمي، في أسوأ عملية غدر يعتبرها اليمنيون من العيب الأسود.

7. الرئيس الغشمي.. قتيلا

كان من الطبيعي أن يخلف الرئيس الحمدي سلفه، باعتباره نائب رئيس الجمهورية، على الرغم من محدودية كفاءته، سواء العسكرية أم السياسية، مستغلا فراغ المنصب، ومتوقعا لنفسه حياة طويلة في المنصب الجديد، على الرغم من لعنات الشعب التي ظلت تلاحقه من أول لحظة تم فيها إعلان اغتيال الرئيس الحمدي وإلى اليوم، مع أنه واحد من القتلة المباشرين إلا أن كون القتل في منزله عقب دعوة غداء لرئيسه أظهرته القاتل الرئيسي والأول - وهو بحق كذلك - ولم تدم فترة رئاسته إلا أشهرا محدودة من ١١ أكتوبر ١٩٧٧ إلى ٢٤ يونيو ١٩٧٨م. وهي أقصر فترة رئاسية لرئيس يمني جمهوري، انتهت به مقتولا بحقيبة ملغومة من قبل مبعوث من قيادة الشطر الجنوبي آنذاك، تطايرت أشلاؤه مزقا في مكتبه بصنعاء.

8. علي عبدالله صالح.. قتيلا

في ١٧ يوليو ١٩٧٨م تسلم رئاسة اليمن علي عبدالله صالح، وهو أحد الضباط العسكريين الذي لم يخض غمار السياسة بعد، لكن حنكته ودهاءه أوصله إلى هذا المنصب وهو بسن السادسة والثلاثين عاما، لا يجيد القراءة ولا الكتابة، ولا يحمل حتى الثانوية العامة، مستمرا في منصبه هذا ما يزيد عن ثلاثة وثلاثين عاما، كأطول رئيس جمهوري حكم اليمن، وثاني حاكم بعد الإمام يحي في القرن العشرين، كان له ما له، وعليه ما عليه، وضُرب به المثل في الدهاء والمكر السياسي المصحوب بتكتيك نادر تفوّق به على كل خصومه وأصدقائه، مكنه هذا الدهاء والمكر من حكم طويل أشبه بالملك لا بالرئيس، ومع هذا فقد خانه دهاؤه وتلاشت حنكته السياسية حين أساء التعامل مع ثورة ١١ فبراير عام ٢٠١١م وتسبب في قتل ما يزيد عن خمسين شابا من شباب الثورة فيما عرف بيوم جمعة الكرامة، تسبب هذا الفعل في خلعه عن الحكم بمصالحه سياسية رعتها المملكة العربية السعودية، وحفظت له ماء وجهه، غير أنه رأى نفسه مغبونًا في ذلك، مقررا الانتقام

من خصومه السياسيين، فتحالف مع أسوأ عصابة حكم عرفها التاريخ، هي الجماعة الحوثية التي خرج عليها لاحقا، لكنها داهمت منزله، ثم لاحقته وقتلته قتلة غادرة، فجعت الشارع اليمني والعربي على حد سواء، وصارت حديث الخاصة والعامة، في أبرز حدث في العام ٢٠١٧م إن لم يكن حدث القرن كاملا.

في الجنـــــوب

1. قحطان الشعبي.. مسجونا

يعتبر الرئيس قحطان الشعبي من أفضل رؤساء اليمن شمالا وجنوبا؛ حيث كان يحمل شهادة البكالوريوس في الهندسة الزراعية، وصدر له كتاب بعنوان: "الاستعمار البريطاني ومعركتنا العربية في جنوب اليمن". فقد كان اشتراكيا معتدلا في أفكاره وسط قيادات متطرفة كثر، وقد شارك في ثورة ١٤ أكتوبر في الجنوب عام ٦٣م بالمال والسلاح والرجال. وترأس بعد الاستقلال جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية عقب توقيعه وثيقة الاستقلال في جنيف مع اللورد شاكلتون، واستقبله شعب الجنوب يوم ٣٠ نوفمبر استقبالا مهيبا، وعلى الفور وفي نفس اليوم تم انتخابه من قبل الجبهة القومية رئيسا للجمهورية. في يوم ٢٢ يونيو ٦٩م.

تم إجباره على تقديم استقالته مع رئيس الوزراء آنذاك فيصل عبداللطيف الشعبي من قبل الجناح اليساري المتطرف، وظل في منزله رهن الإقامة الجبرية حتى العام ١٩٧٠م، ثم تم نقله إلى السجن الذي ظل قابعا فيه حتى أعلنت السلطة وفاته في السجن في ٧ يوليو ١٩٨١م.

2. سالم ربيع علي.. قتيلا

قاد انقلابا على سلفه المعتدل، في ٢٢ يونيو ١٩٦٩م، وظل في الحكم رئيسا لجمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية حتى ٢٢ يونيو ١٩٧٨م، حيث تم

القبض عليه، ثم إعدامه رميا بالرصاص من قبل الجناح الأكثر تطرفا يوم ٢٦ يونيو من نفس الشهر، برئاسة عبدالفتاح إسماعيل.

3. عبدالفتاح إسماعيل.. مخفيا حتى اللحظة

يعتبر عبدالفتاح إسماعيل «فتاح» المؤسس الحقيقي للحزب الاشتراكي اليمني بصيغته الراديكالية، كما كان أحد مؤسسي الجبهة القومية للتحرير قبل ذلك منذ الستينيات، وله اهتمامات أدبية وثقافية واسعة، وقد دخل في صراع مع رفاقه، وعلى رأسهم علي ناصر محمد، وانتهى به الأمر مخفيا، لا يُعرف مصيره إلى اليوم، فيما يقول التقرير الخاص من اللجنة المكلفة بالتحقيق حول مصيره أنه احترق داخل مصفحة تعرضت لكمين قرب القيادة البحرية، مع أن التقرير لم يرفق دليلا على ذلك.

4. علي ناصر محمد.. مخلوعا طريدا

في العام ١٩٨٠م استقال عبدالفتاح إسماعيل من منصبه كرئيس للجمهورية، مغادرا إلى موسكو، ليخلفه في ذات المنصب الاشتراكي الأكثر براجماتية علي ناصر محمد الحسني حتى العام ١٩٨٦م حيث عاد عبدالفتاح إسماعيل من موسكو بعد رحلة طبية طويلة؛ مطالبا باستعادة حكمه، فرفض ناصر ذلك، ودخل الطرفان في مصادمات عسكرية تكللت بمجازر مروعة في ١٣ يناير ١٩٨٦م في عدن، واستمرت حتى ٢٤ من نفس الشهر، وفي ذلك اليوم استطاع ناصر الفرار مع فريقه إلى شمال الوطن، مخلوعا مطارا، ليخلفه بعد اختفاء فتاح علي سالم البيض.

5. علي سالم البيض.. مخلوعا مطاردا

بعد مجزرة ١٣ يناير ٨٦م وفرار علي ناصر محمد إلى شمال الوطن استطاع علي سالم البيض النجاة من تلك المذبحة المروعة، ووصل إلى سدة الحكم، مستغلا فرار ناصر ومقتل فتاح، واستمر حتى قيام الوحدة اليمنية بين

شطري الوطن عام ٩٠م، وحينها تم انتخابه نائبا لرئيس الجمهورية اليمنية، وفي العام ١٩٩٤م أعلن انفصال جنوب الوطن عن شماله، وفشل في دعوته، وعلى إثر ذلك كانت حرب صيف ٩٤م، التي أدت إلى فراره خارج الوطن، ولا يزال حتى اللحظة.

الرئيس عبد ربه منصور هادي، تمت مطاردته

الرئيس الثاني للجمهورية اليمنية، باستفتاء شعبي في ٢١ فبراير ٢٠١٢م، وقد كان نائبا للرئيس قبل ذلك منذ العام ٩٤م. غادر صنعاء فارا بجلده نحو عدن من اعتداءات ميليشيا الحوثي المسلحة التي اعتدت عليه ولحقته إلى هناك، ومن ثم غادر اليمن، نحو المملكة العربية السعودية، ليقود الشرعية في وضع استثنائي خالص لا تزال فصوله تعتمل على الساحة.

هذه لمحة سريحة وموجزة عن مصائر رؤساء اليمن في القرن العشرين، ولا ندري ما ذا يخبئ المستقبل للحكام القادمين..!!

أخيـــراً..

لم يستكن اليمنيون يوما ما تجاه العدوان الإمامي من قبل مجيئ الرسي، وحتى ما بعده، وإلى اليوم. تاريخ من المواجهة والنضال والمقاومة لأسوأ عصابة كهنوتية، تسعى للإمساك بالسلطة أولا، ومن ثم تقمع المخالفين لها.

وما يروج له دهاقنة الإمامة من أن اليمنيين محبون لما يسمى بآل البيت، أو متشيعين لهم فادعاء زائف تكذبه وقائع اليمنيين في مختلف مراحل النضال، فقط قليل من الجهلة الأغرار ممن يتبعونهم ليجعلوا منهم حطب صراعهم فقط؛ ولهذا يجيدون التخريب، ولا يجيدون الإصلاح؛ لأن أمر التخريب سهل، وسهل جدا، خلافا لأمر البناء والإصلاح والتعمير.

كما يروجون أيضا لوهم التعايش بين ما يسمونه «الزيدية والشافعية». وهذا أيضا من الوهم، والوهم الكبير الذي يسوقونه لأنفسهم، فليس ثمة تعايش البتة، هناك حروب وصراعات عبر التاريخ، وهاتوا لي سنة واحدة لأي إمام من الأئمة خلت فتره من حروب وصراعات وغزوات من لدن يحيى حسين إلى اليوم. وما نشهده اليوم بين أيدينا خير دليل على ذلك. فبين يدينا نموذج الحوثي، الطبعة الإمامية الجديدة، سيكتب مؤرخوهم يوما ما أن الحوثي تعايش مع المجتمع اليمني، وأن اليمنيين قد رحبوا بحكم سليل فاطمة..!!

هكذا فعلوا مع أئمتهم الطغاة بالأمس، والذين أضفوا عليهم طابع القداسة والتبجيل، فيما هم في الواقع مجرمون غزاة، وطغاة.

لقد لاحظنا من خلال الاستعراض السابق سلسلة طويلة ممتدة من الصراع، وهو في الواقع صراعٌ بين غازٍ ومقاوم، فُرض من طرف واحد، ولا يزال هذا الصراع ماثلا بين يدينا اليوم، وسيظل كذلك حتى يتم القضاء

على هذا الداء الخبيث الذي أحال حياتنا وحياة أبنائنا إلى جحيم لا يطاق.

ومع هذا.. فالحال كما يقال: إن كنتَ ريحًا فقد لاقيت إعصارًا.

يتذكر اليمنيون اليوم قوميتهم العريقة وتاريخهم المجيد، لا للغوص فيه، ولكن للانطلاق منه برؤية عصرية جديدة، متجاوزة كهانة الإمامة التي تحاول التسلل من خلالها إلى عقول الجيل الجديد.

قائمة المصادر والمراجع

١ – أحداث ثورة ٥٥م، العميد محمد علي الأكوع، منتدى النعمان والزبيري للفكر والتوثيق، ط:١، ٢٠٠٤م.

٢ – أدب الطلب، محمد بن علي الشوكاني، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٧٩م.

٣ – الأدب والثقافة في اليمن عبر العصور، محمد سعيد جرادة، دار الفارابي، بيروت، ط:١، ١٩٧٧م.

٤ – الاستقلال الضائع الملف المنسي لأحزان اليمن الجنوبية، عبده حسين سليمان أدهل، دار العهد للطباعة والنشر، ط:٢، ١٩٩٣م.

٥ – أسرار اليمن، الدكتور عبدالرحمن البيضاني، د، د. د، ت.

٦ – أسرار ووثائق الثورة اليمنية، لجنة من تنظيم الضباط الأحرار، مؤسسة العفيف الثقافية، ط:٤، ٢٠٠٢م.

٧ – الأعمال الشعرية الكاملة، محمد محمود الزبيري، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م.

٨ – الإكليل، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، مطابع السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٦م.

٩ – الإمام الشهيد يحيى حميد الدين، أحمد بن محمد بن الحسين بن يحيى حميد الدين، د، د. د، ت.

١٠ – الأمم السامية مصادرها وتاريخها وحضارتها، حامد عبد القادر، دار نهضة مصر للطبع والنشر، د. ط. د. ت.

١١ – أيام وذكريات، د. حسن محمد مكي، دار عبادي للنشر والدراسات، ط:١، ٢٠٠٨م.

١٢ – التاريخ السري للثورة اليمنية، اللواء عبدالله جزيلان، منشورات العصر الحديث، ط:٣، ١٩٨٧م.

١٣ – التاريخ العام لليمن، محمد يحيى الحداد، ط:١، ٢٠٠٨م، مكتبة الإرشاد، صنعاء.
١٤ – تبرج الخفايا، مذكرت البردوني، د، د. د، ت.
١٥ – التجربة النهضوية الألمانية، د. عبدالجليل أميم، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ط:١، ٢٠١٤م.
١٦ – التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية حتى نهاية دولة حمير، د. نورة بنت عبدالله علي النعيم، الرياض، ٢٠٠٠م.
١٧ – التطور السياسي للجمهورية العربية اليمنية، ١٩٦٢ــ ١٩٨٥م، جلوفكايا إيلينا. ك، ترجمة: محمد علي البحر، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط:١، ١٩٩٤م.
١٨ – تكوين اليَمَن الحديث، د. سيد مصطفى سالم، دار الأمين للنشر والتوزيع، ط:٤، ١٩٩٣م.
١٩ – الثقافة الجمهورية، د. علي محمد زيد، د، د.
٢٠ – الثقافة والثورة في اليمن، عبدالله البردوني، د. ن، ط:٤، ١٩٩٨م.
٢١ – ثورة اليمن الدستورية، المشير عبدالله السلال، المقدم حسين عنبة، العميد حسين الدفعي، المقدم مجاهد حسن غالب، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط: ١، ١٩٨٥م.
٢٢ – الجديد في تاريخ دولة وحضارة سبأ وحمير، محمد حسين الفرح، وزارة الثقافة والسياحة، ٢٠٠٤م.
٢٣ – حرب الشائعات الإمامة الهادوية في اليمن تاريخ من الافتراء، د. ثابت الأحمدي، مركز النهضة اليعربية، ٢٠٢٠م.
٢٤ – حركة المعارضة اليمنية في عهد الإمام يحيى بن محمد حميدالدين، الدكتور أحمد قايد الصائدي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط:٢، ٢٠٠٤م.
٢٥ – الحركة الوطنية اليمنية من الثورة إلى الوحدة، سعيد أحمد الجناحي، مركز أمل للدراسات والنشر، ط:١، ١٩٩٢م.
٢٦ – حضارة العرب، د. جوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م.

٢٧ - حوليّات يمانية، اليمن في القرن التاسع عشر الميلادي، «مؤلف غير معروف» حققه: عبدالله محمد الحبشي، دار الحكمة اليمانية، ط:١، ١٩٩١م.

٢٨ - خمسون عاما في الرمال المتحركة قصتي مع بناء الدولة الحديثة في اليمن، محسن العيني، دار النهار للنشر، بيروت، ط:١، ١٩٩م.

٢٩ - الدور المصري في اليمن، د. أحمد يوسف أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م.

٣٠ - ذخرة الأحياء في مناقب الشيخ علي بن يحيى، وأيضا: الدر المنتثر في مدح الشيخ علي بن يحيى المنتصر. «مخطوط».

٣١ - رسالة من على سرير الموت، عبدالله بن علي الوزير، مركز التراث والبحوث اليمني، صنعاء، ط:١، ٢٠٢٠م.

٣٢ - روح الثورات والثورة الفرنسية، جوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.

٣٣ - رياح التغيير في اليمن، أحمد بن محمد الشامي، ط:١، ١٩٨٤م.

٣٤ - الزهر والحجر التمرد الشيعي في اليمن وموقع الأقليات الشيعية في السيناريو الجديد، عادل الأحمدي، مركز نشوان الحميري للدراسات والنشر، ط:٢، مارس، ٢٠٠٧م.

٣٥ - سيرة الإمَام أحمد بن سليمان، سليمان بن يحي الثقفي، تحقيق: الدكتور عبدالغني محمد عبدالعاطي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط:١، ٢٠٠٢م.

٣٦ - سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين المسماة كتيبة الحكمة من سيرة إمام الأمة، عبدالكريم أحمد مطهر، دراسة وتحقيق: محمد عيسى صالحية، دار البشير، الأردن، ط:١، ١٩٩٨م.

٣٧ - سيرة الهَادي إلى الحَق يحيى بن الحسين، علي بن محمد عبدالله العلوي، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط:٢، ١٩٨١م.

٣٨ - سيكولوجيا النظرية الهادوية في اليمن قراءة في البنية النفسية للنظرية، د. ثابت

الأحمدي، مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام، ط:١، يناير، ٢٠٢١م.
٣٩ - شاهد على اليمن أشياء من الذاكرة، أحمد جابر عفيف مؤسسة العفيف الثقافية، ط:١، ٢٠٠٠م.
٤٠ - صفحات من تاريخ اليمن في ريمة، حيدر علي ناجي العزي، ط:١، ٢٠١٨م.
٤١ - الطريق إلى الحرية، مذكرات العزي صالح السنيدار، ط:٢، ١٩٩٨م.
٤٢ - قصة الأدب في اليمن، أحمد محمد الشامي، مكتبة الإرشاد، صنعاء.ط:١، ٢٠٠٧م.
٤٣ - اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، محمد بن إسماعيل الكبسي، تحقيق وضبط: أبي حسان خالد أبي يزيد الأذرعي، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ط:١، ٢٠٠٥م.
٤٤ - لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، علي محمد عبده، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية ومنتدى النعمان الثقافي للشباب، ط:١، يناير، ٢٠٠٢م.
٤٥ - مجلة الحكمة اليمانية وحركة الإصلاح في اليمن، ١٩٣٨ ــ ١٩٤١م، دراسة ومقالات، د. سيد مصطفى سالم، علي أحمد أبو الرجال، مركز البحوث والدراسات اليمني، ط:٢، ١٩٨٨م.
٤٦ - محمد أحمد نعمان الفكر والموقف، الأعمال الكاملة، لطفي فؤاد أحمد نعمان، ط:١، مارس، ٢٠٠١م.
٤٧ - مذكرات أحمد محمد نعمان سيرته حياته الثقافية والسياسية، مراجعة وتحرير: د. علي محمد زيد، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٣م.
٤٨ - مذكرات الرئيس القاضي عبدالرحمن الإرياني، د، د. ط:١، ٢٠١٣م.
٤٩ - مذكرات الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر قضايا ومواقف، ط:٢، ٢٠٠٨م.
٥٠ - مصرع الابتسامة سقوط مشروع الدولة الإسلامية في اليمن، ١٩٣٨ ــ ١٩٤٨م، حميد أحمد شحرة، المركز اليمني للدراسات الاستراتيجية، ط:١، ١٩٩٨م.
٥١ - معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن، محسن أحمد العيني، دار الشروق، ط:١، ١٩٩٩م.

٥٢ – معجم البلدان، إبراهيم أحمد المقحفي، دار الكلمة للطباعة والنشر، صنعاء، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ٢٠٠١م.

٥٣ – مغامرات مصري في مجاهل اليمن، الدكتور مصطفى الشكعة، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط:١، ١٩٨٥م.

٥٤ – المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، د. د. ط:٢، ١٩٩٣م.

٥٥ – من الأنين إلى الثورة، د. عبدالعزيز المقالح، دار العودة، بيروت، ط:١، ١٩٨٨م.

٥٦ – من وراء الأسوار مناقشة حول مستقبل اليمن، مجموعة كتاب، دار الكاتب العربي، بيروت، د، ت.

٥٧ – مهمة في الجزيرة العربية، ديفيد سمايلي بالاشتراك مع بيتر كمب، ترجمة: حامد مانع، اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، ط:١، ١٩٨٩م.

٥٨ – الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، عربي، إنجليزي، د. إسماعيل عبدالفتاح عبدالكافي، د. د.

٥٩ – مئة عام من تاريخ اليمن الحديث، د. حسين عبدالله العمري، دار الفكر، دمشق، ط:١، ١٩٨٤م.

٦٠ – نظام الرهائن في اليمن في عهد المملكة المتوكلية اليمانية، ١٩١٨: ١٩٦٢م، أمين محمد علي الجبر، «رسالة ماجستير، جامعة صنعاء، ٢٠٠٥م.

٦١ – نظرة في بعض قضايا الثورة اليمنية، د. محمد علي الشهاري، مكتبة مدبولي، ط:١، ١٩٩٠م.

٦٢ – نعمان الصانع الأول لقضية الأحرار، محمد محمود الزبيري، الاتحاد اليمني، القاهرة، لجنة الثقافة والنشر، د، ت.

٦٣ – الهادوية بين النظرية السياسية والعقيدة الإلهية، ثابت الأحمدي، وزارة الثقافة، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر، ط:١، ٢٠١٨م.

٦٤ – هِجَر العلم ومعاقله في اليمن، القاضي إسماعيل بن علي الأكوع، دار الفِكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط:١، ١٩٩٥م.

٦٥ – وثائق أولى عن الثورة اليمنية، المشير عبدالله السلال، القاضي عبدالرحمن الإرياني، القاضي عبدالسلام صبرة، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط:٢، ١٩٩٢م.

٦٦ – وثائق يمنية دراسة وثائقية تاريخية، د. سيد مصطفى سالم، ط:٢، ١٩٨٥م.

٦٧ – يتيمة الأحزان، تقية بنت الإمام يحيى حميدالدين، د. د، ٢٠٠٨م.

٦٨ – اليمن الإنسان والحضارة، عبدالله بن عبدالوهاب الشماحي، منشورات المدينة، بيروت ــ لينان، ط:٣، ١٩٨٥م.

٦٩ – اليمن الثورة والحرب حتى عام ١٩٧٠م، إدجار أوبلانس، ترجمة وتعليق: دكتور عبدالخالق محمد لاشيد، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط:٢، ١٩٩٠م.

٧٠ – اليمن الجمهوري، عبدالله البردوني، ط:٦، ٢٠٠٨م.

٧١ – اليمن الخضراء مهد الحضارة، محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الجيل الجديد، ط:٢، ١٩٨٢م.

٧٢ – اليمن تحت حكم الإمام أحمد ١٩٤٨ ــ ١٩٦٢م، د. أحمد عبيد بن دغر، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٥م.

٧٣ – اليمن ثورة وثوار، عبدالرحيم عبدالله، د، د. د، ت.

٧٤ – اليمن في التاريخ الإسلامي الباكر، د. عبدالمحسن المدعج، ترجمة: د. قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط:١، ٢٠٠٩م.

٧٥ – اليمن مكانتها في القرآن والسنة، عبد الملك الشيباني، مكتبة خالد بن الوليد، عالم الكتب اليمنية، د. ط، ٢٠٠٣م.

٧٦ – يوم ولد اليمن مجده ذكريات عن ثورة ٢٦ سبتمبر، عبدالغني مطهر، د، د.

مواقع ودوريات

- مجلة الإكليل العدد 1، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، 1987م.

- مجلة اليمن الجديد، أكتوبر، 1980م.

- صحيفة الجمهورية، بتاريخ 27/9/ 2012م.

88%D8%B1%D8%A9_26_%:%https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AB%D9
84%85%D8%A8%D8%B1_%D8%A7%D9%D8%B3%D8%A8%D8%AA%D9
8A%D8%A9%86%D9%85%D9%8A%D9%:%D9

- صحيفة الجمهورية، بتاريخ 1/16/ 2008م، مذكرات محمد عبدالواسع الأصبحي. وأيضا موقع «يمرس» على الرابط: https://www.yemeress.com/algomhoriah/2054231

- موقع قناة الجزيرة، لقاء مع سعدالدين الشاذلي، على الرابط: https://youtu.be/aEZ-tplUbpk?t=100

- موقع مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام، على الرابط: https://m.facebook.com/story.php?story_fbid=2332165896908705&id=234264290032220

- موقع نيوز يمن، على الرابط: https://m.facebook.com/newsyemen/photos/pb.1384643625110107.-2207520000.1569562937./2439388126302313/?type=3&source=43

الفهـــرس	الصفحة
الـمـقـدمة	**11**
الأوطان في وجدان الشعوب	**15**
المنطلقات الكبرى في الثقافة اليمنية	**23**
اليمن في التوراة والقرآن	**31**
النضال اليمني.. جذور وبذور	**39**
محطات من نضال الأحرار	**41**
1ـ أحمد بن يزيد القشيبي.. قادح الشرارة الأولى	41
2ـ الهمداني.. مؤسس مداميك النضال	44
3ـ نشوان بن سعيد الحميري.. المجدد الديني	47
4ـ المطرفية.. في سبيل التجديد الفكري والثقافي	49
5ـ مدارس الإصلاح الديني.. التجديد الفقهي	51
6ـ ثورة الفقيه سعيد بن ياسين.. أفق جديد في مسار النضال	53
النضال الوطني في القرن العشرين	**55**
1ـ معارضات عائلية	55
2ـ انتفاضة المقاطرة	59
3ـ الزرانيق	60
4ـ هيئة النضال	62
5ـ مجلة الحكمة اليمانية	68
6ـ كتيبة الشباب اليمني	84
7ـ هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	90
8ـ في طريـــق اليقـــين 1	101
9ـ جمعية الإصلاح	107

الفهـــرس

الصفحة	
109	10ـ في طـريـــق اليقين 2
130	11ـ ثورة 48م.. اليقين الثوري
156	12ـ الاتحـــــاد اليمني
161	13ـ انقلاب 1955م
173	14ـ حركة إبليس
175	15ـ حركة العلفي واللقية والهندوانة
180	16ـ 26 سبتمبر الفكرة والثورة
195	**26 سبتمبر.. الحدث وتداعياته**
201	**المواقف الخارجية**
201	**الموقف في عدن**
202	الموقف البريطاني
204	الموقف الأمريكي
208	موقف الكيان الصهيوني
211	**ثورية 26 سبتمبر لا انقلابيتها**
219	**مصر وثورة اليمن.. خلود النضال وشرف الموقف**
225	**ثورة 26 سبتمبر.. الإنجاز والإخفاق**
233	**مع الزبيري في وثنياته**
241	**أئمة.. سلوكهم كأفكارهم..!**
249	**حكام اليمن في القرن العشرين**
257	**أخيـــراً..**
259	**قائمة المصادر والمراجع**

تم
بحمد الله

لا يجوزُ لصحافي أن يكتبَ عن مفكر رأيًا، فالمسافة بعيدة، والبونُ شاسع كما يقولون. وإذا كان ثمة مفكر يتخلق في اليمن، ويستحق هذه الصفة فإنه «ثابت الأحمدي».

حينما تستبد بي الكلمات، وتعجزُ الرؤية عن تبيان ما وراء ضباب المؤامرات والأحداث ألوذُ إليه ليشملني بمعرفةٍ واعية، ويتيحُ لي من جديدٍ القدرة على سبك المقالات برؤى نافعة للقارئ.

في هذا الكتاب يفتح الزميل «ثابت الأحمدي» أفواه الفُصول الصّامتة من تاريخ الأمة اليمانية، فيُسمعنا صوتها، ويُرينا حقيقتها، ويبين لنا أسرارها، ويسردُ لنا أحداثها بتسلسلٍ مدهش.

كتابٌ يعلنُ عن أول سيفٍ استُلَّ في مواجهة البغاة والغزاة، ويجيبُ عن أسئلة أعجزت العابرين على المَلف اليماني في فهم طبيعة الحرب الدائرة اليوم، ولو أنهم مروا إلى عقل وقلم «ثابت الأحمدي» لعرفوا أنَّ اليمنَ العظيم لا ولن يقبل الانحناء للخرافة والاستعباد، وأنَّ الأبطالَ الذين أخرجوا من زهو الخلود، عادوا بفضل هذا الكتاب التاريخي العميق إلى أمجادهم.

بهذا الكتاب - الذي أعتبره أنضج ما كُتب عن الرحلة اليمانية في مقاومة العنصرية السُّلالية الإماميّة - نجد أنفسنا ملزمين بقراءته مرة ومرات، لنوصله إلى عقول أطفالنا، ليعلموا أن أجدادَهم كانوا السيف والدرع، اللسان والقلب، والعقل والضمير. وأن ما أنجزوه لن يضيع ولن تدفنه كلُّ أطنان التراب الذي أهاله الإماميون العنصريون على رفاتهم وبطولاتهم . ففي هذه الصفحات نقرأ اكتشافًا يطاول النفائس الآثارية، وسفرًا يضاهي ألف ملحمة، وقصرًا يطاول غُمدان في بهائه المشع.

سام الغُباري